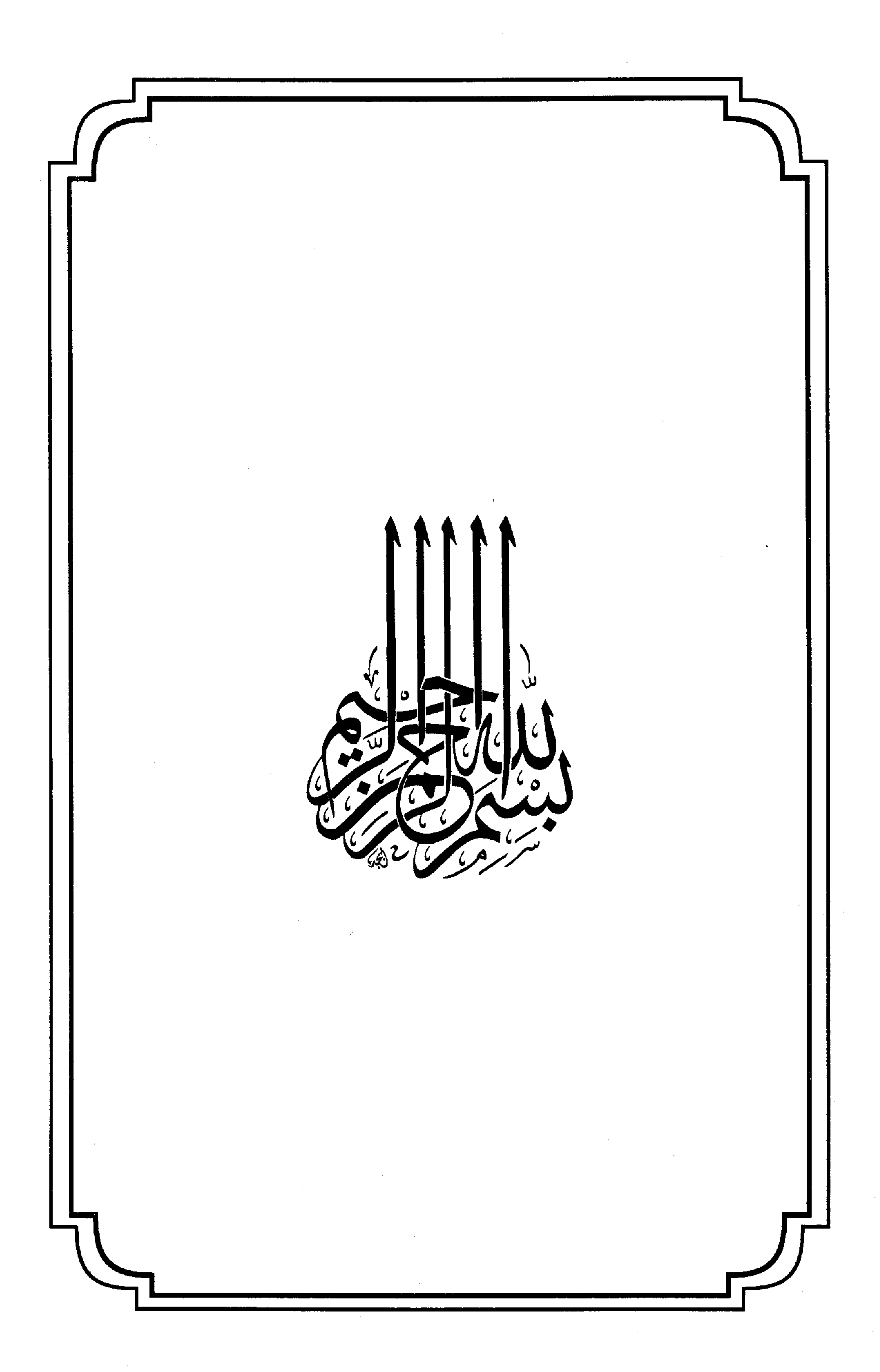
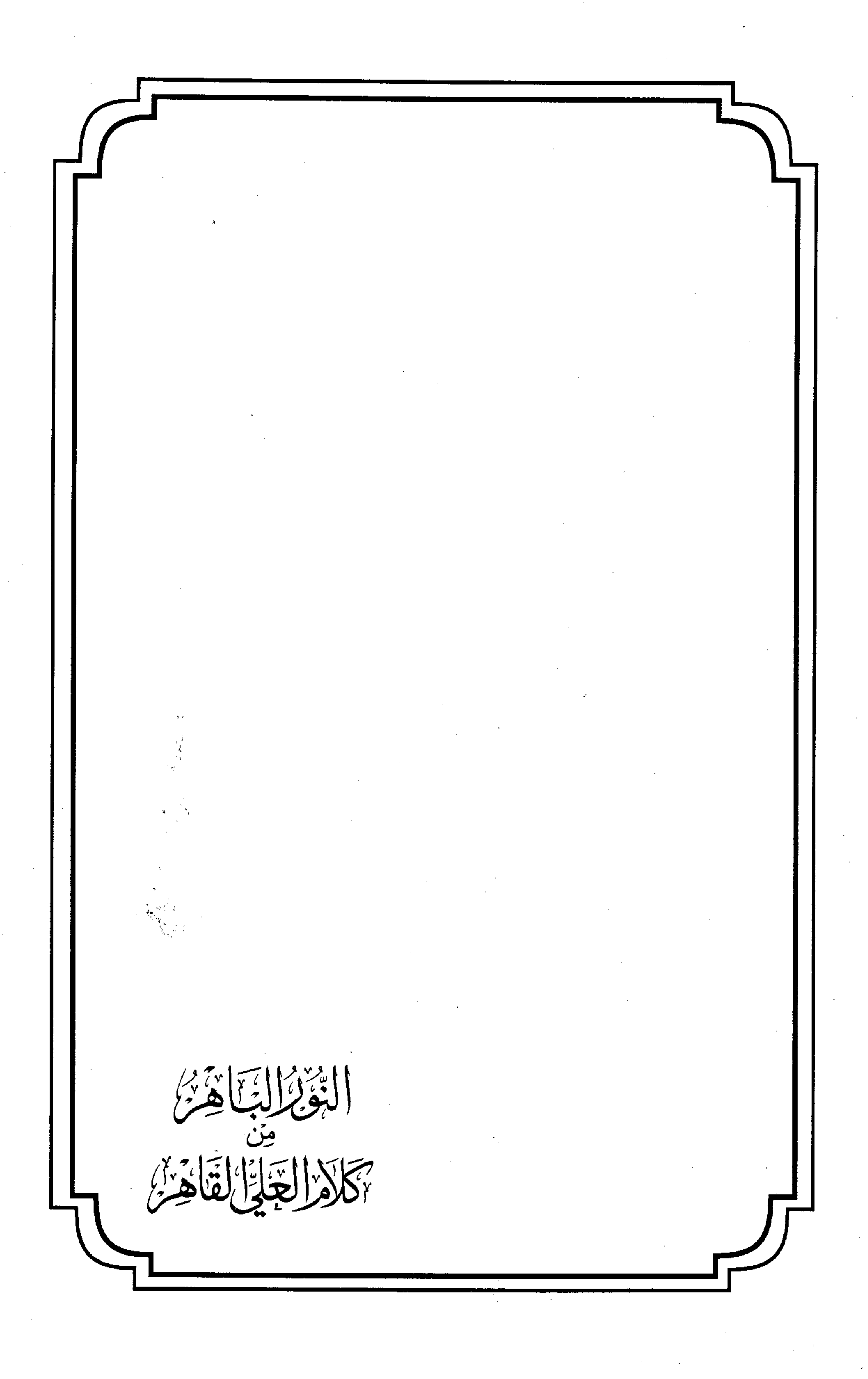
النُّورُ الباهِرُ مِنْ كلامِ العليِّ القاهِرِ

تَفْسِيرُ جُزْءِ عَمَّ
الجُزْءُ الثَّلاثُونَ

تأليف
فيصل بن عايد بن محمد الخطابي

توزيع
مكتبة السوادي للتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم


النور الباهر
من
كلام العلي القاهر

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

توزيع
مكتبة السوادي للتوزيع
ص.ب: ٤٨٩٨ جدة ٢١٤١٢
هاتف/ ٦٨٨٤٢١٢ ناسوخ: ٦٨٧٨٦٦٤
المملكة العربية السعودية



مكية وآياتها أربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ[١] ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ
﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا
﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

تمتاز السور المكية غالباً بقصر الآيات والسور وإيجازها وحرارة تعبيرها والدعوة إلى أصول الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، والبعث والجنة والنار، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، والاستقامة على الخير، ومجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.

وهذه السورة الكريمة نزلت على الرسول ﷺ بمكة في مجتمع جاهلي ضال لا يؤمن ببعث ولا نشور ولا حساب، فَقَرَّرت أمر البعث، وهددت المنكرين له، وأقامت الأدلة على إمكانه بما عرضت من مظاهر القدرة التامة، وأكدت حصوله، وذكرت بعض علاماته، ثم ذكرت مآل الكافرين ومآل المؤمنين، وخُتمت بذكر هول يوم القيامة على وجه الإنذار والتخويف حتى إن الكافر يتمنى أن يكون تراباً ولا يواجه الحشر والحساب، وفي ذلك موعظة عظيمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

(١) ﴿عَمَّ﴾ وقف عليها بهاء السكت يعقوب والبزي بخلف عنه.

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ أي عن أي شيء يسأل هؤلاء الجاحدون بعضهم بعضاً؟ وأصل «عم»: عن ما، فأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما، كقولهم: فيم، بم، والإدغام مسوّغ الاستفهام، وليس المراد مجرد الاستفهام، وإنما المراد تفخيم الأمر وتعظيمه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تجلس قريش لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾.اهـ.

وهذا يعني أنهم كانوا في جدل عقيم، وتنازع فيما بينهم أو فيما بينهم وبين الرسول ﷺ أو المؤمنين، وقد قال بعضهم: هو سحر أو شعر أو كهانة، وكل ذلك ينبئ عن شدة جهلهم وشكهم واستبعادهم للبعث بعد الموت، حتى إن قائلهم قال: ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، فأنكر الله تعالى على المكذبين منهم هذا الجدل والخوض ارتياباً في البعث فقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾، ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾، النبأ العظيم هو الخبر الكبير الهائل، والمراد هنا خبر البعث، ويشمل كل ما جاء به النبي ﷺ من البينات والهدى والقرآن وخبر البعث بعد الموت والحشر والحساب، فكان الناس في هذا النبأ العظيم بين مصدق ومكذب وشاك، فأما المصدق فقد فاز وأفلح؛ وأما المكذب والشاك فقد رَدَّ الله تعالى عليهم متوعداً بقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ ردع لهم وزجر، أي ليس لهم أن يختلفوا في أمر البعث بعد الموت، فهو حق لا ريب فيه، وكل ما جاء به الرسول محمد ﷺ حق، وكذلك جميع رسل الله تعالى عليهم السلام جاءوا بالحق الذي بعثهم الله به، فلماذا الاختلاف ولماذا التساؤل؟ ألا فليرتدعوا عن هذا التساؤل وهذا الاختلاف، وليؤمنوا بالله ورسوله وما أنزل عليه، وهذا يستلزم الإيمان بالبعث، وإذا أصروا على التكذيب فسيعلمون عاقبة تكذيبهم أو إنكارهم حين تنكشف الأمور ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ تأكيد للوعيد والردع، فعليهم أن يتركوا هذا التساؤل ويقبلوا ما جاءهم به الرسول ﷺ من ربهم، وسيعلمون علم اليقين عذاب الكافر المكذب عند النزع ولات حين مناص. فما أَشَدَّ خسارة المكذبين، وما أعظم سعادة المصدقين!

ثم تحدثت الآيات عن أدلة قدرة الله التامة، ونعمه العامة على الناس كافة، وأنه تعالى كما أحسن كل شيء خلقه، وأوجدنا من العدم ولم نك شيئاً، قادر على أن يحيي الموتى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ الاستفهام هنا تقريري، والمهاد: المكان الممهد الموطأ، والمعنى: أنه تعالى جعل الأرض، أي خلقها فراشاً ووطاءً للحياة عليها والانتفاع بها حسب حاجة الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أي جعل الله تعالى الجبال أوتاداً للأرض تثبتها، حتى لا تميد بأهلها، كما تثبت الخيمة بالوتد، وقال علماء الأرض: يبلغ سمك الجزء الصلب من القشرة الأرضية نحو ٦٠ كيلومتراً، وتكثر فيه التجاعيد فيرتفع حيث الجبال وينخفض ليكون بطون البحار وقيعان المحيطات، وهو في حالة من التوازن بسبب الضغوط الناتجة من الجبال ولا يختل هذا التوازن إلا بعوامل التعرية، فقشرة الأرض اليابسة ترسيها الجبال كما ترسي الأوتاد الخيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾ أي ذكوراً وإناثاً، ليسكن كل من الصنفين للآخر بالتناكح والتناسل، وهي نعمة عظيمة جعلها الله تعالى سبباً لعمارة الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الروم: ٢١].

وقيل: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافاً متقابلة في اللون والصورة وغيرها.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ أي راحة لكم من عناء العمل، فالنوم يقطع ما سبقه من التعب ويجدد النشاط، وفي ذلك نعمة عظيمة وآية من آيات الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣﴾ [الروم: ٢٣] وفي النوم تذكير للعباد بالموت كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾ [الأنعام: ٦٠] فالحي الذي لا يموت هو الله تعالى، والعباد يموتون ثم يبعثون، وربما كانت اليقظة بعد النوم تذكر بالبعث.

وكما قال أصحاب الاختصاص في موضوع النوم، قالوا: النوم هو توقف نشاط الجزء المدرك الواعي من المخ، أي قشرته أو هبوط ذلك النشاط هبوطاً كبيراً متفاوت الدرجات في نشاط كافة أعضاء الجسم وأنسجته مما يترتب عليه انخفاض في توليد طاقة الجسم وحرارته ـ ثم يأخذ الجسم أثناء النوم نصيباً من الهدوء والراحة بعد عناء المجهودات العضلية أو العصبية أو كليهما، فتهبط جميع وظائف الجسم الحيوية؛ ما عدا عمليات الهضم وإفراز البول من الكليتين والعرق من الجلد، فإن في وقف هذه العمليات الأخيرة ضرراً على حياة الفرد أما التنفس مثلاً فيبطئ ويصير أكثر عمقاً ويغدو صدرياً أكثر منه بطنياً. وينخفض ضغط الدم؛ وتبطئ سرعة النبض ويقل مقدار ما يدفقه من القلب من كل ضربة، ويضعف توتر العضلات ويصير من الصعب الحصول على الحركات العكسية وكل هذا بسبب الراحة للإنسان أثناء نومه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ أي مظلماً لسيتركم بظلمته لتستريحوا، وساتراً لكم عن العيون إن أردتم تهجداً، أو قضاء مصلحة مباحة، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ أي وقت سعي لتحصيل أسباب المعايش، إذ يتقلب فيه الخلق في حوائجهم ومكاسبهم. ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ أي سبع سموات قوية محكمة، لا يؤثر فيها مرور الزمان وتعاقب العصور، ولا فطور فيها ولا فروج، جعلها الله تعالى كالسقف للأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ أي متلألئاً وقّاداً وهي الشمس مضيئة وقّادة، وحرارتها في أيام الصيف حرارة شديدة مع بعدها الساحق عن الأرض، فما ظنك بما يقرب منها، ثم إنها تكون في أيام الحر في شدة حرها من فيح جهنم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم**». وقال عليه الصلاة والسلام: «**اشتكت النار إلى الله فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم، وأشد ما يكون من الحر من فيح جهنم**» [متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ].

وقال المختصون عن الشمس: ثبت علمياً من أن درجة حرارة سطحها

المشع تبلغ ٦٠٠٠ درجة مطلقة؛ أما المركز فتزيد فيه درجة الحرارة على ٣٠ مليون درجة بسبب ما تعانيه المواد فيه من الضغوط العالية، وتشع الشمس النسب الآتية من الطاقات ٩٪ أشعة فوق البنفسجية، ٤٦٪ أشعة ضوئية، ٤٥٪ أشعة حرارية، أو تحت الحمراء، ولذلك عبرت عنها الآية الكريمة بالسراج الذي يطلق للضوء والحرارة معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ المعصرات هي السحاب التي حان وقت إمطارها، سُمّيت معصرات تشبيهاً بالجارية المعصر التي دنا وقت حيضها، وقوله: ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي صباباً، والمقصود أن الله تعالى يذكّر عباده بنعمة نزول المطر الذي يحيا به العباد والبلاد، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، أي يخرج من بينه.

وقيل: المطر هو المصدر الوحيد للماء العذب على الأرض. والأصل في المطر تكاثف أبخرة المياه المتصاعدة من المحيطات والبحار ونحوها على شكل سُحب وتحويلها إلى نقط من الماء أو بلورات من الثلج أو هما معاً؛ وتتساقط هذه المكونات عندما تزداد حجومها على هيئة مطر أو برد بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ أي لنخرج بهذا الماء الذي نزل من السماء إلى الأرض أنواعاً من الحبوب والزروع التي تنبت في الأرض غذاء للناس وللحيوان. ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ أي بساتين ذات أشجار ملتفة بعضها إلى بعض، وتشمل جميع أنواع الأشجار التي ينتفع الناس بثمارها أو بغيره، والمقصود أن ما ذكر من الحب والنبات والأشجار ومختلف الزروع يخرج بالماء، سواء كان من ماء المطر مباشرة أو باستخراجه من باطن الأرض، لأن أصل الماء العذب على الأرض من المطر كما أسلفنا، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].



﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾
وَفُتِحَتِ[1] ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ[2] فِيهَآ أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا
وَغَسَّاقًا[3] ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

بعد أن بين الله تعالى دلائل قدرته التامة على البعث والجزاء الذي أنكره المشركون وتماروا فيه وتساءلوا وأكثروا الجدال فيه أخذت الآيات تعرض أحداث يوم القيامة، وهو يوم الفصل بين الخلائق ونهاية العالم الدنيوي، وهو يوم معلوم محدود في علمه ﷻ لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته، وتلك الأحداث تعرض صوراً جلية لما يكون في ذلك اليوم العصيب، منها: نفخ الصور، وتصدع السماء، وإزالة الجبال عن أماكنها وصيرورتها كالسراب يظنه من رآه ماءً، وما هو إلا هباءً منبثاً، ثم بينت الآيات مآل الطاغين وأنواع ما يعذبون به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، سُمِّيَ بذلك لأنه يوم يفصل الله فيه بين الناس، ويفرق السعداء من الأشقياء، ويقضي فيه بين الخلائق. ﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ أي ميقاتاً للجزاء، وموقوتاً لأجل معدود ينتهي إليه أمر الخلائق، وهو كائن لا محالة كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٤]، وكل معدود لا بد أن ينتهي، وكل ما هو آتٍ قريب.

(١) ﴿وَفُتِحَتِ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف التاء على الأصل وقرأ الباقون بتشديدها للتكثير.

(٢) ﴿لَّـٰبِثِينَ﴾ قرأ حمزة وروح بغير ألف بعد اللام «لَبِثينَ» صفة مشبهة. وقرأ الباقون بإثبات الألف «لابثين» اسم فاعل من لبث.

(٣) ﴿وَغَسَّاقًا﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتشديد السِّين وقرأ الباقون بتخفيفها.

ملاحظة: فخّم ورش الراء في «مرصاداً» كبقية القراء لوجود حرف الاستعلاء بعده، وهو «الصاد» ومعلوم أن حروف الاستعلاء هي: «خُصَّ ضَغْطٍ قِظْ».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل نفخة البعث، وهي النفخة الثانية ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وفي الآية إيجاز بالحذف، والمعنى: فتبعثون فتأتون أفواجاً، أي فوجاً مع فوج أو يتلو فوجاً، والفوج يعني الجماعة، أي حال كونكم أمماً كل أمة مع إمامها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، أو زمراً وجماعات مختلفة باعتبار اختلاف أعمالهم في الحياة الدنيا، فمنهم من يحشر على صورة القردة أو الخنازير أو منكوسون أرجلهم فوق وجوههم، ولقد جاء في ذلك أثر الله أعلم بصحة سنده، نورده كما هو، فقد أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب: «أن معاذاً بن جبل قال: يا رسول الله ما قول الله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾؟ فقال: «**يا معاذ سألت عن أمر عظيم**»، ثم أرسل عينيه ثم قال: «**عشرة أصناف قد ميزهم الله من جماعة المسلمين، وبدل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكبين أرجلهم فوق ووجوههم أسفل يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنته وهي مدلاة على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم لعاباً، يقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغات من قطران لازقة بجلودهم. فأما الذين على صورة القردة فالقتات[1] من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأكلة السحت، والمنكوسون على وجوههم فأكلة الربا، والعمي من يجور في الحكم، والصم البكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقُصَّاص من الذين يخالف قولهم أعمالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشد نتناً من الجيف الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله وحق الفقراء من أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والخيلاء والفخر**».

وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾ وهذا من أوصاف يوم

---

(١) القتات: هو النمام.

الفصل العظيم المخيف، حيث تتشقّق السماء وتتصدع من كل جانب وتكون أبواباً لنزول الملائكة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥] وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، فهذه السماء المحكمة والتي كانت سقفاً محفوظاً تصير في ذلك اليوم أبواباً، وتلك السبع الشداد تكون كالمهل ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي هباءً منبثاً كالسراب في عين الناظر ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ أي مرصدة ومعدة للطاغين، وقيل: في الآية إشارة على أن عليها مجاز الناس، روى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال: لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا أُحتبس.اهـ. والمراد بالجواز هنا الأعمال الصالحة التي تؤهله بعد مشيئة الله تعالى لدخول الجنة.

وعن ابن عباس: أن على جسر جهنم سبع محابس يُسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامّة جاز إلى الثاني، فيُسئل عن الصلاة فإن جاء بها تامّة جاز إلى الثالث، فيُسئل عن الزكاة فإن جاء بها تامّة جاز إلى الرابع، فيُسئل عن الصوم فإن جاء به تامّاً جاز إلى الخامس، فيُسئل عن الحج فإن جاء به تامّاً جاز إلى السادس، فيُسئل عن العمرة فإن جاء بها تامّة جاز إلى السابع، فيُسئل عن المظالم فإن خرج منها وإلا يقال: انظروا فإن كان له تطوّع أكمل به أعماله، فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة.اهـ.

وقوله تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ أي للمتجاوزين حدود الله، المعتدين على حقوق العباد مرجعاً ومنزلاً يصيرون إليه، وهي نار جهنم أعاذنا الله منها ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ أي ماكثين دهوراً متتابعة إلى غير نهاية كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]، ورُوي عن الحسن قال: إن الله تعالى لم يجعل على النار مدة بل قال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر، ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود ورُوي عن عبد الله بن مسعود قال: «لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا».اهـ.

ودل القرآن والسنة على أبدية الجنة والنار، وأن من دخل أيهما وهو من أهلها فإنه مخلد فيها بلا نهاية، وأما عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار، فإنهم يبقون فيها ما شاء الله، ثم يكون مآلهم الجنة كما دل على ذلك أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ، وليس في الآية الكريمة ما يدل على تناهي تلك الأحقاب، بل المعنى أحقاباً كثيرة لا نهاية لها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم ولا شراباً طيباً يتغذون به، وقيل: برداً، أي نوماً. وقيل: ليس لهم في جهنم ما يبرد ظاهر الجسم ولا ما يبرد داخله مما يُشرب ليسكن العطش ويطفئ حرارة البدن، والظاهر أن كل هذا وارد لأن من دخل جهنم - والعياذ بالله - لا يجد فيها راحة ولا نوماً ولا طعاماً إلا ذا غصة، ولا شراباً إلا الحميم، والفساق كما قال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ والحميم هو الماء الحار المنتهي في الحرارة، كما قال تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، والغساق: هو ما يسيل من صديد أهل النار، فلا يُستطاع من شدة برودته ولا يواجه من نتنه، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ أي موافقاً لأعمالهم السيئة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قال مقاتل: وافق العذاب الذنب، فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ أي لم يكونوا يتوقعون الحساب والجزاء لأنهم لم يؤمنوا أصلاً بالبعث. فكان الجزاء موافقاً للعمل ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ أي كذبوا بآيات الله تعالى وحججه تكذيباً زائداً ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ[1] أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ أي كل شيء من أعمالهم ضبطناه بالكتاب عليهم في صحائف نفوسهم، فقد كانت الملائكة تكتب أعمالهم وتحصيها عليهم، وهذا يوم الحصاد، فيقال لهم تبكيتاً وتوبيخاً لهم وهم يقاسون أشد

---

(١) ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ أي كل شيء من الأشياء، ومن جملتها أعمالهم فاللفظ عام في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

العذاب: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ أي فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، وذلك تيئيساً لهم من تخفيفه وإعلاماً بمضاعفته.

رُوي عن أبي برزة أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أشد آية في القرآن فقال: «قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾».



﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا[1] ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

بعد أن بيّن الله تعالى حال الكافرين وما أعده لهم من أليم العذاب بيّن حال المؤمنين وما أعده لهم من النعيم المقيم في دار كرامته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ المتقون هم الذين اتقوا محارم الله تعالى وخافوا عقابه بفعل ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه، فأولئك لهم الفوز بجنات نعيم والنجاة من عذاب النار، ثم فسر هذا الفوز وفصله بقوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ الحدائق جمع حديقة، والمعنى: بساتين مسوَّرة، فيها أنواع الشجر المثمر، ومن جملتها الأعناب، وخصها بالذكر لشرفها.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال: فازوا بأن نجوا من النار، وقال قتادة: أي مفازاً من النار إلى الجنة، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ قال: منتزهاً.اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، وهي الجارية التي برز ثديها واستدار مع ارتفاع يسير، وقال ابن عباس: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي نواهد.اهـ. وقوله تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مستويات في السن ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي ملأى من خمر لذة للشاربين، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿لَغْوًا﴾ أي كلاماً باطلاً لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي مكاذبة، أي لا يكذِّب بعضهم بعضاً، وهذا

---

(١) ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الذال وقرأ غيره بتشديدها.

من تمام النعيم، إِذْ إنَّ اللغو والتكذيب مما تتألم له النفوس المؤمنة، وتنفر منه الطباع السليمة.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾ أي جزاء لهم على صالح أعمالهم تفضلاً منه تعالى وإحسانا ﴿حِسَابًا﴾ أي كافياً وافياً، ومنه: حسبي الله، أي كافي.

وهكذا وعد الله تعالى عباده الأبرار بنعيم لا يحول ولا يزول في جنات الخلد، لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولهم زوجات حسان من الحور العين ومن نسائهم الصالحات، نعيم دائم وسعادة أبدية، لا يسمعون ما يكدر من القول، ولا يرون ما يسيء، لأن الجنة دار النعيم الكامل، من أوصافها أن أهلها: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦]، فنسأل الله الجنة ونعوذ به من النار.



﴿رَّبِّ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ[2] لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

كانت الآيات قد تحدثت من أول السورة عن إنكار المشركين البعث ومجادلتهم وترددهم في حقيقة الرسالة والكتاب والمرسَل، فنعت الآيات عليهم ذلك، وأقامت الأدلة على إمْكان حصول ما أنكروه، ثم عرضت بعض

---

(١) (٢) ﴿رَّبِّ ... ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ «ابن عامر، وعاصم، ويعقوب» بخفض باء «رب» ونون «الرحمن» على أنهما بدل من «ربك» بدل كل من كل، وقرأ «حمزة والكسائي، وخلف العاشر» بخفض باء «رب» على أنه بدل من «ربك» ورفع نون الرحمن على أنه مبتدأ والجملة بعده خبر، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي هو الرحمن، وقرأ «نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر» على أنهما خبر لمبتدأ محذوف، أي هو رب، وهو الرحمن.

أحداث يوم القيامة، وبيَّنت أن مآل المكذبين النار، وبشَّرت المتقين بالفوز في جنات النعيم، ثم عاد الكلام عن أهوال يوم القيامة، وتجلّىٰ الواحد القهار القوي المتين، ليعذر إلى الخلق أجمعين، فمن صدق واتقى، نال مرضاة الله تعالى، ومن كذب وأبى خسر خسراناً مبيناً، وفي ذلك اليوم لا يتكلم أحد إلا بعد أن يأذن له الله تعالى، وأن يكون قوله صدقاً وصواباً، فتهاب كل المخلوقات الكلام، حتى جبريل مقدَّم أهل السماء وأمين الوحي، ثم بيان شدة ندم الكافر عندما يرى عمله السيء في الحياة الدنيا، ويبلغ به التحسر ذروته، والخوف نهايته، فيتمنى أن يكون تراباً ولا يواجه الحساب العذاب الأليم، ولات حين مندم.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الله تعالى هو رب كل شيء ومليكة، فهو رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ما علمنا من ذلك وما لم نعلم، فإنه تعالى خالق كل شيء وعالم بكل شيء ورحمته وسعت كل شيء، أما سبب كسر الباء في قوله: «رب» والنون في قوله: «الرحمن» فقد بيناه مع مذاهب القراء العشرة فيها. ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه تعالى، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وعلى ذلك الجمهور، ومما يؤيده قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وفي المراد بالروح هنا أقوال أخرى للمفسرين، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ أي صفوفاً صفاً بعد صف، كما جاء في الحديث، قال: «**تنزل ملائكة السماء الدنيا فتحيط بالخلق، ثم ملائكة السماء الثانية من وراءهم، ثم الثالثة والرابعة والخامسة**» [ذكره ابن كثير في البداية والنهاية].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦]، قال ﷺ: «**ألا تصفون ما تصف الملائكة عند ربها**» قالوا: وكيف يصفون عند ربهم؟ قال: «**يكملون الصف**

الأول ويتراصون في الصف». وقال: «**فضلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها لنا طهوراً، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة**».

وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب ﷻ صفوفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، ويقفون صفوفاً بين يدي ربهم ﷻ يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي لا يتكلم أحد من الملائكة ولا من غيرهم بشفاعة أو بغيرها ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالكلام، والإذن بالشيء إعلام بإجازته والرخصة فيه، فلا يستطيع أحد أن يتكلم إلا من بعد أن يأذن الله له ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي قولاً صواباً موافقاً للحق والصدق، ومن حديث الشفاعة في الصحيح أن نبينا محمد ﷺ هو أول من يكلم الله ﷻ في الموقف، حيث يأتي تحت العرش، فيخر ساجداً، فلا يزال ساجداً يحمد الله تعالى بمحامد يُلهمها ساعتئذْ، فيقول له الرب تعالى: ارفع رأسك وسَلْ تُعط واشْفع تُشفَّع.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك اليوم الثابت وقوعه، المتحقق لا محالة، وهو يوم الفصل بين الخلائق، فيه تتكشف الأمور، ويظهر المستور، ويحكم فيه بالعدل الحي الغفور ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي مرجعاً بالإيمان والطاعة.

قال ابن عثيمين رحمه الله في هذه المسألة: وهذه المشيئة المطلقة هنا قيدتها آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. يعني أننا لنا الخيار فيما نذهب إليه لا أحد يُكرهنا على شيء؛ لكن مع ذلك خيارنا وإرادتنا ومشيئتنا راجعة إلى الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وإنما بيّن الله ذلك في كتابه من أجل أن لا يعتمد الإنسان على نفسه وعلى مشيئته، بل يعلم أنها مرتبطة بمشيئة الله، حتى يلجأ إلى الله في سؤال الهداية لما يحب ويرضى. ولا يقول الإنسان: أنا حر أريد ما شئت وأتصرف كما شئت، نقول: الأمر كذلك لكنك مربوط بإرادة الله ﷻ. فما نشاء من شيء إلا وقد شاءه الله من قبل. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي خوّفناكم عذاب يوم القيامة، وهو قريب جداً، لأن كل ما هو آتٍ قريب، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، وإن كان الإنذار هنا موجهاً للكفار من منكري البعث كما في أول السورة إلا أنه عام لكل مكلف ليستعد ليوم المعاد، ومن ثم مِنْ قُرْبِ العذاب أنه يبتدي بالموت، والإنسان لا يعلم متى يموت، فالعاقل يكون أبداً في ترقب واستعداد له حتى يأتيه اليقين، فنسأل الله التوفيق والسداد.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي من خير أو شر، أي ينظر جزاءه ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ وهذا عندما يعاين أعماله الفاسدة التي تورده النار، فيتمنَّى الموت من شده الحسرة والندم، ولات حين مناص.

وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله تعالى بين الحيوانات التي كانت في الدنيا بحكمه العادل، ثم يصيّرها تراباً. كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذٍ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى، قال الله: كونوا تراباً، فعند ذلك** ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾» ومعنى «يقيد الجماء من القرناء»: أي يقتص للبهيمة التي لا قرون لها من ذات القرون التي نطحتها بقرونها.

تم بحمد الله تفسير سورة النبأ



مكية وآياتها ست وأربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ
سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ
وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا
عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ(١) ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم
بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

إن لله تعالى ملائكة كرام، يأمرهم بما يشاء، ويفعلون ما يؤمرون، فأقسم الله تعالى في أول هذه الآيات بخمسة أصناف من مخلوقاته(٢)، ولله تعالى أن يقسم بما شاء، أما المخلوق فليس له أن يقسم بغير الله تعالى.

أقسم الباري جلّ وعلا بما ذُكر على أنه لا بد من البعث والجزاء، ليرتدع المكذبون، ويرجع المتشككون، وليصدقوا بالبعث بعد الموت، وأنه لا مرية فيه ولا جدل.

والمفهوم العام للآيات أن لله تعالى ملائكة يقومون بقبض أرواح العباد، عندما يأذن الله تعالى لهم في ذلك.

فإذا كان العبد كافراً أو فاجراً تولت قبض روحه ملائكة العذاب، حيث

---

(١) ﴿نَّخِرَةٗ﴾ قرأ شعبة وحمزة والكسائي ورويس وخلف بألف بعد النون، وقرأ الباقون بحذفها.

(٢) الجمهور على أن الخمسة الأصناف المقسم بها هم طوائف الملائكة.

تأتيه في أبشع صورة وأفظع منظر، وأشدّ هول، لتبعث الرعب في نفسه، حيث تتفرق روحه في جسده من شدة الخوف والهلع، لهول ما يرى، وذلك عقاباً له على كفره أو فجوره، لأن عذاب الكافر أو الفاجر يبدأ عند موته.

فتأخذ في نزع روحه الهاربة في أرجاء جسمه بشدة وعسر، فيجد لها ألماً شديداً لا يمكن أن يصفه إلا مَن قاساه، وهيهات! الروح تفرق في البدن، وتتفرق فيه، والملائكة تخرجها من كل عضو، ومن كل عرق، ورد أنها تُخرج كما يُخرج السفود من الصوف المبلول، أي بشدة وتعسر، أما المؤمن، فإنه إذا أذن الله تعالى لملائكته في قبض روح المؤمن، فإنه تأتيه ملائكة الرحمة في أحسن صورة، وأبهج منظر مع البشارة بالجنة والسعادة الأبدية، فيفرح بذلك فرحاً لم يسبق له مثله، فتنشط الملائكة روحه نشطاً بسهولة ويسر لا يجد له ألماً، كما ينشط العقال من يد البعير، وورد في الحديث: «**أنها تسيل كما تسيل القطرة من فِيْ السقاء**».

ويُبَشَّر المؤمن بالجنة ويبدأ نعيمه الأخروي بموته.

فلا بد لكل مخلوق أن يموت، إذا انتهى أجله، فإذا أذن الله تعالى بقيام الساعة تَحْدُث الراجفة، وهي النفخة الأولى التي بها يفنى كل شيء، ويتزلزل كل شيء معها ثم تتبعها الرادفة وهي النفخة الثانية نفخة البعث من القبور أحياء، وبين النفختين أربعين سنة كما ورد في الحديث.

ثم بعد ذلك ماذا يحدث؟ أخبر الله بما يحدث فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨].

هناك يكون الحشر، هنالك يكون الجزاء، هنالك يكون فصل القضاء.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

إنها أرض جديدة، لم يعص الله تعالى عليها.

فهذه الآيات من أول السورة إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ بينت شدة ما يلاقيه الكافر عند الموت، وسهولة احتضار المؤمن، ورؤية كل منهما

منزله في الآخرة بعد الموت، وأرشدت إلى وجوب الإيمان بالنفختين، ودلَّلت دلالة قاطعة على البعث والنشور يوم القيامة.

أقسم الله تعالى بطوائف الملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال إنقيادهم لأمر الله تعالى، والتأنيث باعتبار الطائفة، كأنه قال: والطائفة النازعات.

ويرى بعض المفسرين أن المقسم بها النجوم، ويرى بعضهم أنها جماعات الخيل الغازية، والرماة والفرسان.

وقال ابن جرير في جامع البيان (٣٠/ ٢٨): والصواب عندي أن يقال أنه تعالى أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخصص نازعة دون نازعة، فكل نازعة غرقاً، فداخلة في قسمه، مَلَكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك، وهكذا البقية. اهـ.

وقال الشوكاني: الجمهور من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم على أن الأصناف المقسم بها هنا الملائكة. اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار ﴿غَرۡقٗا﴾ أي نزعاً شديداً ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾ يعني الملائكة تقبض أرواح المؤمنين، فتخرجها بسهولة ويسر، وتسلها برفق.

وفي المسند[1] من حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه بسند جيد قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يُلحَدْ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عودٌ ينكتُ به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «**إن العبدَ المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء؛ بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفانِ أهل الجنة، وحنوطٌ من حنوطِ الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيءُ مَلك الموت** عليه السلام **حتى يجلسَ عند**

---

(١) مسند الإمام أحمد رحمه الله.

رأسه، فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسلُ القطرةُ من فِيِّ السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وجِدَتْ على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروحُ الطيبة! فيقولون: روحُ فلانِ ابنِ فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا. فيستفتحون له، فيفتح له: فيشيعُه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماءِ التي تليها، حتى يُنْتَهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابَ عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أُخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه إلى الأرض، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول: ربي الله ﷻ، فيقولون له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولا له: ما هذا الرجلِ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو محمد رسول الله ﷺ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتابَ الله ﷻ، فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، ففرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة. قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، ويُفْسَحُ له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسنُ الوجه؛ حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد؛ فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجعَ إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلسَ عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها، كما ينتزع السُّفود من الصوف المبتل، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه

التي كان يُسمَّى بها في الدنيا، فيُسْتَفْتَح، فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] **- فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً** - ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] **- فتُعادُ روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كَذَبَ عبدي، ففرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حَرِّها وسَمُومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعُه ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنْتِنُ الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيءُ بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».**

وفي لفظٍ لأحمد أيضاً: **«ثم يُقَيَّضُ له أعمى أصمُّ أبكمُ في يده مِرزبة، لو ضرب بها جَبَلاً كان تراباً، ثم يعيده الله ﷻ، كما كان، فيضربه ضربةً أخرى، فيصيح صيحةً يسمعها كلُّ شيء إلا الثقلين».**

قال البراء: ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى النار، ويُمَهَّدُ له من فرش النار.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣﴾ يعني الملائكة تسبح بأمر الله تعالى، أي تسرع كما يسرع السابح في الماء، مسرعين لتنفيذ أمر الله ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾ يعني الملائكة تسبق سبقاً إلى ما أُمِروا به، ووكلوا عليه، فيصلون بسرعة، أو تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وكذلك أرواح الكافرين إلى النار، والملائكة أسبق إلى أمر الله، وأقوم بأمر الله من بني آدم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ يعني الملائكة الموكلين بتدبير شؤون الكون حسب أمر الله تعالى، فجبريل موكل بالوحي، يتلقاه من الله تعالى وينزل به على الرسل، وإسرافيل موكل بالصور والنفخ فيه إذا أراد الله، وميكائيل موكل بالمطر والنبات «وعزرائيل» ملك الموت موكل بقبض

الأرواح، ومالك خازن النار، ورضوان خازن الجنة، وكذلك الحفظة وغيرهم مما لا يعلمه إلا الله.

أقسم الله تعالى بهذه الأصناف الخمسة من الملائكة دلالة على شرفها وشأنها العظيم، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده عليه، وتقديره: لتبعثنّ ولتحاسبنّ، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ وهما النفختان في الصور النفخة الأولى يفنى فيها كل شيء إلا ما شاء الله، والثانية نفخة البعث من القبور أحياء، وبينهما أربعون سنة كما في الحديث الصحيح، وقال الترمذي: حدثنا هناد وحدثنا قبيصة عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أُبيّ بن كعب عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «**يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**».

وقال الحسن البصري: هما النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيي الموتى، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أي قلوب الكفار في ذلك اليوم خائفة قلقة مضطربة ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩﴾ أي ذليلة خاضعة مما عاينت من سوء المنقلب كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [الشورى: ٤٥] وفي تنكير قلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ إشارة إلى أن ثَمَّ قلوب على عكس قلوب هؤلاء، لتمايز الحال بينهم ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ أي منكروا البعث ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ أي أنرد بعد الموت إلى الحياة من جديد كما كنا أول مرة؟ والحافرة اسم لأول الأمر، يقال: رجع فلان إلى حافرته، أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها برجليه، والحافرة هنا في الآية بمعنى الحياة. ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١﴾ أي بالية متفتتة، والمعنى أنهم قالوا: أنرد إلى الحياة إذا صرنا عظاماً بالية قد

رمَّت؟ وهو استبعاد منهم للبعث وإنكار له ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي رجعة خاسرة، قالوا هذا القول الآثم على سبيل الاستهزاء واستبعاد البعث، ويعنون أنها لو صحت العودة إلى الحياة فستكون خاسرة، وهي في حقهم كذلك، لتكذيبهم، وذلك من سخف عقولهم وجهلهم، فقد كان أمامهم نبي مرسل يتلو عليهم كتاب ربهم، ثم هم يقولون ما قالوا. . .!!، نسأل الله السلامة، ونحمده على نعمة الإسلام، فردَّ الله عليهم، وكأنه قيل: لا تستصعبوا ذلك ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية، نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي على وجه الأرض أحياء، بعد أن كانوا في جوفها أمواتاً، والعرب تسمِّي الفلاة ساهرة، لأن سالكها لا ينام من أجل الخوف، والساهرة في الآية هي أرض المحشر.

روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النَّقي، ليس فيها عَلَمٌ لأحد»**.



﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ[1] الْمُقَدَّسِ طُوًى[2] ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ[3] ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ
الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم أخذت الآيات تتحدث عن جانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية تسلية للنبي ﷺ مما يعاني من تكذيب قومه، وتهديداً لمن كذبه بعقوبة

---

(١) ﴿بِالْوَادِ﴾ يقف عليه يعقوب بزيادة ياء ساكنة بعد الدال وغير بتركها.

(٢) ﴿طُوًى﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتنوينه مع كسره وصلاً وإبداله ألفاً وقفاً وقرأ الباقون بحذف التنوين في الحالين.

(٣) ﴿إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بتشديد الزاي وغيرهم بتخفيفها.

تنزل بهم كعقوبة فرعون الذي كان أشد منهم بطشاً، فلما كفر هو وقومه أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم يجدوا لهم من دونه ولياً ولا نصيراً.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ أي خبره حين ناجاه ربه؟ والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من يتأتى خطابه، وفيه تسلية للنبي ﷺ وقد أحزنه إنكار قومه ليوم الحساب، وتهديد للمنكرين، وعظة باقية إلى آخر الزمان، والاستفهام هنا جاء بأسلوب التشويق والترغيب للسامع ليستمع إلى ما جرى في هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ أي هل أتاك خبر موسى حين ناداه ربه بالوادي المبارك المطهر، وهو واد في أسفل جبل طور سيناء من برية الشام، و﴿طُوًى﴾ اسم للوادي كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ وهذه هي الرسالة أرسله الله تعالى إلى فرعون ملك مصر الذي عتا وتجاوز حده في العدوان على بني إسرائيل، وانتحال صفات الربوبية ونسبتها إلى نفسه كما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي هل لك رغبة وميل إلى أن تتطهر من الشر والفساد، فتزكو روحك وتطهر بالإسلام ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ عقابه فتترك الظلم والطغيان، وفيه إشارة إلى أن الخشية مسببة عن العلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] أي العلماء بالله تعالى، وقيل: جعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاك الأمر، فإن مَنْ خشي الله تعالى، أتى منه كل خير، ومَنْ أَمِنَ اجترأ على كل شر.

روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ خاف أدْلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**». (أدلج) بسكون الدال مخففاً، أي سار مِنْ أول الليل، وبتشديد الدال: سار من آخر الليل.

والرفق في الدعوة إلى الله تعالى ظاهر من الآية الكريمة، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] فرغم ما عليه فرعون من الشرك وادعاء الربوبية والظلم والكفر والطغيان والجهل المطبق، أُمر نبي الله موسى وصفوته في خلقه إذْ ذاك أن يخاطبه بالملاطفة واللين والحكمة ليرغب في الخير ويترك الشر والفساد، وفي ذلك عبرة وتوجيه لكل داعية من الدعاة أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي الدلالة الكبرى على أنَّ موسى رسول الله، حقيق على أن لا يقول على الله إلا الحق، أرسله الله تبارك وتعالى إلى فرعون وقومه. والفاء فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلاً على تفصيلها في السور الأخرى، أي فذهب موسى إليه فدعاه وكلمه، فامتنع عن الإيمان فأراه الآية الكبرى، وهي قَلْب العصا حية تسعى، ويده إذْ أخرجها بيضاء للناظرين من غير سوء، أي من غير مرض كالبرص ونحوه، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة، وسماها سحراً، وعصاه فيما أمره به من طاعة الله تعالى وخشيته إيَّاه ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي فرعون تولّىٰ مدبراً، يسعى حثيثاً ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع قومَه وجنودَه ﴿فَنَادَىٰ﴾ أي نادى فيهم بصوت مرتفع بنفسه أو بمناد، وقصده نهيهم عن دعوة توحيد الله تعالى التي جاء بها نبي الله موسى عليه السلام، وهي دعوة جميع الرسل عليهم السلام، توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له إرغاماً لمن جحد به وكفر.

وماذا قال ذلك الرجل المعتوه ـ أعني فرعون لعنه الله ـ لقد ادَّعَىٰ لنفسه ما ليس له، وقال كما أخبر الله تعالى عنه ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي لا رب فوقي! وقيل: أراد أن الأصنام أرباب، وهو ربها وربهم! أعوذ بالله من الكفر، والله لقد سمعت بعض العامة خلفي في الصلاة وأنا أقرأ هذه الآية يقول: استغفر الله، وما ذلك إلا لهول ما سمع.

قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] بأربعين سنة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ أي عاقبه الله في الدنيا بالإغراق، وأعدَّ له في الآخرة السَّعير والإحراق، وجعله عبرة للعباد في زمنه وبعد زمنه إلى يوم القيامة، وقيل: المراد بذلك كلمتيه الأولى والثانية، وكيفما كان فإن ما حلّ به من العقاب الأليم هو جزاءً له وردعاً لأمثاله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما قص الله تعالى من خبر موسى وفرعون ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي عظة وعبرة لمن يخاف عذاب الآخرة، فيتقي الله تعالى ويبتعد عن أسباب سخطه وعقابه.



﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

بعد قصة موسى مع فرعون وما انطوت عليه من تسلية الرسول ﷺ مما عاناه من تكذيب قومه، وتهديد المكذبين ببيان ما حلّ بفرعون وقومه نتيجة كفرهم، وأن عقاب الله ليس ببعيد عن الكافرين، جاءت هذه الآيات تقرر عقيدة البعث والجزاء، وتبين الحجة على منكري البعث بعد الموت بهذا الدليل الذي لا ينكره أحد، وهو أن خلق السماوات والأرض والجبال وما فيهما من المخلوقات، وتدبير أمور الخلق أشدّ خلقاً وأعظم من خلق الإنسان بعد موته. فقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ الاستفهام لتقرير إمكان البعث، والخطاب لمنكري البعث، لتنبيههم على سهولته في جانب القدرة الربانية، فإن من رفع السماء على عظمها هيّن عليه خلقهم وخلق أمثالهم بعد مماتهم، وجواب الاستفهام هنا معلوم ضمناً وهو: أن السماء أشدّ خلقاً من خلقهم. كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨١ ـ ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي رفعها فجعلها عالية كالسقف للأرض من غير عمد، ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي ارتفاعها ما بين سطحها الأسفل الذي يلي الأرض، وبين سطحها الأعلىٰ الذي يلي ما فوقها، وبهذا يكون معنى ﴿سَمْكَهَا﴾ ثخنها وغلظتها، وهو قدر مسيرة خمسمائة عام.

والوقف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ والابتداء بقوله ﴿بَنَىٰهَا . . .﴾ إلخ، جائز غير أن الوقف إذا كان في رؤوس الآي، فحكمه أنه يحسن الوقوف عليه والابتداء بما بعده لأن الوقف على رؤوس الآي سنّة متبعة لوروده عن رسول الله ﷺ في حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية، يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، ثم يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾، ثم يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [أخرجه الترمذي عن أبي مليكة عن أم سلمة].

ويرى بعض أهل العلم أنه يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ـ أي رؤوس الآي ـ إذا كان ما بعده مقيداً لمعنى، وإلّا فلا يحسن الابتداء به، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩، ٢٢٠]، فإن ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ رأس آية، ولكن ما بعده لا يُفهم إلا بما قبله، فلا يحسن الابتداء بقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بل يستحب العودة لما قبله. وأورد الحافظ ابن الجزري في «النشر» اختيار الأئمة للوقف على رؤوس الآيات لكونه سنة، ثم قال: وقالوا: الأفضل الوقوف على رؤوس الآيات وإن تعلقت بما بعدها قالوا: واتباع هدي الرسول ﷺ وسنّته أولى.اهـ.(١)(٢).

فالوقف هنا يحسن أن يكون على ﴿بَنَىٰهَا﴾ اتباعاً للسنة، ثم يبدأ بها ويصلها بما بعدها إن كان هناك إيهاماً للمعنى. والله أعلم.

ونُقِل عن الكسائي والفراء والزجاج قولهم: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف. . التي، ومثل هذا الحذف جائز.اهـ(٣).

---

(١) النشر في القراءات العشرة (٢٢٦).

(٢) من كتاب جهد الفقير في تجويد كلام العلي القدير للمؤلف ص(١٣٩).

(٣) كما في تفسير الشوكاني (٥/ ٤٧٣).

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي جعلها مستوية، لا تفاوت فيها ولا شقوق ولا فطور، قال ابن كثير: أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء. اهـ(1).

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلماً ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أبرز نهارها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ أي الأرض بعد خلق السماء ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها ومدها لسكنى أهلها، وتقلبهم فيها لمعايشهم ومنافعهم، وقد كانت الأرض مخلوقة غير مدحوة قبل ذلك، فلا تخالف هذه الآية آية سورة فصلت، قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].

فهذه الآيات من سورة فصلت تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض، وآية النازعات التي معنا تدل على أن الله تعالى دحا الأرض ومهدها لسكنى الناس بعد خلق السماء، ومعنى الآيتين أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماوات بعد ذلك، ثم عاد إلى الأرض فدحاها.

قال ابن عباس: خلق الله الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ثم دحا الأرض بعد ذلك. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ أي بأن فجر منها عيوناً، وأجرى أنهارها ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي أنبت فيها النبات مما يقتات به الناس كالحب والثمار، وما تقتات به الأنعام كالعشب ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أي ثبتها فيها وجعلها كالأوتاد للأرض كي لا تميد بأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٠).

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ أي فعل ذلك كله لينتفع به الناس والأنعام إلى حين.

❖ ❖ ❖

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ[1] مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

بعد تقرير عقيدة البعث بعد الموت، والدلالة عليها ببدء الخلق والأمور المشاهدة من خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ذكر في هذه الآيات أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس إلى فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير وبيان سبب ذلك، وأشارت الآيات إلى تساؤل الناس عن وقت قيام الساعة، وأن علمها لله وحده، لم يطلع عليها أحداً من خلقه لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل، وأنَّ وظيفة الرسل هي تحذير الناس للاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح، وختمت السورة باستقصار مدة الحياة الدنيا في أعين المكذبين حتى إنهم يرونها كأنها نصف نهار أو أقل لهول ما شاهدوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أي القيامة، وسميت بالطامة الكبرى لأنها تطم على كل شيء، ولا يكون أطم منها ولا أعظم، حتى ولا ريح عاد، ولا صيحة ثمود، ولا رجفة يوم الظلة، فهي أكبر من كل طامة.

قال ابن عباس: سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ أي في ذلك اليوم تذكر

---

(١) ﴿مُنذِرُ﴾ قرأ أبو جعفر بتنوين الراء، و﴿مَن﴾ مفعوله، وقرأ الباقون بعدم التنوين على إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

الإنسان ما عمله من خير أو شر، ويراه مكتوباً في صحيفة أعماله، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

والإنسان يعمل وينسى في هذه الدنيا أعماله، وهي تُحصى وتدوّن له أو عليه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة: ٦]، فالعمر يمضي والأعمال تكتب، فإذا جاءت الطامة عرضت عليه أعماله، فيفرح بالحسنات، ويحزن من السيئات، فما أسعد الأتقياء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما أتعس الأشقياء الذين كفروا وطغوا وفجروا وعصوا.

وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي أظهرت النار المتأججة للناظرين، فرآها الناس عياناً، وفي خضم هذه الأهوال، وعند هذا المشهد المخيف، والنار بارزة، حاضرة، تنخلع من هولها القلوب، ويشيب الولدان، وقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بالنار يومَئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها**».

عند ذلك ينقسم الناس إلى قسمين: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي عتا عن أمر ربه فعصاه، ولم يطعه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، والطغيان هو مجاوزة الحد، فمن عتا وتمرد، ولم يعبد الله تعالى فقد طغى إذْ السبب لوجود الإنسان في هذه الدنيا عبادة الخالق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ أي فضّلها وقدّمها على الآخرة، ولم يستعد لها ولا عمل لها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي مرجعه ومقره الجحيم، شرابه فيها الحميم وطعامه الزقوم، نعوذ بالله منها، ونسأله النجاة ولا منجّي سواه. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي خاف وقوفه وقيامه بين يدي الله تعالى للحساب والمساءلة والجزاء، أو خاف حكم الله تعالى فيه يوم القيامة، أو جلال الله وعظمته ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي ردَّ نفسه عن هواها المخالف لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وألزمها طاعة الله تعالى. قال مقاتل: هو الرجل يهم بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها. اهـ. فمن اتصف بذلك ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي مثواه ومقره دار النعيم، جنة الخلد،

ولنعم المأوى هي! فيها العيون الجارية، والسّرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة، والكواعب، والعرب الأتراب، فيها النعيم الكامل مما لا يستطاع وصفه، ويكفينا قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧] وفي الصحيحين الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»، نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار.

روى الترمذي عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ سأل الله الجنة ثلاثاً، قالت الجنة اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات، قالت النار: اللهم أجره من النار**».

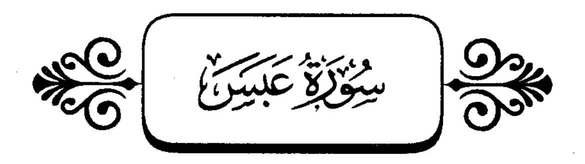
أخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: أن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا: متى تقوم الساعة؟ استهزاءً منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي يسألك الناس يا محمد عن الساعة متى ظهورها وقيامها؟ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أي في أيّ شيء أنت من ساعتها لهم؟ أي ليس إليك ذكر وقتها وأوانها، لأنها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٦٣] فعلم الساعة هو من الغيبات التي لا يعلمها إلا الله تعالى، لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧] وكما في الحديث الصحيح لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**».

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ أي منتهى علمها عند الله، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ أي إنما أنت مبعوث للبلاغ والإنذار والتحذير من مغبة العصيان، لا للإعلام بوقت قيام الساعة، وخص الإنذار بمن يخشى لأنه هو الذي ينتفع بالإنذار.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ أي كأن

هؤلاء الكفار حين يشاهدون يوم القيامة وأهوالها لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور إلا مدة يسيرة. بمقدار عشية أو ضحاها. والعشية آخر النهار من الزوال إلى غروب الشمس، والضحى أول النهار من طلوع الشمس إلى الزوال، والمراد استقصارهم مدة الحياة الدنيا حتى إنهم يرونها وكأنها نصف يوم أو أقل لهول ما يرون والله أعلم. ولقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].



مكية وآياتها ثنتان وأربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ(١) ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ(٢) ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾.

بدأت هذه السورة الكريمة بعتاب لطيف للنبي ﷺ على ما كان من إعراضه عن ابن أم مكتوم حين جاءه ينادي: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك، والرسول ﷺ منشغل بدعوة سادة قريش رجاء إسلامهم، فيسلم به خلق كثير، وذلك كما روى ابن جرير وابن أبي حاتم: عن ابن عباس أنه قال: بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدى لهم كثيراً، ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم، يمشي وهو يناجيهم. فجعل عبد الله يستقرئ النبيّ ﷺ آية من القرآن وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه. وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه، وأخذ

(١) ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ قرأ عاصم بنصب العين والباقون برفعها.
(٢) ﴿تَصَدَّىٰ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بتشديد الصاد على إدغام التاء في الصاد لأن الأصل تتصدى، وقرأ الباقون بالتخفيف.

ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ ...﴾ الآيات. فلما نزل فيه ما نزل، أكرمه رسول الله ﷺ وكلمه، وقال له رسول الله ﷺ: «**ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟**» وإذا ذهب من عنده قال: «**هل لك حاجة في شيء؟**».

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ أي قطّب وجهه وأعرض ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ أي لأجل أن جاءه الأعمى يسأله ويستفسر ويلح في ذلك وهو مشغول بدعوة القوم، وهو عبد الله بن أم مكتوم كما سبق.

وقال الرازي[١]: أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول صلوات الله عليه، وأجمعوا أن الأعمى هو ابن مكتوم. قال الشهاب: وهو مكيّ قرشيّ من المهاجرين الأولين. وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة في أكثر غزواته. وكان ابن خال خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وقال ابن حزم: وأما قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ الآيات، فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش، ورجا إسلامه. وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناس كثير، وأظهر الدين. وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته، وهو حاضر معه. فاشتغل عنه عليه السلام بما خاف فوته من عظيم الخير، عما لا يخاف فوته. وهذا غاية النظر في الدين والاجتهاد في نصرة القرآن في ظاهر الأمر ونهاية التقرب إلى الله، الذي لو فعله اليوم منا فاعل، لأُجرَ. فعاتبه الله ﷻ على ذلك، إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يقبل على ذلك الأعمى الفاضل البر التقي. اهـ[٢].

قلت: وعبد الله بن أم مكتوم هو المؤذن الثاني لرسول الله ﷺ، واستخلفه النبي ﷺ ثلاث عشرة مرة، وقُتل رضي الله عنه شهيداً بالقادسية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي أيُّ شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلمه منك ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي يتّعظ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي الموعظة ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾ بماله وقوته عن

---

(١) من تفسير الرازي (٣٠/٥٦).

(٢) الفصل (٤/١٨).

الإيمان ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي تتعرض له وتقبل عليه، وتصغي إلى كلامه حرصاً على إسلامه ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي وأيُّ شيء عليك إذا لم يتطهر بالإيمان ذلك المستغني، فإنما عليك البلاغ، وقد بلغت. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ أي جاءك مسرعاً في طلب الهداية والقرب من الله تعالى ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أي يخاف الله تعالى ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي تتشاغل وتعرض عنه، وذلك لأنه ﷺ منشغل بسادة قريش لعلهم يهتدون، فيسلمون، فبإسلامهم يسلم خلق كثير، وهذا أمر معلوم، وقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا تفعل مثل هذا مرة أخرى ﴿إِنَّهَا﴾ أي الآيات القرآنية التي أنزلها الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة للخلق ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أي من عباد الله ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ أي اتّعظ به، وهو القرآن الكريم.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾: أي فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ، ومن شاء لم يتعظ لقول الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فالله جعل للإنسان الخيار قدراً بين أن يؤمن ويكفر، أما شرعاً فإنه لا يرضى لعباده الكفر، وليس الإنسان مخير شرعاً بين الكفر والإيمان بل هو مأمور بالإيمان ومفروض عليه الإيمان، لكن من حيث القدر هو مخير وليس كما يزعم بعض الناس مسير مجبر على عمله، بل هذا قول مبتدع ابتدعه الجبرية من الجهمية وغيرهم، فالإنسان في الحقيقة مخير، ولذلك إذا وقع الأمر بغير اختياره كالمكره والنائم والناسي ونحوهم لم يترتب عليه حكمه فيما بينه وبيّن الله تعالى. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ أي ذكر ما نزل من الوحي فاتعظ به، ومن شاء لم يذكره، والموفق من وفقه الله ﷻ.اهـ[1].

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾ مكرمة عند الله تعالى، مرفوعة في السماء، منزهة عن مَسِّ الشياطين لها ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ وهم الملائكة الكرام، جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، وقيل السفرة: أي الكتبة، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد.اهـ.

(١) تفسير القرآن الكريم، جزء عم ص(٦١).

وعلى المعنى الأول سفرة جمع سفير، وعلى الثاني: سفرة جمع سافر، وهو الكاتب، يقال للكاتب: سافر، وللكتاب: سِفْر، سمي بذلك لأنه يبين الشيء ويوضحه، ويقال: أَسْفَرَ الصبح: إذا كشف وأضاء، ومنه: «**أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر**»، وسفرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وجهها، ويقال للضرب في الأرض: سفر، لأنه يكشف أخلاق الرجال.

وقوله تعالى: ﴿كِرَامٍ﴾ أي عند الله تعالى ﴿بَرَرَةٍ﴾ أخيار صلحاء ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران**». والماهر: هو الحاذق بالشيء العارف به، والمراد هنا الذي لا يتوقف ولا يشق عليه قراءته لجودة حفظه ومعرفة مخارج الحروف وأحكام التلاوة الجيدة، أما قوله: «**له أجران**» فله أجر القراءة وأجر المشقة، ولا يلزم من ذلك أفضلية المتتعتع على الماهر، لأن كون الماهر مع السفرة أفضل من حصول أجرين.

❖ ❖ ❖

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا[1] صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي لُعن الإنسان الكافر ما أشدَّ كفره، والمراد بالإنسان الجنس، فيشمل كل كافر شديد الكفر، وكذلك الذي كان سبباً في نزول الآية.

وقد رُوي أن هذه الآيات نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب

(١) ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الهمزة في الحالين وقرأ رويس بفتحها وصلاً وكسرها ابتداء، وقرأ الباقون بكسرها في الحالين.

أباه، فأتى النبي ﷺ، ثم أتى أباه فاستصلحه وأعطاه مالاً، وجهزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إنه كافر برب النجم إذا هوى، فدعا عليه النبي ﷺ، فأخذه الأسد وأكله بطريق الشام[1].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام هنا معناه التقرير لما يأتي بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ أي خلقه من ماء مهين ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي أطواراً، نطفة ثم علقة ثم مضغة.

وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق فقال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**».

والمراد لفت نظر الإنسان إلى حقيقته، لينظر إلى مبدئه ومنتهاه وما بينهما، فإنه مخلوق ضعيف، مبدأه نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة، وهو بينهما يحمل العذرة، كما قال بعض السلف، فكيف يكفر وكيف يتكبر؟

ورُوي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: كيف يفخر الإنسان وقد خرج من موضع البول مرتين؟. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ أي يسر الله تعالى له الخروج من بطن أمه، ويسر له أيضاً طريق الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، ويسر له ما يعيش به من القوت، ففي بطن أمه يتغذى منها، وبعد الولادة بلبنها من ثديها، وبعد ذلك فتح له أبواب الرزق والعلم، وأعظم من ذلك هداه إلى طريق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة بما أرسل من الرسل وأنزل من الكتب.

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن عكرمة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ أي قبض روحه عند تمام أجله الذي قدره الله تعالى ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي جعله في قبر يُوارى فيه تكرمة له، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض تأكله السباع أو يتأذى به الأحياء.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ أي ثم إذا شاء الله تعالى أنشره، أي أحياه بعد موته، والله تعالى لا يعجزه شيء، يفعل ما يشاء متى شاء، وكيف شاء، ولكل أجل كتاب.

وفي «الصحيحين» قوله ﷺ: «**كل ابن آدم يبلى، إلا عُجْب الذنب، منه خلق ومنه يركب**».

وإنما قال: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم.

وقوله: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للإنسان عن تكبره وكفره وإنكاره البعث، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي لم يفعل ما أمره به ربُّه ولم يؤدِّ ما فُرض عليه.

وقال ابن كثير بعد أن أورد بعض أقوال المفسرين: والذي يقع لي في معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ أي بعثه ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ أي لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عند الله تعالى أنشأ الله الخلائق، وأعادهم كما بدأهم. انتهى بحروفه[١].

ثم ذَكَّرَ اللهُ تعالى الإنسانَ بما أنعم عليه فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ أي فليتأمل الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي به قوام حياته، وكيف هيأه له ليعتبر فيشكر الله تعالى على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومنها هذا الطعام، فمن الذي أنزل الماء من السماء على الأرض وجعلها تنبت من كل زوج بهيج؟ فتكون هذه الزروع المتنوعة فيحصل للإنسان الطعام؟ إنه الله تعالى، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٤).

﴿الزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧].

وقال هنا: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ أي بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿حَبًّا﴾ أي أخرجنا من ذلك النبات سائر الحبوب، كالبر والأرز والحنطة، والشعير والذرة وغير ذلك. ﴿وَعِنَبًا﴾ فاكهة لذيذة وطعام جيد معروف، ﴿وَقَضْبًا﴾ وهو كل ما أكل من النبات رطباً، وسمّي قضباً لأنه يقضب، أي يقطع مرة بعد مرة ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو شجر معروف يخرج منه الزيت أدم واستصباح ﴿وَنَخْلًا﴾ وهو شجر النخيل المعروف، كثير الفوائد للإنسان، يأكل من بلحه وبسره ورطبه وتمره، وفيه فوائد أخرى كثيرة ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ أي بساتين كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أي ما يؤكل من ثمار الأشجار ﴿وَأَبًّا﴾ وهو المرعى الذي تأكله الحيوانات من العشب والنبات ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ أي فعلنا ذلك تمتيعاً ومنفعة لكم ولمواشيكم إلى حين، فلكم الفواكه والحبوب، ولأنعامكم الكلأ والعشب، فللّه الحمد والمنة، وله الشكر والثناء كما يحب ربنا ويرضا.



﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

بعد أن بيّن الله تعالى مبدأ الإنسان وما هيأه له من أسباب العيش وطريق الفلاح في الدنيا والآخرة ذكر معاده ومآله، وصدّر ذلك بذكر بعض أحداث يوم القيامة.

فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ أي الصيحة العظيمة التي تصخ الآذان، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها لشدتها.

قال ابن عباس: الصاخة من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ[1] ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ هؤلاء هم قرابة الإنسان وأحبابه وألصق الناس به، ففي ذلك اليوم يفر ويهرب منهم، ويتباعد عنهم إما لخوف مطالبته بتقصير في حقهم في الحياة الدنيا، أو لما هو فيه من اشتغاله بنفسه عن الكل، أو لئلا يروا ما قد ينزل به من الهوان. والله أعلم.

وقال عكرمة: يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه أي بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني أي والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

وقال ابن كثير: وفي الحديث الصحيح ـ في أمر الشفاعة ـ: أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق، يقول: نفسي نفسي، لا أسأله اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ أي لكل إنسان في ذلك اليوم شأن يشغله عن شأن غيره، فلذلك هو منشغل بنفسه عن كل شيء.

روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: **«يحشرون حفاة عراة**

---

(١) قيل: أول من يفر هو قابيل من أخيه هابيل، وقيل: يفر يوم القيامة إبراهيم عليه السلام من أبيه، ونوح عليه السلام من ابنه، ولوط عليه السلام من امرأته.

غرلا»، فقالت امرأة: أيبصر أو أينظر بعضنا عورة بعض؟ قال: «**يا فلانة** ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾». ومعنى قوله: «**غرلا**» جمع أغرل، وهو الأغلف، الذي لم تؤخذ غلفة ذكره بالختان.

ثم قسم الله تعالى الناس في ذلك اليوم إلى قسمين، فالقسم الأول كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي مضيئة مشرقة، ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي فرحة مسرورة بما تنال من كرامة الله تعالى ورضوانه، وذلك بعد الفراغ من الحساب، وهم المؤمنون والمؤمنات الذين اتقوا ربهم في السر والعلانية.

وأما القسم الثاني فكما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ أي يغشاها ويعلوها ظلمة وسواد، قال ابن عباس: تغاشاها ذلة. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ أي الذين جمعوا بين الكفر والفجور.



مكية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣
وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ(١) ٦ وَإِذَا
ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ(٢) ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتۡ(٣) ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ(٤) ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣
عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾.

روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سره أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأي عين فليقرأ** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾».

اشتمل أول هذه السورة العظيمة على اثني عشر حدثاً من حوادث يوم القيامة، منها ستة في الدنيا والستة الأخرى في الآخرة، وبدأت السورة بـ ﴿إِذَا﴾ ووقعت هذه الأحداث شرطاً لها، وجواب هذه الأحداث قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ

(١) ﴿سُجِّرَتۡ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بخلف عن رويس بتخفيف الجيم على الأصل وقرأ الباقون بتشديدها على التكثير.

(٢) ﴿قُتِلَتۡ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد التاء على التكثير والباقون بتخفيفها على الأصل.

(٣) ﴿نُشِرَتۡ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتشديد الشين للمبالغة والباقون بتخفيفها على الأصل ورقق ورش راءه.

(٤) ﴿سُعِّرَتۡ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان وحفص وأبو جعفر ورويس وشعبة بخلف عنه بتشديد العين والباقون بتخفيفها، ورقق ورش راءه.

نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾﴾ قيل: إن عمر بن الخطاب ﵁ قرأ هذه السورة، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾﴾ قال: لهذا أجري الحديث.

وبينت الآيات مشاهد ليوم القيامة كأنها ترى رأي العين كما في الحديث السابق، وتلك الأحداث بعضها سابق على يوم القيامة وبعضها يكون فيه، وكذلك تقرير عقيدة البعث والحساب، وفيها من الوعيد الشديد ما يردع عن التمادي في الكفر والعصيان إذْ سيرى كلُّ إنسان ما قدَّم من خير أو شر، ويرى النار عياناً والجنة بياناً، فعند ذلك يعلم مصيره.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾﴾ أي لُفَّت وذهب ضؤُها، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾﴾ أي تساقطت وتناثرت، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾﴾ أي أُزيلت عن مواضعها، ونُسفت وسيرت في الهواء وصارت هباءً منبثاً، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾﴾ أي أُهملت وتُركت لا راعي لها ولا طالب، لأنهم أتاهم ما شغلهم عنها، والعشار جمع عُشَراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، وخصها بالذكر لأنها أنفس أموال العرب، فإذا أهملوها، فكيف بغيرها؟ وفيه بيان لشدة أهوال يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾﴾ أي جُمعت يوم القيامة أمام الناس، ويقتص لبعضها من بعض، حتى إنه يقتص للشاة الجلحاء من القرناء، ثم يقول الله تعالى لها: كوني تراباً، كما في الحديث وقد مرَّ في سورة النبأ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾﴾ أي أُوقِدَتْ فصارت ناراً، ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾﴾ أي ضُمَّت إلى أشكالها في الخير والشر وصُنِّفت أصنافاً ليحشر كل صنف مع مَنْ يجانسه ويشاكله من السعداء والأشقياء.

أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾﴾» قال: «**هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنة والنار**».

وقال عمر بن الخطاب ﵁: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾﴾ قال: تزويجها أن يؤلف كل قوم إلى شبيههم، وقرأ: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: ٢٢] أي أصنافهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ الموؤدة هي البنت تدفن حية، وكانت بعض أحياء العرب في الجاهلية تفعله خشية الفقر أو العار لسوء ظنهم بالله تعالى. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩]، وسؤالها إنما هو على وجه التوبيخ والتبكيت لقاتلها بدون سبب، لأنها تسأل أمامه، ولا ذنب لها.

وكان للعرب تفنن في الوأد. فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها. وقد حفر لها بئراً في الصحراء. فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها. ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض.

ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع، حفر حفرة لتتمخض على رأس الحفرة. فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابناً حبسته. وقد اشتهر صعصعة بن ناجية ابن عقال، جد الفرزدق بن غالب، بأنه كان ممن فدى الموءودات في الجاهلية، ونهى عن قتلهن. قيل: إنه أحيا ألف موءودة، وقيل دون ذلك.

وروى أبو عبيدة: أن صعصعة ـ هذا ـ وفد على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم. قال: وكان صعصعة منع الوأد في الجاهلية، فلم يدع تميماً تئد وهو يقدر على ذلك. فجاء الإسلام وقد فدى في بعض الروايات أربعمائة موءودة، وفي أخرى ثلاثمائة، فقال للنبيّ ﷺ: بأبي أنت وأمي! أوصني. فقال: «**أوصيك بأمك وأبيك وأختك وأخيك وأدانيك أدانيك**». فقال: زدني. فقال عليه الصلاة والسلام: «**احفظ ما بين لحييك ورجليك**». ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**ما شيء بلغني عنك فعلته؟**» فقال: يا رسول الله، رأيت الناس يموجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب. غير أني علمت أنهم ليسوا عليه. فرأيتهم يئدون بناتهم، فعرفت أن ربهم ﷻ لم يأمرهم بذلك، فلم أتركهم. ففديت ما قدرت عليه. ويقال: إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عند سليمان بن عبد الملك فافتخرا. فقال الفرزدق: أنا ابن محيي الموتى. فقال له سليمان: أنت ابن محيي الموتى؟ فقال: إن جدي أحيا الموءودة، وقد

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢]، وقد أحيا جدي اثنتين وتسعين موءودة، فتبسم سليمان. وقال: إنك مع شعرك لفقيه.

وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب في هذه الآية قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني وأدت بنات لي في الجاهلية. قال: «**أعتق عن كل واحدة منهن رقبة**». قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل. قال: «**فانحر عن كل واحدة منهن بَدَنَة**».

وروى الدارمي في أوائل مسنده أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتبعتني فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديتها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه، يا أبتاه، فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه. فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «**كف، فإنه يسأل عما أهمَّه**». ثم قال له: «**أعد عليّ حديثك**»، فأعاده. فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته. ثم قال له: «**إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك**».

وحُكي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته. فقال: من هذه يا معاوية؟ فقال: هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف. فقال: أَمِطْها عنك. قال: وَلِمَ؟ قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقرّبن البعداء، ويُورِثْن الشحناء، ويُثْرِنَ البغضاء. قال: لا تقل ذلك يا عمرو! فوالله ما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الزمان، ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن، وإنك لواجدٌ خالاً قد نفعه بنو أخته، وأباً قد رفعه نسل بنيه. فقال: يا معاوية! دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إليّ منهن، وإني لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إليّ منهن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ أي صحف أعمال العباد تنشر لهم عند الحساب مكتوب فيها الحسنات والسيئات ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾ أي

أزيلت عن أماكنها كما يكشط جلد الذبيحة عنها عند سلخها ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ أي أوقِدت والتهبت. قال قتادة: سعرها غضب الله وخطايا بني آدم. اهـ. ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ أي قربت للمتقين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ أي علمت كل نفس عند ذلك ما قدمت من خير أو شر، فقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ﴾ جواب لجميع ما سبق من الشروط من أول السورة، أي من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ إلى ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

وهذه بعض أقوال السلف عن هذه الآيات:

أخرج الطبري بسنده الجيد عن أبي العالية، قال: حدثني أُبيّ بن كعب، قال: ستّ آيات قبل يوم القيامة بينا الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحرّكت واضطربت واحترقت، وفزعت الجنّ إلى الإنس، والإنس إلى الجنّ، واختلطت الدوابّ والطير والوحش، وماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ قال: اختلطت، ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ قال: أهملها أهلها، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ قال: قالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار، فإذا هي نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﷺ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ قال: ذهب ضوءها فلا ضوء لها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ قال: تساقطت وتهافتت ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾ قال: سيبها أهلوها أتاهم ما شغلهم عنها فلم تصر ولم تحلب ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ قال: إن هذه الخلائق موافية يوم القيامة فيقضي الله فيها ما يشاء ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ قال: ذهب ماؤها ولم يبق منها قطرة ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ قال: ألحق كل إنسان بشيعته اليهود باليهود والنصراني بالنصراني **﴿وإذا الموءودة سئلت﴾** قال: هي في بعض القراءة **﴿سألت بأي ذنب قتلت﴾** قال: لا بذنب. وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم

ابنته ويغذو كلبه، فعاب الله ذلك عليهم ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾ قال: صحيفتك يا ابن آدم يملى ما فيها، ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة فينظر الرجل ما يملى في صحيفته ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢﴾ قال: أوقدت ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣﴾ قال: قربت ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ من عمل قال: قال عمر رضي الله عنه. . . إلى ههنا آخر الحديث.



📖 ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ[1] ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

بعد تقرير عقيدة البعث والجزاء، وبيان أحوال يوم القيامة وأهوالها، وتصوير ذلك تصويراً حياً كأن الإنسان يراه رأي العين وعند ذلك تتكشف الأحوال، وتعرف الحقائق والأعمال، ويعرف كل إنسان مصيره ومآله، أقسم الله تعالى على صدق القرآن وصحة رسالة محمد ﷺ.

فقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾، (لا) هنا ليست نافية، بل هي مثبتة للقسم، والمعنى: أقسم بالخنس، وقيل: إن (لا) زائدة، والتقدير أقسم بالخنس، وقيل: هو رَدٌّ لتكذيبهم بنبوة محمد ﷺ، وقولهم: إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، أي ليس الأمر كما زعمتم، أقسم. . . إلخ.

والخنس هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتختفي فلا ترى، وقيل: هي الدراري الخمسة: عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، وذلك أن هذه الكواكب تخنس في جريها، أي تتقهقر فيما ترى العين وهي جوار في السماء.

---

(١) ﴿بِضَنِينٖ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس والكسائي بالظاء المشالة والباقون بالضاد.

والخنس جمع خانس، وهو المتأخر من قولهم: خنس الرجل: إذا تأخر عن القوم أو رجع عنهم، لأن أصل الخنوس الرجوع إلى الخلف، والخناس: الشيطان، لأنه يخنس إذا ذُكر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ وقف عليها يعقوب بالياء «الجواري» وغيره بحذف الياء، والمعنى: التي تجري وتسير مع الشمس والقمر ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ أي الغيب التي تدخل في بروجها في رأي العين، من قولهم: كنس الوحش إذا دخل كناسة، وهو بيته الذي يأوي إليه.

قال القرطبي: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وتكنس وقت غروبها، أي تستتر كما تكنس الظباء في كناسها. اهـ.

فأقسم الله تعالى بهذه النجوم، ثم أقسم بالليل والنهار فقال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ أي أدبر ولم يبق إلا اليسير، وذلك وقت السحر، أو أقبل، لأن لفظ عسعس بمعنى: أقبل أو أدبر، فهو من أسماء الأضداد، واختار ابن كثير أن الأرجح «أقبل» لمقابلته بالصبح، قال: فكأنه يقول: أقسم بالليل حين يقبل بظلامه، وبالنهار حين يقبل بضيائه. اهـ. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي أقبل وتبين واتسع ضياؤه حتى صار نهاراً واضحاً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ وهذا هو جواب القسم، ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هو جبريل عليه السلام، فإنه رسول الله إلى الرسل بالوحي الذي ينزله عليهم، وهو كريم على الله تعالى، وأضاف إليه القرآن لنزوله به، وهو في الحقيقة كلام الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ أي جبريل صاحب قوة عظيمة أمدَّه الله تعالى بها، رآه الرسول محمد ﷺ على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، له ستمائه جناح، قد سد الأفق، كما في الحديث الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي صاحب مكانة وشرف ومزلة لديه تعالى ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ أي إن جبريل عليه السلام مطاع هناك في الملأ الأعلىٰ، فهو عليه السلام مقدم ملائكة السماء، والمقرب عند ربه، والمطاع بين صحبه والأمين على ما أنزله الله به من وحيه.

وبعد أن وصف الله تعالى الرسول الملكي وصف الرسول البشري محمد ﷺ فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي ليس مجنوناً، بل هو أعقل العقلاء، وأكمل الناس عقلاً ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧]، وهذا نفي لما كان يتهمه به أعداؤه ﷺ حسداً وهم يعرفونه تمام المعرفة، حيث نشأ بينهم ومعهم، وبقي فيهم أربعين سنة قبل النبوة، فيعرفون أمانته وصدقه، وكانوا يسمونه الصادق الأمين قبل البعثة ولهذا ذكر الصحبة فقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ وصاحب الإنسان معروف عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ أي ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق الأعلىٰ البين الظاهر، فإن النبي ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها مرتين، مرة في غار حراء، ومرة في السماء السابعة لما عرج به.

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: **«ما أحسن ما أثنى عليك ربك ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فما كانت قوتك وما كانت أمانتك؟ قال: أما قوّتي فإني بُعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن، وفي كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب، ثم هويت بهم فقتلتهم، وأما أمانتي فلم أومر بشيء فعدوته إلى غيره»**.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ لجبريل ليلة الإسراء: **«اكشف عن النار»** فكشف عنها فنظر إليها، فذلك قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ على الوحي ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ محمد ﷺ.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» عن أبي صالح في قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ قال: أمين على سبعين حجاباً يدخلها بغير إذن ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ قال: محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ قال: كنا نحدث أنه الأفق الذي يجيء منه النهار، وفي لفظ: إن الأفق من حيث تطلع الشمس.

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ قال: جبريل في رفرف أخضر قد سد الأفق.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ قال: رأى جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية، وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥]، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. اهـ[١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ أي ببخيل، وهو نفي البخل عنه ﷺ، فلا يبخل بالوحي، ولا يقصر في التبليغ، بل هو أشد الناس بذلاً لما أوحي إليه، يعلم الناس ويرشدهم إلى ما فيه سعادتهم، حريص على هدايتهم، وفي قراءة (بظنين)[٢] بالظاء المشالة، أي ما هو بمتهم على ما يخبر به من الغيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ أي ليس القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب، وهو نفي لقولهم: إنه كهانة. ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي فأي طريق تسلكون في تكذيبكم للقرآن، واتهامكم له بالسحر والكهانة والشعر والأساطير مع وضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله تعالى، ولعل ذلك يقال لمن ينكر حقيقة ظاهرة، كأن يقال: أين يذهب عقلك؟

وقال قتادة: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي تذكرة وموعظة للخلق أجمعين ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ بدل من ﴿العالمين﴾ أي إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق، بصرف إرادته وميله إليه،

---

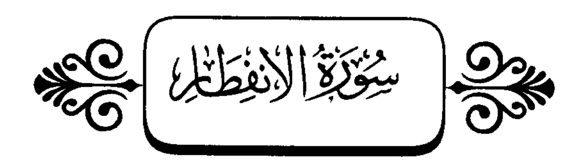
(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٢).

(٢) قد تقدم بيان ذلك.

والثبات عليه، أمّا مَنْ أعرض ونأى، فمن أين تنفعه الذكرى؟ قال مجاهد: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨﴾ قال: يتبع الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى، رب الإنس والجن والعالم كله، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٠٠].

رُوي أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨﴾ قال: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾



مكية وآياتها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ(١) ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ(٢) بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سرَّه أَنْ ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأي عين، فليقرأ** ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾».

فهذه السورة كسابقتها سورة التكوير، تتحدث عن الانقلاب الكوني وما يحدث من أهوال يوم القيامة إيذاناً بنهاية هذا العالم، وما يتبع ذلك من عرض وحساب وجزاء فجنة أو نار.

ومما يذكر عند هذه السورة هذا الحديث: أخرج النسائي عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء فطول، فقال النبي ﷺ: «**أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من** ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ ويؤخذا من

---

(١) ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الدال وقرأ الباقون بتشديدها.

(٢) ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ قرأ أبو جعفر بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب.

هذا الحديث أن على الإمام تخفيف الصلاة، وأن يقتدي بأضعفهم. أي المصلين».

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾»، أي انشقت، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ أي تساقطت، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ أي فُتح بعضها إلى بعض، فصارت بحراً واحداً واختلط عذبها بمالحها ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ أي قلب ترابها وأخرج ما فيها من الموتى وقاموا لله ﷻ، فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ وهذا جواب ﴿إِذَا﴾ في أول الآيات، وهذه الأمور منها ثلاثة في الدنيا وهي: انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجر البحار، أي تكون في النفخة الأولى، أما الرابع وهو بعثرة القبور فيكون في الآخرة في النفخة الثانية وهي نفخة البعث، فيقوم الناس لرب العالمين وتنشر صحف أعمال العباد، فتعلم كل نفس ما قدمت وأخرت. وذلك بما يعرض عليها من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، فيجد الإنسان أعماله حاضرة، ما قدم وما أخر، وإن كان قد نسي ما أسلف من أعمال فكتاب الأعمال ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

والمراد التحذير من المعاصي والحث على الطاعة، لأن كل شيء مدون مكتوب، وسيحاسب عليه العبد، ويعفو الله عمن يشاء ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن ثم يشمل المعنى أعمال الإنسان الحسنة والسيئة التي تصاحبه في حياته أو يبقى أثرها بعده، وهي السنة الحسنة والسنة السيئة، كما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَنَّ في الإسلام سنةً حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عَمِلَ بها مِنْ بعده، من غير أن ينقص من**

أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ أي أيُّ شيء خدعك وجرأك على عصيان ربك والانحراف عن فطرته، وهذا تهديد لا كما يظن البعض من أنه إرشاد إلى الجواب، لأنه قال: ﴿ٱلْكَرِيمُ﴾ حتى قال قائلهم: غره كرمه! بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابنَ آدم بربك الكريم، أي العظيم، حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق؟

رُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ فقال: غره والله جهله، وعن قتادة قال: غره شيطانه المسلط عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي الذي أوجدك من العدم ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي جعلك سوياً متساوي الأعضاء والقوى، مزوداً بالحواس من السمع والبصر، وفيك العقل والعلم والفهم ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي جعلك معتدل القامة، مستوي الخلقة لا كالبهائم ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ أي إن الله تعالى ركبك في أي صورة شاءها، وهو سبحانه وتعالى ركبك أيها الإنسان في أحسن الصور وأجملها، ويشمل اختلاف الناس في أمور عدة، كالشبه بأحد الأبوين، والجمال والقبح والتوسط بينهما، والبياض والسواد وما بينهما، وغير ذلك، وكله بمشيئة الله تعالى. لا اختيار للإنسان فيه، لكن الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجواب الكافي»: فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته، ولا بد. ولكن تغالطه نفسه، ومن ذلك مَنْ يغتر بفهم فاسد، فَهِمَهُ هو وأضرابه من نصوص القرآن والسُّنَّة فاتكلوا عليه. قال: كاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ فيقول: كرمه. وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته. وهذا جهل قبيح. وإنما غره بربه الغَرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمَّارة بالسوء، وجهله وهواه. وأتى سبحانه بلفظ ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾، وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتَر (الغرور)

في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به. انتهى[1].

وقال الإمام أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين»: على العبد أن يستعمل الخوف. فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب. وإنه مع أنه كريم، خلد الكفار في النار أبد الآباد. مع أنه لم يضره كفرهم. بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا، وهو قادر على إزالتها. فَمَنْ هذه سنته في عباده، وقد خوّفني عقابه، فكيف لا أخافه؟ كيف أغتر به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل. فما لا يبعث على العمل فهو تمنّ وغرور، ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم، وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى، وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور. وقد روي أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة. وقد كان ذلك، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن[2] فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين. مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى. زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته. كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى، وينال بالهوينا، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟

ثم قال: والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف. لا يتفكر فيه متكفر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه، إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهذونه هذًّا. يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها،

---

(١) الجواب الكافي ص(١١).

(٢) هذا قول حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله، وهو قد عاش ما بين (٤٦٠، و٥٠٥ هجرية)، فماذا يقول لو رأى زماننا ونحن الآن في بداية القرن الخامس عشر الهجري؟ نسأل الله الرحمة، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وكأنهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب. لا يهمهم الالتفات إلى معانيه، والعمل بما فيه. وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟.اهـ.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي ما غرك كرم الله ولا حلمه ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي بالبعث والجزاء في الدار الآخرة، فهو الذي جرأكم على الكفر والعصيان، فهم مكذبون عموماً بالجزاء أو بالدين نفسه[1]، فهذا هو الذي غرهم بربهم، لا كرمه كما أسلفنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩﴾ أي رقباء من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱﴾ [ق: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كَاتِبِينَ﴾ يكتبون أقوالكم في صحائفكم التي سوف تخرج لكم عند الحساب ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫﴾ من خير أو شر، فيحصونه عليكم، وهذا ـ والله أعلم ـ إما بالمشاهدة إن كان فعلاً، وإما بالسماع إن كان قولاً، وإن كان من أعمال القلب فيما يطلعهم الله عليه فيكتبونه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، ومَنْ همَّ بحسنة فعملها كتبت له إلى سبعمائة ضعف، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت»** [رواه مسلم وهذا لفظه].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره.

وأخرج البزار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حاجات: الغائط والجنابة والغسل»**.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة فرأى رجلاً يغتسل بفلاة من الأرض، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«أما بعد فاتقوا الله وأكرموا الكرام الكاتبين الذين معكم ليس يفارقونكم إلا عند إحدى**

(١) من قواعد التفسير وشرح الحديث أن النص إذا احتمل معنيين لا ينافي أحدهما الآخر حمل عليهما.

منزلتين: حيث يكون الرجل على خلائه، أو يكون مع أهله، لأنهم كرام كما سماهم الله، فيستتر أحدكم عند ذلك بجرم حائط أو بعيره فإنهم لا ينظرون إليه».

وأخرج البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وآخرها استغفاراً إلا قال الله: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة**».



﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ(١) لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى بعض أهوال يوم القيامة، وأنه في ذلك اليوم يجد الإنسان أعماله خيرها وشرها، ونعىٰ على الإنسان اغتراره وانخداعه، حتى تجرأ على معصية خالقه، وقابل نعمه بما لا يليق، وبيَّن أن الأعمال تُكتب وتُحصى على كل إنسان بواسطة كرام كاتبين لا تغيب عنهم أعمال العباد بما أقدرهم على ذلك، ذكر هنا انقسام الناس يوم القيامة إلى أبرار وفجار، وذكر مآل كل من الفريقين، ثم ذكر يوم الحساب والجزاء والقيامة، وعظم شأنه تحذيراً للعباد، وبيَّن الله تعالى ضعف الإنسان أمام هذه الأحداث، فليس لأحد أن ينفع أحداً أو يدفع عنه ضراً ما لم يأذن الله، وأن الله تعالى هو المتفرد بالحكم والسلطان والجلال على الدوام، وإن كان مَلَّكَ أحداً من عباده شيئاً في الحياة الدنيا، فإنه تعالى يستأثر بكل شيء في ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ الأبرار هم الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء ما افترض الله عليهم واجتناب معاصيه. وهؤلاء لهم الجنة في

---

(١) ﴿يَوْمُ لَا﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب برفع الميم على أنه خبر المبتدأ محذوف، وقرأ الباقون بنصب الميم على الظرفية.

الآخرة، وهي غاية النعيم، كما أنهم في الدنيا أطيب الناس قلوباً، وأهدأهم بالاً، وأكثرهم طمأنينة ورضاً بقضاء الله تعالى وقدره، لصدق إيمانهم وقوة يقينهم، وهذا أيضاً من النعيم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ الفجّار جمع فاجر، وهو الكافر الخارج عن طاعة الله تعالى وهو مَنْ لم توجد فيه صفات الأبرار المذكورة. فمآل الفجار النار المحرقة ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ أي يدخلونها ويحترقون بها يوم يُدان الناس بالأعمال، وهو يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي بخارجين، لأنهم مخلدون فيها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] أي من النار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ الاستفهام للتفخيم والتعظيم، أي أيُّ شيء أعلمك بيوم الدين؟ فإنه يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فهذا يستدعي إطالة التفكر فيه.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كل شيء في القرآن من قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وكل شيء من قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فقد طُوي عنه.اهـ.

ثم فسر الله تعالى بعض أحوال ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي من دفع ضرر أو جلب خير إلا بإذن الله تعالى. ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي يوم لا يُملِّك اللهُ في ذلك اليوم أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا. وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] قال قتادة: ليس ثَمَّ أحد يقضي شيئاً، أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين.اهـ.

وفي ذلك اليوم لا تنفع شفاعة ولا خلة ولا قرابة إلا بإذن الله تعالى. وويل للكافرين الخارجين عن طاعة الله تعالى. وهنا تمتلئ النفوس خوفاً ورعباً من هول ذلك اليوم، وتجأر النفوس المؤمنة إلى الله تعالى يا رب سَلِّم سلِّم.

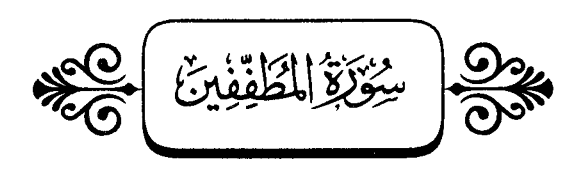
رُوي أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك حج بالناس سنة ٩٧ من الهجرة، فمرَّ على المدينة المنورة وهو يريد مكة المكرمة، فقال: آها هنا أحد يذكرنا؟ فقيل له: أبو حازم سلمة بن دينار، فأرسل إليه فدعاه فحضر. فقال سليمان: يا أبا حزم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم

الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت. فكيف القدوم على الله ﷻ غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان عند ذلك وقال: ليت شعري ما أنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله ﷻ، قال: وأين أجده؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قال: يا أبا حازم فأي عباد الله أفضل؟ قال: أولوا المروءة والتقى، قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال: فأي الدعاء أسمع؟ قال: دعوة المحسن للمحسن ـ وهو يقصد بهذا دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب كما ورد في الحديث ـ ثم قال سليمان: فأي الصدقة أزكى؟ قال: صدقة السائل البائس، وجهدٌ من مُقِلٌ ليس فيها مَنٌّ ولا أذى، قال: فأي القول أعدل؟ قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه، قال: فأي الناس أحمق؟ قال: رجلٌ انحطَّ في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخِرَتَهُ بدنيا غيره. قال سليمان: ارفع إليّ حوائجك، قال: تُنْجِيني من النار وتدخلني الجنة! قال: ليس ذلك إليّ، قال: فلا حاجة لي غيرها، قال: فادعوا الله لي، قال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان عدوك فخذ بناصيته لما تحب وترضى. قال سليمان: زدني، قال: قد أوجزت وأكثر إن كنتَ مِن أهله وإن لم تكن من أهله، فما ينبغي لي أن أرمي عن قوسٍ ليس لها وتر. قال: أوصني، قال: سأوصيك وأوجز: عظّم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفتقدك حيث أمرك. انتهى.

وقال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وهو يعظ الناس ـ قال: رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله فعرض نفسَه عليه فإن وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله، وإن خالفه أعتب وأناب ورجع من قريب.

رحم الله رجلاً وعظ أخاه وأهله فقال: يا أهلي صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكينكم مساكينكم.

فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥] وقال أيضاً: يا ابن آدم كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارك، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمنك الناس؟



مدنية الأوائل مكية الأواخر وآياتها ست وثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾.

روى النسائي عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

قيل: وهي مكية على الأظهر، لا سيما خاتمتها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ فهذه من صفات المستهزئين الذين كانوا بمكة، أما المنافقون بالمدينة فإنهم كانوا يظهرون الإيمان. فلا يظهرون كفراً ولا استهزاءً، فإن ذلك يؤدي إلى كشف حالهم، فهذا مما يؤيد كون هذه السورة مدنية الأوائل مكية الأواخر، والتطفيف على ما يقال كان موجداً بمكة والمدينة. والله أعلم.

قال بعض العلماء: أما حديث ابن عباس أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فأنزل الله ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك، قال: إن معنى الإنزل في إطلاق السلف لا يكون مقصوراً على أن كذا سبب النزول، بل إن كذا مما نزل فيه كذا، فكأن أهل المدينة تُلي عليهم ما سبق إنزاله بمكة، وقيل لهم: أنزل الله حظر ما أنتم عليه من الوعيد فأقلعوا وامتنعوا عن التطفيف.اهـ.

وهذه السورة العظيمة تضمنت تفصيلاً لبعض أنواع الفجور، كالتطفيف في الكيل والوزن، والتكذيب بيوم الدين، والاعتداء على الغير، والقول بأن القرآن أساطير الأولين، وسبب هذا وجزاؤه يوم القيامة، ثم تفصيل جزاء الأبرار، وبينت جانباً من حال الناس في الموقف يوم القيامة، حين يشتد بالخلائق الخوف، وتبلغ القلوب الحناجر من خوف من يعلم الظواهر والسرائر، فينادي الملك الرحمٰن: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨]، فإذا سمعت الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه فيقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ٦٩] فعند ذلك ييأس من الرحمة الكفار والمنافقون والفجار، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار واتبع سنّة رسوله ﷺ، عند ذلك تنشر الدواوين، وتوضع الموازين، وتتطاير الصحف، فـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

ثم ذكر جانباً من حال المستهزئين وكيف أنهم في جهلهم يعمهون، ويظنون أنهم على حق وغيرهم على باطل ثم تجلّى الحق حين حكم الله تعالى بيّن عباده وفصل بينهم، إنه جازى كلًّا على عمله، الكفار بجهنم وسعيرها، والمؤمنين بالجنة ونعيمها، ذلك اليوم الذي ينعم فيه المؤمنون بجنة الخلد، ويصطلي فيه الكفار بنار جهنم، في ذلك اليوم يوم الحصاد يضحك المؤمنون من الكفار، يضحكون ضحك الموفق المسرور لا ضحك الجاهل المغرور، لأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً وسعدوا سعادة لا نهاية لها، أما الكفار فوقعوا في شر أعمالهم وباؤوا بالخسران المبين، قال تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ أي هل جوزي ﴿ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ نقول: نعم يا رب.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: كلمة عذاب أو واد في جهنم توعّد الله به المطففين، وهم الذين ينقصون المكيال والميزان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث

الناس كيلاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ فأحسنوا الكيل.اهـ.

ثم بيّن الله تعالى معنى المطففين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ أي يأخذن وافياً وينقصون حق غيرهم.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾، [الإسراء: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمٰن: ٩].

وقد أهلك الله قوم شعيب لأنهم كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال.

ثم توعّد الله أولئك المطففين فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

أي أما يخاف أولئك من البعث والنشور والقيام بين يدَي الله تعالى، الذي يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، من خسر فيه أُدخل ناراً حامية؟

قال رسول الله ﷺ: «**يوم قوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**» [رواه البخاري].

وأخرج الإمام أحمد من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يغرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق**».

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاري: «**كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين من أيام الدنيا، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر؟**».

قال بشير: المستعان الله.

قال النبي ﷺ: «**فإذا أويت إلى فراشك فتعوَّذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب**».

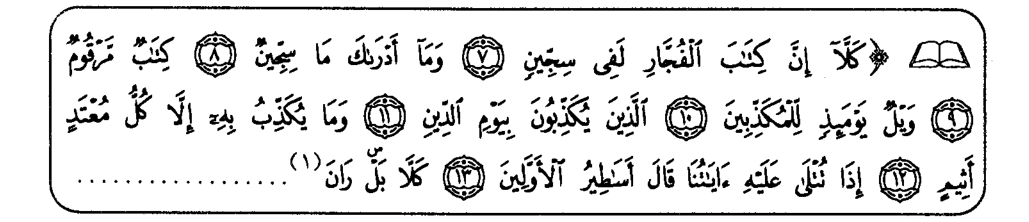
وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**خَمسٌ بِخَمْسٍ: مَا نَقَضَ قَوْمٌ العَهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر**»(١).

وعن مالك بن دينار قال: دخلت على جارٍ لي أعوده، وقد نزل به الموت، فجعلت ألقنه كلمة الشهادة، وهو يقول: جبلان من نار، جبلان من نار. فما زال يقول حتى مات، فسألت عنه؟ قالوا: كان له مكيال وميزان يطفف بهما. اهـ.

والتطفيف محرم لأنه أكل أموال الناس بالباطل سواء كان في الكيل أو الوزن، فالمطفف هو الذي يأخذ حقه كاملاً أو يزيد عليه، ويعطي غيره ناقصاً، وهذا يشمل كل ما كان من هذا القبيل، فمثلاً الموظف الذي يقصر في أداء عمله بالإهمال أو بأي وجه من أوجه التقصير، ويأخذ أجره (مرتبه الشهري) كاملاً، فإنه واقع تحت وطأة هذا الوعيد فعلى المسلم أن يتقي الله تعالى في معاملة الغير، ولا يأخذ إلا حقه، ولا يفرط في حق غيره، ويتدبر هذه الآيات وغيرها من كتاب الله تعالى، وكذلك حديث الرسول ﷺ، ويسدد ويقارب، نسأل الله التوفيق لما يحبه ويرضاه.



(١) حديث حسن، أخرجه الطبراني في الكبير (١١/١٠٩٩٢) والديلمي في الفردوس (٢/٢٨٠٠) عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وأخرجه ابن ماجه في سننه (٢/٤٠١٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما. وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١/٣٢٤٠) وصحيح الترغيب (٧٦٣).



---

(١) ﴿بَلْ رَانَ﴾ سكت حفص سكة لطيفة من غير تنفس على لام ﴿بَلْ﴾ ويلزم منه إظهار اللام، وغيره بترك السكت مع إدغام اللام في الراء بلا غنة.

والسكت وارد للقراء في حالات كثيرة، والذي يهمنا هنا هو سكت حفص عن عاصم من طريق الشاطبية، حيث قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في حرز الأماني عند فرش الحروف في سورة الكهف:

وسكتة حفص دون قطع لطيفة ... على ألف التنوين في عوجاً بلا

وفي نُونِ مَنْ رَاقٍ ومَرْقَدَ ناولاً ... م بَل رَانَ والباقون لا سكتٌ مُوصَلَا

فالسكت في هذه الأربعة المواضع وصلاً عند حفص متفق عليه، وهو كما يلي:

١ ـ السكت على الألف المبدلة من التنوين في لفظ ﴿عِوَجَا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢] ويجوز الوقف على ﴿عِوَجَا﴾ لأنه رأس آية، وإنما السكت حال الوصل.

٢ ـ السكت على الألف من لفظ ﴿مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ من قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢].

ويجوز الوقف على ﴿مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ وهو وقف تام، وإنما السكت حال الوصل كما تقدم.

٣ ـ السكت على النون من لفظ ﴿مَنْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧﴾ [القيامة: ٢٧] ويلزم من السكت إظهار النون عند الراء لأن السكت يمنع الإدغام ولا يجوز الوقف على ﴿مَنْ﴾.

٤ ـ السكت على اللام من لفظ ﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] ثم يقول: ﴿رَانَ﴾ ويتابع القراءة ويلزم من السكت إظهار اللام عند الراء لأن السكت يمنع الإدغام هنا. ولا يجوز الوقف على ﴿بَلْ﴾ لأنه ليس موضع وقف.

وروي لحفص السكت جوازاً في وجه له بين السورتين من غير تنفس من موضع واحد من القرآن الكريم وهو بين سورة الأنفال وسورة التوبة ومحله على الميم من ﴿عَلِيمٌۢ﴾ ثم يقول: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ ويتابع القراءة.

فله في هذا الموضع ثلاثة أوجه:

١ ـ السكت كما بيَّنَّا.

٢ ـ الوقف، وهو قوف تام لأنه رأس آية بل نهاية سورة.

٣ ـ الوصل بين ﴿عَلِيمٌ﴾ و﴿بَرَآءَةٌ﴾ وحينئذٍ يتعين الإقلاب. =

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر عن التطفيف وعن التكذيب بيوم الحساب أو هي بمعنى حقاً. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ الذي كتبت فيه أعمالهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ قيل: إنه مأخوذ من السجن وهو الضيق، وعن ابن عمر قال: سجين الأرض السابعة السفلى وفيها أرواح الكفار، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «**سجين أسفل سبع أراضين، وعليون في السماء السابعة تحت العرش**».

وورد في حديث البراء بن عازب الطويل المشهور في سياق عن المحتضر وما يكون بعد الموت أن الله تعالى يقول: «**اكتبوا كتاب عبدي في السجين في الأرض السابعة السفلى**». والمراد العبد الكافر، وقد تقدم الحديث كاملاً عند تفسير سورة النازعات. وعلى هذا فإن سجين هو أسفل ما يكون في الأرض. والله أعلم.

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل كعب الأحبار عن قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ قال: إن روح الكافر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها فيهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى السجين، وهو خد إبليس، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم ويوضع تحت خد إبليس لهلاكه للحساب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ

= وأيضاً جاء عن حفص السكت وعدمه على الهاء من لفظ ﴿مَالِيَهْ﴾ قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] وله فيها ثلاثة أوجه: ١ ـ السكت. ٢ ـ الوقف. ٣ ـ الوصل مع الإدغام.

فالسكت وعدمه إنما يكون في حالة الوصل والوجهان صحيحان مقروء بهما والسكت هو المقدّم في الأداء. والله أعلم.

من كتاب جهد الفقير في تجويد كلام العلي القدير ١٤٥ ـ ١٤٦، للمؤلف.

﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ قال: إن روح المؤمن إذا عرج بها إلى السماء فتنفتح لها أبواب السماء، وتلقاه الملائكة بالبشرى حتى ينتهي بها إلى العرش، وتعرج الملائكة فيخرج لها من تحت العرش رق فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة للحساب يوم القيامة، ويشهد الملائكة المقربون، فذلك قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾ الاستفهام للتعظيم، أي ما الذي أعلمك ما سجين؟ وقيل: أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ أي كتاب الفجار مكتوب فيه أعمالهم، مثبتة عليهم، لا يزاد في ذلك ولا ينقص ولا يبدل ولا يُنسى حتى يُجازوا به.

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب أو واد في جهنم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ أي يكذبون بيوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة، فإن المكذب بذلك اليوم لا يستقيم على شريعة الله تعالى ولا يتورع عن أي ذنب، لأنه يعيش ليومه كالبهائم، ولا يحسب للدار الآخرة أي حساب، وبالتالي يمكن أن يطفف ويفجر ويفعل ما يمليه عليه هوى نفسه، فليس له في الآخرة إلا النار وبئس المصير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي وما يكذب بيوم الدين إلا كل متجاوز الحد في الكفر والبغي والعدوان، مبالغ في الآثام والعصيان، مستحق لحر النيران ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ إشعار بأنه لا يتلو القرآن ولا يفكر في ذلك، ولكن إذا تتلى عليه آيات القرآن من غيره ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سمع آيات القرآن الناطقة بحصول البعث والجزاء، قال عنها: هذه حكايات وخرافات الأوائل، فهو لا ينتفع بالقرآن لأنه عديم الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ﴾ أي ليست هذه الآيات أساطير الأولين بل هي الحق المبين والشفاء لما في الصدور، ولكن هؤلاء ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي غطّى على قلوبهم ما اكتسبوه من الآثام، فحجبها عن الحق، فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي، والران هو الحجاب عن الحق، وأصل معناه الصدأ القار الذي لا يزول بسهولة، فيحصل من تكرار الفعل ملكة

راسخة في النفس لا تقبل الزاول، فبكثرة المعاصي يرسخ حبها في القلب بحيث لا يزول[1] ـ نسأل الله السلامة ـ وقيل: الران ما غطى على القلب وركبه من القسوة لفعل الذنب بعد الذنب. وهو نفس ما قلناه من حيث المعنى. والله أعلم.

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾».

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي حقاً إن الكفار لمحجوبون عن رؤية الله تعالى يوم القيامة كما حجبوا في الدنيا عن توحيده، وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله تعالى. فما حجب هؤلاء في السخط إلا وقد مكن الأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ قال: ذلك دلالة على أن أولياء الله يرون الله عياناً. اهـ.

فرؤية المؤمنين لربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسر النبي ﷺ الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى، كما في الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي أولئك الكفار يدخلون النار يصطلون بحرها وعذابها، فيجمع لهم العذاب الروحي بالحجب والبدني بالنار، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون بما أوعدكم به وجاءكم به الرسول ﷺ، فلو أنكم آمنتم بالله ورسوله واتبعتم شرائع الدين ما صرتم إلى هذا الحال البئيس، فعند ذلك يحزنون حزناً عظيماً لم يسبق لهم مثله، وما أشد على الإنسان إذا

---

(١) أنصح بقراءة «حل عقدة الإصرار» من كتاب التوبة في كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي المتوفى (٥٠٥هـ)، رَحِمَهُ اللَّهُ.

أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم بأن وسائل نجاته من مصابه كانت متاحة له، وكانت في متناول يديه، ولكنه أهملها وراء ظهره. ونورد فيما يلي مقالة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لما فيها من التوضيح والبيان.

قال ابن القيم في «إغاثة اللهفان»[1] في هذه الآية ما مثاله: جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار، فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم، نظير ما تفعله النار في أجسامهم. كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا، وأخذ بأشد العذاب. فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه، وهي ممنوعة من الوصول إليه. فكيف إن حصل لها مع تواري المحبوب عنها وطول احتجابه، بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها؟ فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب، وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة، منتهى حسنها إلى ما يعلم، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره إذا حيل بينهم وبينه، وشاهدوا غيرهم وقد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها، الذي لا تقر عينها إلا بقربه والأنس به والعكوف بكلِّيتها على محبته والشوق إلى لقائه. فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا. فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه. وفي حديث الرؤية: «**فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه**»[2].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٢) بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم والإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني في الكبير من حديث صهيب. وأحاديث رؤية المؤمنين لربهم ﷻ ثابتة في الصحيحين، منها قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب**» أخرجه البخاري ومسلم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**» **أخرجه البخاري ومسلم**.

ثم قال: وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين، وهما: ألم الحجاب وألم العذاب، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم القرب والنظر، ونعيم الأكل والشرب والنكاح والتمتع بما في الجنة.اهـ.

❖ ❖ ❖

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ(١) ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ(٢) مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى الفجار وأحوالهم ومآلهم ذكر الأبرار ونعيمهم، فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾، قوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي حقاً أو للردع، أي ليس الأمر كما يتوهمه الكفار والفجار من إنكار البعث والجزاء، وقد وردت ﴿كَلَّآ﴾ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة، كلها في النصف الثاني، وليس في النصف الأول منها شيء، وهي إما بمعنى «لا» أو «حقاً» فإن كانت بمعنى «لا» فيحسن الوقف عليها مثل قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا﴾ [مريم: ٧٨، ٧٩]، فيحسن أن يقف على «كلا» هنا ثم يبدأ بقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ . . .﴾ إلخ، علماً بأن الوقف على رؤوس الآي سنة متبعة، وإن كانت «كلا» بمعنى حقاً، فلا يحسن الوقف عليها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ [المدثر: ٣١، ٣٢] علماً بأنه يجوز في جميع مواضع «كلا» أن توصل بما بعدها وبما قبلها وأن لا يوقف عليها ولا يبدأ بها. والله أعلم.

---

(١) ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ قرأ أبو جعفر ويعقوب ﴿تَعْرِفُ﴾ بضم التاء وفتح الراء مبنياً للمفعول و﴿نَضْرَةَ﴾ بالرفع نائب فاعل، وقرأ الباقون ﴿تَعْرِفُ﴾ بفتح التاء وكسر الراء مبنياً للفاعل و﴿نَضْرَةَ﴾ بالنصب مفعول.

(٢) ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾ قرأ الكسائي بفتح الخاء وألف بعدها وفتح التاء، على أنه اسم لما يختم به الكأس، أي آخره مسك، وقرأ الباقون، بكسر الخاء وفتح التاء وألف بعدها، والختام: هو الطين الذي يختم به الشيء، فجعل بدله المسك.

و﴿إِنَّ﴾ من أدوات التوكيد و﴿كِتَٰبَ﴾ صحائف أعمالهم و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ جمع بر أو بار، وهم المطيعون المحسنون الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء الفرائض واجتناب النواهي سراً وعلانية.

فهؤلاء الأبرار كتاب أعمالهم في عليين، وهو مكان عالٍ مشرف في أعلى الجنة، بعكس كتاب الفجار الذي مكانه سجين في أسفل الأرض السابعة.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليون في السماء السابعة تحت العرش**».

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ أي ما الذي أعلمك ما عليون؟ وهو استفهام تفخيم وتعظيم، أي إنه عظيم.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ أي أن كتاب الأبرار مرقوم مكتوب فيه أعمالهم لا يبدل ولا يغير، وهو في عليين ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ من الملائكة.

أخرج عبد بن حميد من طريق الأجلح عن الضحاك رضي الله عنه قال: إذا قبض روح العبد المؤمن يعرج به إلى السماء الدنيا، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية. قال الأجلح: فقلت: وما المقربون؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى. فقال الأجلح: فقلت للضحاك: ولم تسمى سدرة المنتهى؟ قال: لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها فيقولون: رب عبدك فلان وهو أعلم به منهم، فيبعث الله إليهم بصك مختوم يأمنه من العذاب، وذلك قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وأخرج عبد بن حميد من طريق خالد بن عرعرة وأبي عجيل أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ الآية، قال: إن المؤمن يحضره الموت ويحضره رسل ربه فلا هم يستطيعون أن يؤخروه ساعة ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه، فدفعوه إلى ملائكة الرحمة، فأروه ما شاء الله أن يروه من الخير، ثم عرجوا بروحه إلى السماء فيشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهوا به إلى السماء

السابعة، فيضعونه بين أيديهم، ولا ينتظرون به صلاتكم عليه، فيقولون: اللهم هذا عبدك فلان قبضنا نفسه، فيدعون له بما شاء الله أن يدعوا، فنحن نحب أن يشهدنا اليوم كتابه، فينشر كتابه من تحت العرش فيثبتون اسمه فيه، وهم شهوده، فذلك قوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾. وسأله عن قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ الآية، قال: إن العبد الكافر يحضره الموت ويحضره رسل الله، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه فدفعوه إلى ملائكة العذاب، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر ثم هبطوا به إلى الأرض السلفى وهي سجين، وهي آخر سلطان إبليس، فأثبتوا كتابه فيها. وسأله عن ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ فقال: هي سدرة نابتة في السماء السابعة، ثم علت على الخلائق إلى ما دونها و﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

وأخرج ابن المبارك عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله يستكثرونه ويزكونه حتى يبلوغ به حيث يشاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين. ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحتقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين**».

وأخرج ابن الضريس عن أم الدرداء قالت: إن درج الجنة على عدد آي القرآن، وإنه يقال لصاحب القرآن اقرأ وارقه فإن كان قد قرأ ثلث القرآن كان على الثلث من درج الجنة، وإن كان قد قرأ نصف القرآن كان على النصف من درج الجنة، وإن كان قد قرأ القرآن كان في أعلى عليين، ولم يكن فوقه أحد من الصديقين والشهداء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ وهو نعيم الجنة، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي جالسون على الأسرة ذات الحجال[1]، ينظرون إلى ما أعطاهم الله من

(١) الحجال ـ جمع حجلة بفتحتين ـ: وهو بيت مربع من الثياب الفاخرة يُرخى على السرير.

الكرامة وأنواع النعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل النعمة لما ترى في وجوههم من الحسن والبياض ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي خمر صافية طيبة بيضاء لذة للشاربين، مختوم على أوانيها، لا يفكها إلا هم ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي آخر شربه يفوح منه رائحة المسك، وفي قراءة سبق بيانها ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ بيان لجنس الخاتم ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي في مثل هذا النعيم المذكور ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى، كقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وذلك يعني المسارعة والمسابقة في دروب الطاعات.

والتنافس مأخوذ من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل أحد لنفسه، وينفس به على غيره، أي يضن به ويبخل.

وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي ما يمزج به ذلك الرحيق هو من ماء عين تُسمَّىٰ التسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب أهل الجنة، يشربه المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة.

وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع، تقول: تسنمت الجبل إذا صعدت إلى قمته. والتسنيم هنا هي عين ماء تجري من علو إلى أسفل.

وقال ابن عباس: التسنيم يعلو شراب أهل الجنة وهو صرف للمقربين، ويمزج لأصحاب اليمين.اهـ.

وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ عيناً منصوب على المدح أو الحال ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي يشرب منها أو ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، وقيل: الباء مزيدة أو بمعنى من، وهي عين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة كما أسلفنا، وفي الحديث: «**أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ، سقاه الله من الرحيق المختوم**» أو كما قال ﷺ، والله أعلم.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ[1] ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى مآل الفريقين، حيث الجحيم والعذاب الأليم لأعدائه، والنعيم والهناء لأوليائه، وأسباب ذلك، بيَّن بعض ما كان يفعله الكفار يفعلونه تجاه المؤمنين في الدنيا من استهزاء واستخفاف وما سيكون في الدار الآخرة من رفعة المؤمنين وإذلال الكافرين، حتى إن المؤمنين يردون للكافرين الصاع صاعين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ الإجرام هو ارتكاب الإثم العظيم، وأعظمه الشرك والكفر، والمراد هنا كفار قريش ومن وافقهم على الكفر ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ أي كانوا في الدنيا يستهزئون ويسخرون بالمؤمنين لأنهم آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وهذا يشمل مَنْ نزلت فيهم الآية ومَنْ شاكلهم إلى آخر الزمان. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ أي إذا مَرَّ المؤمنون بالمجرمين أو[2] مَرَّ المجرمون بالمؤمنين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي إن المجرمين يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية بالمؤمنين، والغمز: هو الإشارة بالجفن والحاجب.

والآيات نزلت في كفار قريش مثل: أبي جهل والوليد والعاص وأشباههم، كانوا يستهزئون ويسخرون بجمع من المؤمنين مثل: عمار بن ياسر وخباب وصهيب وبلال وغيرهم رضي الله عنهم ممن فتح الله عليهم ونوّر قلوبهم بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ أي انصرف المجرمون ورجعوا إلى ذويهم ﴿ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي رجعوا متلذذين بالسخرية وحكاية ما يعيبون به أهل

---

(١) ﴿فَكِهِينَ﴾ قرأ حفص وأبو جعفر بحذف الألف بعد الفاء والباقون بإثباتها.

(٢) سبق بيان أن النص إذا احتمل معنيين لا تنافي بينهما جاز حمله عليهما.

الإيمان، وكل هذا منهم إنكار لتوحيد الله تعالى وكفر به، تعالى الله علواً كبيراً، والويل لهم والصغار والحقار والنار ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أي إذا رأى المجرمون المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ بتركهم دينهم واعتناق دين محمد ﷺ الجديد في نظرهم، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي إن هؤلاء المجرمين ما بُعثوا من جهة الله تعالى موكلين بالمؤمنين، يحفظون عليهم أعمالهم وأحوالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم، فهذا منهم تطفل وجهل وسوء فهم، وفي الآية تهكم ظاهر بالكفار.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي في ذلك اليوم العظيم، وهو يوم الجزاء والثواب يضحك المؤمنون من الكفار، ضحك المسرور بما نال من الكرامة والفوز، ضحك لا بكاء بعده، وليس كضحك المجرمين في الدنيا الذي سوف يعقبه البكاء والتحسّر والحزن.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى ما أعطاهم الله تعالى من النعيم وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿هَلْ﴾ هنا للتقرير، ومعنى ﴿ثُوِّبَ﴾ أي أثيب وجوزي، والثواب: هو ما يرجع على العبد نظير عمله، ويستعمل في الخير والشر.

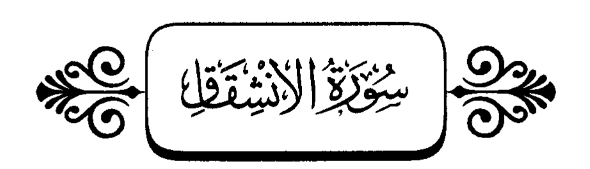
والمعنى أن الله تعالى قد ثَوَّبَ الكفار وجازاهم جزاء فعلهم في الدنيا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨ - ١١١].

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن أبي الدنيا في «الصمت» والبيهقي في «البعث» عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المستهزئين بالناس في الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنة فيقال: هلمّ هلمّ فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال: هلمّ هلمّ فيجيء**

بكربه وغمه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى إنه ليفتح له الباب فيقول: هلمّ هلمّ فلا يأتيه من إياسه».

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قال: قال كعب: إن بين أهل الجنة وأهل النار كوى لا يشاء الرجل من أهل الجنة أن ينظر إلى عدوه من أهل النار إلا فعل.



مكية وآياتها خمس وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا
فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ
(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ
مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ[1] سَعِيرًا
إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا (١٥)﴾

روى الإمام مالك عن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١)﴾ فسجد فيها. فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. ورواه مسلم والنسائي. وأخرج البخاري عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة. فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١)﴾ فسجد. فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. وفي رواية للنسائي عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١)﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١)﴾.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١)﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ (١)﴾»**.

---

(١) ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام

هذه السورة الكريمة كسورتي التكوير والانفطار في وصف أهوال يوم القيامة، سيّما وأن الحديث الشريف جمع بين هذه السور الثلاث في كونها وصفاً حياً لأحداث يوم القيامة كما تقدم، وبينت السورة خضوع المخلوقات كبيرها وصغيرها وما بين ذلك للخالق ﷻ، وأن الإنسان مسرع مقبل على لقاء الله تعالى، وأنه سوف يرى ما قدم من عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وبينت انقسام الناس يوم القيامة إلى أصحاب يمين يفرحون بالفوز والنجاة، وأصحاب شمال يدعون بالويل والثبور، وختمت السورة بوعيد الكافرين ووعد المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ أي انصدعت وتقطعت كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١] فتصدع السماء وانشقاقها يكون يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي استمعت وأطاعت أمر ربها ﷻ، فانصدعت وتشققت كما أراد الله تعالى: وَحُقَّ لها ووجب أن تنقاد لأمر الله تعالى وتسمع وتطيع، فلا شيء يستعصي عليه ﷻ، وهو خالقها وخالق كل شيء، وقد أطاعت في ابتداء خلقها كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] وأطاعت في انتهاء الخلق هنا.

ومعنى (أذنت) أي سمعت، والعرب تقول: «أذن لك في هذا إذناً» أي استمع لك، ومنه الحديث المتفق عليه قول النبي ﷺ: **«ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن»** أي ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي بسطت وجعلت مستوية، وذلك بإزالة جبالها وآكامها، فصارت قاعاً صفصفاً كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: **«تُمَدّ الأرض يوم القيامة مَدَّ الأديم، لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه»**.

وقال ابن عباس: مدت مد الأديم العكاظي، لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه واستوى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي ما في جوفها من الأموات والكنوز ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي عما كان في بطنها. وقال مجاهد: أي أخرجت ما فيها من الموتى، وقال: أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم.اهـ.

والمقصود أن الله تعالى يبعث من في القبور إلى الحشر والنشور فيخرجون عزلاً عراة غرلاً كما بدأ أول خلق يعيده، وَأَنّ كل ما في الأرض يخرج منها بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

وورد أن الأرض إذا سئلت ما لها؟ تقول: ربي أمرني أن ألقي ما في جوفي، وأن أتخلّىٰ فأكون كما كنت إذ لا شيء فيَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٣﴾﴾ أي واستمعت لأمر ربها وأطاعت، وحق لها أن تسمع وتطيع.

وجواب «إذا» الأولى والثانية محذوف تقديره: إذا حدث ما حدث رأيتم أعمالكم من خير وشر، وقد تقدم في التكوير والانفطار جواب الشرط كهذا، وهو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤]، وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ٤]، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ الخطاب لجنس الإنسان، أي يا ابن آدم، والكادح هو الساعي بجد ونوع مشقة، والمعنى: يا ابن آدم إنك مجد في عملك ليل نهار إلى أن تموت، وتلقى ربك بعملك، فيجازيك عليه، فاحرص أن يكون عملك مما يرضي الله تعالى وينجيك من سخطه، وإياك وما يسخطه عليك فتهلك. والله أعلم.

والجمهور على أن معنى ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي ملاق ربك بعملك كما فسرنا، ومن الناس من يرد الضمير إلى العمل، أي فملاق عملك.

قال البخاري: حدثنا حجاج، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه،**

ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة ـ أو بعض أزواجه ـ: إنا لنكره الموت قال: «**ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه**».

وقال قتادة: إن كدحك أيها الإنسان لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله. اهـ.

ثم ذكر الله تعالى انقسام الناس عند ملاقاته إلى قسمين: فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه وراء ظهره فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي أعطي كتاب أعماله بيمينه، وهم من آمن وعمل صالحاً وتوفرت فيه صفات الأبرار المذكورة في آيات كثيرة من القرآن ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾، أي سهلاً، وذلك بأن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازيه على أحسنها.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يدني العبد يوم القيامة، حتى يضع كنفه[1] عليه، فيقول له: فعلت كذا وكذا ـ ويعدد عليه ذنوبه ـ ثم يقول: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**» فهذا المراد من الحساب اليسير؛ اللهم اجعلنا من أهله.

وأخرج البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحد يحاسب إلا هلك**»، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؟ قال: «**ذاك العَرض يعرضون، ومَنْ نُوقِشَ الحساب هلك**».

وقوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ أي يرجع من الحساب إلى أهله في الجنة فرحاً مسروراً بما أعطاه الله من الفضل والنعيم المقيم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ أي أُعطي كتاب عمله

---

(١) الكنف ـ بالتحريك ـ: الجانب والناحية. وهو تعبير عن جعله تحت ظل رحمته تعالى يوم القيامة.

بشماله من وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ أي ينادي بالهلاك قائلاً: واثبوراه، واويلاه ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي يدخل ناراً شديدة الإلتهاب فيحترق بها. عياذاً بالله تعالى. ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ أي كان في أهله في الحياة الدنيا غافلاً لاهياً لا يفكر في الآخرة ولا يعمل لها، لأنه لا يؤمن بالبعث، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي ظن أنه لن يرجع إلى ربه ولن يبعث بعد الموت، لاعتقاده أنه يحى ويموت وما يهلكه إلا الدهر، فلم يكن يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً، ولا يرعوي مهما فعل من المآثم، على الضد من المؤمن الذي عاش في الدنيا مؤمناً بلقاء الله تعالى، واثقاً من ذلك، عاملاً بالخير صالحاً تقياً يخشى الله ويتقه ويخاف العقاب ويرجو الثواب، حتى إنه لما فاز وأخذ كتاب أعماله بيمينه قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ٢٠] أي إني علمت وأيقنت بأني سألقى جزائي يوم القيامة، فأعددت له عدته من الإيمان والعمل الصالح، فأكرمني ربي بفضله ورحمته.

ومن ذلك قول المؤمنين عندما بلغوا المنى بفضل الله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٨].

ثم قال تعالى تقريراً لحقيقة البعث والجزاء، وحكاية عن ذلك الشقي الذي أخذ كتاب عمله وراء ظهره، نتيجة عدم إيمانه بالبعث والرجوع إلى الله تعالى، قال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي لَيحورنَّ ولَيرجعنَّ إلى ربه حياً كما كان قبل موته وليحاسبن ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ لا يخفى على الله شيء من أمره وأمر غيره، وقد علم ما أسلف في الأيام الخالية، وسيحاسبه وغيره بحكمته وعدله.

ونظير الآيات:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٧].

❖ ❖ ❖

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ لَتَرۡكَبُنَّ[1] طَبَقًا عَن طَبَقٖ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ
أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾.

بعد إثبات حقيقة رجوع الإنسان إلى ربه وملاقاته إياه وحسابه إما حساباً يسيراً لأصحاب اليمين وإما حساباً عسيراً لأصحاب الشمال، أقسم الله تعالى ببعض آياته الظاهرة الجلية لكل إنسان ليل نهار أن البعث كائن لا محالة، وأن الناس تمر بأحوال بعد أحوال من النطفة والخلق في بطون الأمهات والولادة ثم الطفولة وما بعدها إلى الموت ثم البعث والحساب ثم المقر الأخير وهو الجنة أو النار، ثم ختمت السورة بالإنكار على الكفار عدم إيمانهم مع وضوح الدلائل على البعث وصحة الرسالة وصدق المرسَل بها، ثم البشارة لهم بالعذاب الموجع، ووعد المؤمنين بالثواب والنعيم الدائم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ الشفق؛ الحمرة التي تشاهد في الأفق الغربي بعد غروب الشمس، وإذا غابت هذه الحمرة خرج وقت المغرب ودخل وقت العشاء عند عامة العلماء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ أي جَمَعَ وضمَّ وستر ما انتشر في النهار ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ أي اجتمع وتَمَّ نوره واكتمل وصار بدراً، وذلك في الليالي البيض، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾ أي حالاً بعد حال، حال الموت ثم البعث ثم العرض والحساب والجزاء ثم الجنة أو النار، ويدخل في ذلك أطوار الإنسان وأحواله قبل ذلك منذ أن كان نطفة فمضغة فعلقة مخلقة ثم ولادة فنشأة بجميع مراحلها إلى أن يموت ويبعث على ما سبق بيانه، والله أعلم.

---

(١) ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء، على خطاب الجمع إذ المراد بالإنسان الجنس، وضمة الباء تدل على واو الجمع المحذوف لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقون بفتح الباء على خطاب الواحد، وهو الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي أيُّ شيء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله والدار الآخرة مع كثرة الأدلة والبراهين البينة، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ وما لهم أيضاً إذا تُلي عليهم القرآن لا يخضعون ولا يخشعون ولا ينقادون ولا يخرون للإذقان سجداً تعظيماً للقرآن والسجود للرحمن، واستدل العلماء بهذه الآية على مشروعية سجدة التلاوة، وقد ذكرنا حديث أبي هريرة آنفاً. وسجود التلاوة واجب عند أبي حنيفة واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله، لكن هذا قول مرجوح، وذلك أنه ثبت في الصحيح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب الناس يوماً فقرأ سورة النحل فلما وصل آية السجدة نزل من المنبر فسجد، ثم قرأها من الجمعة الثانية فمر بها ولم يسجد فقال رضي الله عنه: إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء، وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم يُنكر عليه أحد، وسنته رضي الله عنه من السنن التي أُمرنا باتباعها. [أخرجه البخاري في كتاب سجود القرآن، باب من رأى أن الله لم يوجب السجود في التلاوة ١٠٧٧].

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بالقرآن والبعث، ولذلك لا يخضعون ولا يخشعون ولا يسجدون عند تلاوة القرآن، فالإيمان يحمل صاحبه على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهؤلاء كفار كذبة، فهذا هو سبب إعراضهم وعدم خضوعهم وخشوعهم وسجودهم عند استماعهم للقرآن يتلى.

ورُوي أن النبي ﷺ قرأ ذات يوم ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ فسجد هو ومن معه من المؤمنين، وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر استهزاء.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي بما يجمعون في صدورهم من التكذيب والكفر، وفي نفوسهم من الحسد والكبر والبغض للمؤمنين، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أخبرهم يا رسولنا بالعذاب الموجع الذي لا بد أن يلقوه بسبب كفرهم وتكذيبهم وعنادهم، والبشرى هي الإخبار بما تتغير له بشرة الوجه، وتستعمل في الخير والشر، وهي هنا بشرى لهم بما يسؤهم تهكماً بهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع معناه: لكن الذين صدقوا الله ورسوله وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي لهم ثواب غير مقطوع ولا منقوص، وذلك في الجنة دار السلام، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.



مكية وآياتها ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

في هذه السورة تذكير وتسلية للمؤمنين، وتهديد ووعيد للكافرين بعرض قصة تذكر المؤمنين بما تعرّض له سلفهم من التعذيب والإحراق بالنار، لا لشيء، إلا لأنهم يقولون: ربنا الله، وكيف كان صبرهم عظيماً قوياً، فتحملوا ما نالهم من الكفار وصبروا على التعذيب بالنار حتى الموت، لقوة إيمانهم ويقينهم بأن ما عند الله أفضل، فاصبروا أنتم أيها المسلمون على أذى مشركي قريش الذي لم يبلغ ما فعله أصحاب الأخدود، أما الكفار فالويل لهم والعاقبة للمتقين، ثم تحدثت السورة عن قدرة الله تعالى على الانتقام من أعدائه، وختمت بعرض أخبار عن بعض الأمم الماضية كفرعون وثمود، وبينت مكانة القرآن الذي تعهد الله بحفظه.

روى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ و﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ الواو هنا حرف قسم، و﴿ٱلْبُرُوجِ﴾

جمع برج، وهي المجموعة العظيمة من النجوم، سُمِّيَتْ بروجاً لعلوها وارتفاعها، كالقصور العالية، أو أنها منازل عالية في السماء هي منازل الكواكب الشمس والقمر، يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم، فذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثم يستتر ليلتين، وتسير الشمس في كل برج منها شهراً، وقد تقدم ذكرها عند قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] وهي اثني عشر: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وهي مقسمة بين فصول السنة الأربعة: الربيع والصيف والخريف والشتاء.

والمعنى: أُقسم بالسماء ذات البروج، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يقسم إلا بالله تعالى.

وفي الصحيحين قوله ﷺ: «**مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» [رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ وهو يوم القيامة، وُعِدَ فيه العباد لفصل القضاء بينهم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة، روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه الله منه**».

وقال مجاهد: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ قال: الإنسان ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ قال: يوم القيامة. وقال قتادة: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة، وعن ابن عباس: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يقول الله: ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم القيامة.

وقيل: الشاهد: الكرام الكاتبين، والمشهود عليهم: بنو آدم، وقيل: الشاهد النبي محمد ﷺ، والمشهود عليهم الأمة، وقيل: الشاهد أمة محمد ﷺ والمشهود عليهم سائر الأمم، وقيل غير ذلك، وقال بعض العلماء: والأحسن

أن يراد ما هو أعم، ولذلك نكَّرهما ليعم كل شاهد ومشهود، والله أعلم.

وجواب القسم ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ القتل هنا بمعنى اللعن والطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى، وفي ذلك هلاكهم وأخذهم بالعذاب جزاء ما فعلوا بالمؤمنين، و﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ الشق المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد، وهي حفر حفرها الكفار وأوقدوا فيها ناراً وأتوا بالمؤمنين وعرضوا عليهم الكفر أو الإلقاء في النار، فاختاروا البقاء على إيمانهم بالله تعالى وصبروا على الإلقاء في النار، ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ بدل من ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ أي أن الأخدود هي أخدود النار، ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ الحطب الموقد به النار ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦﴾ أي على حافات أخدود النار قاعدون يتشفون من المؤمنين ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧﴾ أي حضور شاهدون تعذيب المؤمنين، ويرون النار تحرق أجسادهم ولا يرقون لهم لقسوة قلوبهم، فلذلك استحقوا الطرد من رحمة الله تعالى والهلاك والعذاب المؤلم يوم يلقونه. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾ أي ما أنكر هؤلاء الذين أحرقوا أجساد المؤمنين إلا الإيمان بالله ﷻ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ القوي الذي يُخشى عقابه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ الذي يُرجى ثوابه. ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي المختص بملك السموات والأرض ومَنْ فيهما وما فيهما وما بينهما وما وراء ذلك وما دونه، فهو ﷻ مالك الملك كله ورب كل شيء ومليكه. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي مطلع على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك صبر المؤمنين وثباتهم على الحق، وإيثارهم رضا الله تعالى على كل شيء، حتى على حياتهم، ومطلع على فجور الكافرين، وسيجزى كلاً بعمله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي فتنوهم عن دينهم وأحرقوهم بالنار ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ أي ثم لم يرجعوا عن ذلك، ويقلعوا ويندموا ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي لهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين. لأنهم أحرقوا المؤمنين بدون ذنب إلا إيمانهم بربهم، فاستحقوا أن يُحرقوا كما أَحرقوا، وشتان بين نار الدنيا ونار الآخرة، فقد فُضِّلت نار الآخرة على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً كلهنَّ حرهنَّ مثل حرها.

وقيل: لهم عذاب جهنم في الآخرة وعذاب الحريق في الدنيا، وذلك أن الله تعالى أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين ارتفعت إليهم من الأخدود، والله أعلم.

وقصة أصحاب الأخدود جاءت متعددة، وملخصها أن قوماً كفاراً حاولوا بالمؤمنين أن يرتدوا عن دينهم فعجزوا، فحفروا حفراً مستطيلة في الأرض كمجرى النهر، ثم أججوا فيها النيران، وأحرقوا فيها المؤمنين الذين لم يطيعوهم بترك الإيمان إلى الكفر، ففاز من احترق بنار الكفار بالجنة، وخسر الكفار وباءوا بسخط الله وأليم عقابه. وإليك القصة كما في الصحيح.

قال مسلم: حدثنا هدّاب بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: **«كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلمّا كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر. فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحر فقُل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم! إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بُنّي! أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ. وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص ويُداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع، إن أنت شفيتني فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يُعذبه**

حتى دلّ على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما تُبريء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يُعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خُذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، رب الغلام ثم ارميني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صُدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات فقال الناس: آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام، فأُتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد، والله! نزل بك حذرك قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدّت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أُمه! اصبري فإنك على الحق».

❖ ❖ ❖

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾
ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ(١) ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ
﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ
﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ(٢) ﴿٢٢﴾﴾.

لما ذكر الله تعالى وعيد الكفار أتبعه بذكر ما أعد للمؤمنين، وهذا هو نهج القرآن في عرض الترغيب والترهيب، يذكر عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة وصفات كل فريق، ليعيش الإنسان بين الخوف والرجاء، فهما جناحان يطير بينهما العبد حتى يأتيه اليقين، فيحط رحاله في القبر الذي يعقبه البعث والحساب والثواب أو العقاب.

وهكذا ينبغي للوعاظ والخطباء أن يسيروا على هذا المنوال في الخطب والدروس الدعوية، لأن الإنسان إذا سمع شدة العذاب ومسبباته نأى بنفسه عنها قدر المستطاع، وراح يبحث عن مسببات الرحمة والنعيم، فإذا ذكر الترهيب وجب بعده ذكر الترغيب والعكس، فهذا هو الوعظ النافع، فبعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن الذين جمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، سواء من هؤلاء المفتونين أو غيرهم ﴿لَهُمۡ﴾ عند الله ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي بساتين وحدائق زاهرة تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، والتي ذكرت في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ

---

(١) ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بخفض الدال صفة للعرش، وقرأ الباقون برفعها خبر بعد خبر أو صفة لـ [ذو].

(٢) ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾ قرأ نافع برفع الظاء صفة للقرآن، وقرأ الباقون بخفضها صفة للوح.

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥]، وفي الجنة من النعيم ما لا يخطر على البال كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**». فنسأل الله الجنة ونستجير به من النار.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى النعيم المذكور ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي التام الذي لا فوز مثله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ البطش الأخذ بعنف وشدة، ويقع ذلك العقاب الشديد لمن يستحقه، وإلا فإن رحمة الله تعالى واسعة، والله تعالى يعفو عن كثير من الذنوب ويستر ويتجاوز، لكن أخذه للظالم شديد كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢] فالبطش شديد لمن يستحقه، أما من لا يستحق البطش فإن الله تعالى يعامله برحمة منه وفضل، ورحمته تعالى سبقت غضبه، اللهم ارحمنا يا أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ أي يبدأ الخلق في الدنيا ثم يعيدهم أحياء بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، فإن الله ﷻ هو الذي يُبدئ كل ما يُبْدَأ ويعيد كل ما يُعاد، وكل الأمور بيده تعالى يفعل ما يشاء.

وقال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان ـ شيخ من النَّخَع ـ عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب النبي ﷺ فقال: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] **ثم إن أول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم، ثم يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ **إلى قوله:** ﴿شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، فيقال: إن هؤلاء الذين لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن يرجع إليه بالتوبة، والمغفرة: ستر الذنوب مع العفو، كما في الحديث الصحيح: «**إن الله يخلو بعبده المؤمن يوم القيامة ويقرره بذنوبه حتى يقر بها ويعترف، فيقول الله ﷻ: قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**».

وقوله تعالى: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ أي المحب لمن أطاعه وأخلص له، فالله تبارك وتعالى يحب عباده المخلصين، وهو تبارك وتعالى محبوب كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ومنه قول النبي ﷺ: «**لأُعْطِيَنَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» وذلك في غزوة خيبر، كان الذي أعطاه الراية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

والله تعالى يحب المتقين، ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا محبته، وأن يفيض علينا لطفه وكرمه ومحبته وإحسانه، إنه بر رحيم.

وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي صاحب العرش ومالكه، والعرش هو الذي استوى عليه الله تعالى استواء يليق بجلال وجهه الكريم وسلطانه العظيم من غير تمثيل ولا تكييف، والعرش هو أعظم المخلوقات، كما جاء في الأثر: أن السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وأن فضل الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ بخفض الدال صفة للعرش، وبرفعها صفة لله تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، رُوي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قيل له وهو في مرضه الذي مات فيه: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: وماذا قال لك؟ قال: قال لي: إني فعّال لما أريد.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ أي قد أتاك خبر الجموع الكافرة، الذين تجندوا على الأنبياء، ثم بيّن من هم فقال تعالى: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ أي هؤلاء هم الجنود، وقوله: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ أي فرعون وجنوده، اكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه، والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادي في

الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب والنكال، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ، وتهديد ووعيد لكفار قريش وأن الله تعالى قادر على إهلاكهم، فقد أهلك من هو أشد منهم قوة، وخص فرعون وثمود لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وكذلك فرعون قصته مشهورة عندهم وعند أهل الكتاب، فذكرهم بما علموا من طغيان القوم وما حل بهم من الهلاك نتيجة ذلك، فكأنه يقول: اتعظوا وأطيعوا الله ورسوله قبل أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد، و«بل» إضراب انتقالي للأشد، أي إن الكافرين من قومك أشد في تكذيبهم لك من تكذيب أولئك لرسلهم. وفي قوله تعالى: ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ إشارة إلى تمكنه من نفوسهم، أي التكذيب، وأنه لشدته محيط بهم من كل جانب.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ أي إن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك، والإحاطة بالشيء الحصر له من جميع الجوانب، فهم في قبضته وتحت سطوته ﷻ ولا مفر ولا مهرب لأحد من أمر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ «بل» إضراب عن شدة تكذيبهم، أي هذا القرآن الذي كذب به قومك هو كتاب عظيم سام شريف لا يُمَاثَل في أسلوبه وهدايته، لا كما يصفونه بأنه أساطير الأولين أو شعر أو كهانة بل هو قرآن مجيد بالغ الغاية في المجد والشرف والسمو والرفعة، هداية وتشريع لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتكذيبهم له لا يضره بشيء، وما ضر السحاب من نبح الكلاب.

وقوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ أي عن الزيادة والنقص والتحريف والتبديل. فالقرآن محفوظ عند الله تعالى، تعهّد بحفظه تبارك وتعالى كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، واللوح المحفوظ عند الله ﷻ هو أم الكتاب كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] وقد كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، وكما بينا آنفاً في ﴿مَّحْفُوظٍۭ﴾ قراءتان: لنافع برفع الظاء صفة للقرآن، وقراءة الجمهور بالخفض صفة للوح.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن اللوح المحفوظ من درة بيضاء دفتاه ياقوت أحمر، كتابته نور وقلمه نور، ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يميت ويحيي، ويُعز ويُذِل، ويفقر ويغني، ويفعل ما يشاء.اهـ.

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: إن في صدر اللوح: لا إله إلا الله وحده، دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله ﷻ، وصدق بوعده واتبع رسله، أدخله الجنة.

وعن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق: اكتب علمي في خلقي، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة.



سورة الطارق

مكية وآياتها سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا[1] عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾.

روى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن خالد بن أبي جبل العدواني عن أبيه؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصر. فسمعته يقرأ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١)﴾ حتى ختمها قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعتني ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم. فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقًّا لاتبعناه. وروى النسائي عن جابر، قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة أو النساء، فقال النبيّ ﷺ: **«أفتان أنت يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحو هذا؟»**.

افتتحت هذه السورة بقسم من الله تعالى على إثبات أمور العقيدة، شأنها شأن السور المكية في تأسيس أصول عقيدة التوحيد والوحي والنبوة

---

(١) ﴿لَّمَّا﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بتشديد الميم وقرأ الباقون بتخفيفها.

والبعث والجزاء لأن القوم كانوا مشركين في جاهلية جهلاء لا يؤمنون ببعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، وبينت الهيمنة الإلهية على الناس وحفظ أعمالهم، ودعتهم للتفكر في أصل نشأتهم من العدم، يتمثل ذلك في ماء مهين لا يمكن أن تكون فيه حياة إلا بإرادة الله تعالى ليستدلوا بذلك على أن الذي أنشأهم أول مرة قادر على إعادتهم بعد الموت، ثم أردفت بقسم آخر على أن القرآن قول فصل وما هو بالهزل، ومع ذلك أنكره الكفار وكادوا له ولمن جاء به من عند الله تعالى فرد الله تعالى كيدهم في نحورهم وأذاقهم أصناف العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ أقسم الله تعالى بالسماء والطارق، والسماء هو كل ما علاك، والطارق هو ما يطرق ويأتي ليلاً، ولما كان لفظ الطارق يشمل كل طارق آت بليل، والباري ﷻ أراد طارقاً معيناً فخم من شأنه بالاستفهام عنه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ أي أيُّ شيء أعلمك بالطارق؟ ثم بينه تعالى بقوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ أي الذي ينفذ ضوءه في الظلام، فيحتمل أن يكون المراد به جميع النجوم فتكون «ال» للجنس، ويحتمل أنه النجم اللامع الذي يثقب الظلام بنوره، وأياً كان، فإن هذه النجوم من آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته في سيرها وانتظامها واختلاف منافعها، فمنها الهادي ـ بهداية الله ـ في البر والبحر، يستدل به المسافرون على معرفة طريقهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦]. ومنها زينة للسماء ورجوماً للشياطين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، فسبحان الله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، أقسم بما أقسم، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما نحن فليس لنا إلا أن نقسم بالله تعالى، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ «إن» نافية و«لما» بمعنى إلا، والمعنى: ما كل نفس إلا عليها حافظ يتولاها ويمن عليها بالخير والنماء والبقاء إلى أن يحين أجلها، والحافظ هو الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] والله تعالى حافظ السموات والأراضين ومَنْ فيهن، قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقيل: الحافظ هو المَلَك

الذي يكتب أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠، ١١] فهذه مهمتهم كما بينها الله تعالى، وهناك ملائكة موكلون برعاية العباد وحفظهم من المكاره كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، أي يحفظونه بأمر الله.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ أي فلينظر الإنسان في أول شأنه نظر تفكر واعتبار، وهو النظر بالبصيرة من أي شيء خلقه الله؟ والجواب إنه ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ أي ماء مدفوق، وهو المني المنصب في الرحم، يخرج من بين صلب الرجل، أي عظام ظهره وترائب المرأة، أي عظام صدرها، أو موضع القلادة من الصدر، وباجتماع الماءين ثم استقراره في الرحم يتكون الجنين بإرادة الله تعالى. ويقول أهل الاختصاص في هذا الأمر: الصلب: هو منطقة العمود الفقري، ـ والترائب: هي عظام الصدر.

وقد بينت الدراسات الجلينية الحديثة أن نواة الجهاز التناسلي والجهاز البولي في الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقري وبين الخلايا المكونة لعظام الصدر.

وتبقى الكلى في مكانها وتنزل الخصية إلى مكانها الطبيعي في الصفن عند الولادة. وعلى الرغم من انحدار الخصية إلى أسفل فإن الشريان الذي يغذيها بالدم طول حياتها يتفرغ من الأورطة بحذاء الشريان الكلوي.

كما أن العصب الذي ينقل الإحساس إليها ويساعدها على إنتاج الحيوانات المنوية وما يصاحب ذلك من سوائل متفرع من العصب الصدري العاشر الذي يغادر النخاع الشوكي بين الضلعين العاشر والحادي عشر.

وواضح من ذلك أن الأعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع في الجسم بين الصلب والترائب «العمود الفقري والقفص الصدري».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ أي إن الله تعالى الذي خلقه مما ذُكر من ماء دافق فجعله بشراً سوياً، ثم أماته قادر على إرجاعه حياً ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ أي تختبر الضمائر، وتنكشف العقائد، ويُميِّز ما طاب منها وما

خاب، وورد عن السلف أن الوضوء والغسل والصلاة والزكاة والصيام من السرائر، وكذلك الأمور التي تخص المرأة كالحيض والحمل وعدم ذلك، من سرائرها.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾ وذلك يوم القيامة، ليس للإنسان الكافر المكذب بالبعث والدار الآخرة من قوة يدفع بها عن نفسه عذاب الله، ولا ناصر ينتصر به فيخلصه.

والخلاصة أنه ليس له قوة ذاتية ولا قوة خارجية، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه، ولا أحد يستطيع الدفاع عنه، إذ زالت الفروق بين الناس، وأصبحوا سواسية أمام الخالق ﷻ، فكل إنسان يجد ما قدم من عمل حاضر، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾ أقسم الله تعالى بالسماء ذات الرجع وهو المطر، سُمِّي بذلك لأنه يرجع ويتكرر وبه حياة الأرض، وأقسم بالأرض ذات الصدع، وهو التشقق بالنبات والزروع، أقسم بذلك ﷻ على ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ أي حق فارق بين الحق والباطل ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾ أي ما هو بالكلام الذي ليس له أصل في الفطرة ولا معنى في القلب، بل هو جد الجد.

أخرج ابن مردويه عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أتاني جبريل فقال: يا محمد، إن أمتك مختلفة بعدك. قلت: فأين المخرج يا جبريل؟ فقال: كتاب الله به يقصم كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك، قولٌ فصل ليس بالهزل**».

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف عن الحارث الأعور قال: دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث، فأتيت علياً فأخبرته، فقال: أوقد فعلوها؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنها ستكون فتنة**»، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ **قال: كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا**

تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس منه الألسن، ولا يخلق من الرد، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢] **من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»**.

وأخرج محمد بن نصر والطبراني عن معاذ بن جبل قال: ذكر رسول الله ﷺ يوماً الفتن فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله فما المخرج منها؟ قال: «**كتاب الله فيه المخرج، فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم، من تركه من جبار يقصمه الله، ومن يبتغي الهدى في غيره يضله الله، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم، هو الذي لما سمعته الجن لم تتناه أن قالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢] **هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه كثيرة الرد»**.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾ أي إن المكذبين بالقرآن يمكرون مكراً لإبطال أمر الله تعالى وإطفاء نوره، وهم المشركون وأمثالهم، وكيدهم يتمثل في أمور كثرة، منها اجتماعهم في دار الندوة بمكة وتشاورهم فيه، وتآمرهم على قتله، وقولهم بأن القرآن أساطير الأولين، قولهم: إن محمداً ساحر أو شاعر أو مجنون ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ وكيد الله تعالى استدراجه إياهم من حيث لا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أي إمهالاً يسيراً، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكافرين من قريش وغيرهم، وقد حقق الله تعالى النصر وارتفعت راية الإسلام، وعلت مكانته، وخفتت رياح الكفر، واضمحل واندحر أهله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، والحمد لله.



سورة الأعلى

مكية وآياتها تسع عشرة آية

أخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب أنه قال: «أوّل من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم، فجعلا يُقْرِئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبيّ ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ في سور مثلها». وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه عن عليّ قال: «كان رسول الله ﷺ يحبّ هذه السورة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾. أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن توبر بن أبي فاختة عن أبيه عن عليّ. وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾، وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعاً»، وفي لفظ «وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما» وفي الباب أحاديث. وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أن النبيّ ﷺ «كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾». وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أُبيّ بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»، وقيل: إن الإكثار من تلاوة هذه السورة يورث الحفظ.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ(١) فَهَدَىٰ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ(٢) ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

هذه السورة مكية في قول الجمهور كما سبق، وتشمل الأمر بالتسبيح وتنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وفيها الأمر بالدعوة والتذكير وبيان أن الخير كله والفلاح في التطهر من دنس الذنوب والتجافي عن متاع الدنيا الزائل والإكثار من الباقيات الصالحات، وأشارت كسائر سور القرآن الكريم إلى الاستعداد ليوم المعاد، وهذا هو نهج الكتب السماوية السابقة.

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأمته تابعة له، أو الخطاب له لفظاً، وللعموم حكماً، والمعنى: نزه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، فهو ﷻ رفيع المقام، علا وظهر على كل شيء، فيُنَزَّه ﷻ عن كل نقص، فله صفات الكمال المطلق، وتمام القدرة، وينزه عما يقوله الظالمون مما لا يليق به جل وعلا من الشريك والزوجة والولد، ﷻ عما يشركون.

ويشمل الأمر بالتسبيح المعروف، مثل: سبحان الله، سبحان ربي الأعلى، ويؤيد ذلك ما قاله ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال: «**سبحان ربي الأعلى**».اهـ.

وكان النبي ﷺ يحب هذه السورة ويقرأها كل ليلة في وتره كما سبق في الحديث، ففي هذه السورة بشارة من الله تعالى لنبيه ﷺ بعدم نسيان القرآن إلا ما شاء الله، والتيسير له في كل أمر من أمور الدعوة والعبادة وكل أوجه

---

(١) ﴿قَدَّرَ﴾ قرأ الكسائي بتخفيف الدال وقرأ الباقون بتشديدها.
(٢) ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ قرأ أبو جعفر بضم السين وقرأ الباقون بإسكانها.

الخير، وقد أمر النبي ﷺ أن يجعل هذا التسبيح في السجود كما روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾، قال لنا رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**»، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، قال: «**اجعلوها في سجودكم**».

و﴿ٱلْأَعْلَى﴾ هو الأرفع من كل شيء، قدرة وملكاً وسلطاناً، واستدل السلف بظاهره بإثبات العلو بلا تكييف، والمسألة معروفة.

وقوله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني: نزه اسم ربك، وتنزيه الاسم مستلزم تنزيه المسمَّى، فالمقصود تنزيه الله تعالى على كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، وقيل: معناه: سبح ربك ذاكراً اسمه، أي سبحه بالقلب واللسان، وذلك بذكر اسمه، أي سبحان الله، سبحان ربي الأعلى... وهكذا، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾.

ويشمل التنزيه تكريم اسم الله تعالى عن أن يطلق على غيره ـ جل وعلا ـ إذا كان مختصاً به ﷻ كالاسم الجليل، وقد ورد عن السلف شده حرصهم على تنزيه اسمه تعالى، ومن ذلك ما رُوي عن الإمام مالك رحمه الله أنه كان إذا لم يجد ما يعطي السائل يقول: ما عندي ما أعطيك، أو ائتني في وقت آخر، أو نحو ذلك، ولا يقول نحو ما يقول الناس: يرزقك الله تعالى، أو يبعث الله تعالى لك، أو يعطيك الله تعالى، أو نحوه؛ فسئل عن ذلك فقال: إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسؤول له ما يفيد رده وحرمانه، فأنا أجل اسم الله سبحانه من أن أذكره لمن يكره سماعه ولو في ضمن جملة.اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ أي خلق المخلوقات فأتقن خلقها وأحكم صنعها على أتم حال، فلا تفاوت فيها ولا خلل، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أي قدر لكل شيء ما يصلحه، فهداه إليه وعرفه أوجه الانتفاع به. وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ أي صيّره بعد خضرته ونضرته جافاً أسود يابساً تطير به الريح، وبعد أن يصير كذلك يكون أيضاً طعاماً نافعاً للبهائم، فسبحان الله! وفيه إشارة إلى زوال الدنيا وما فيها، وأن الله تعالى فعال لما يريد، يوجد ثم يعدم، ويحيي ثم يُميت، من أعلىٰ المخلوقات إلى أصغرها، هذه سنة الله

تعالى فيها، مهما بلغت من النمو والازدهار والزخرف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، فكل مخلوق إلى زوال، وبعده البعث والحياة الأزلية.

وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ هذا وعد من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه يقرئه القرآن فيحفظه الرسول ﷺ ولا ينساه.

قال مجاهد: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها، فنزلت: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ .اهـ.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

فهذا التوجيه الإلهي، وهذه الهداية الخاصة بنبي الله ﷺ، فصار النبي ﷺ ينصت حتى ينتهي جبريل عليه السلام من قراءة الوحي ثم يقرأه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ما شاء الله تعالى أن تُنَسَّاه، فإن الأمر بيد الله ﷻ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وكما قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٦، ١٠٧].

فالنبي ﷺ لا يتفلت من القرآن، ولكن ربما يُنَسَّى آية فيتذكرها سريعاً، كما ذكر ابن جرير أنه قد رُوي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أُبَيٌّ أنها نسخت، فسأله، فقال: (نُسِّيتها)، فإن الرسول ﷺ يحفظ هذا الكتاب العظيم الضخم من غير دراسة ولا تكرار، ولا ينساه أبداً إلا ما شاء الله على ما سلف. فهذه ميزة خاصة بالنبي ﷺ ومعجزة باهرة، أما نحن فإذا لم نراجع ونكرر باستمرار فسوف يتفلت منا القرآن.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعاهدوا هذا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها**». وفي رواية: «**أشد تفصياً من قلوب الرجال من النعم من عقلها**». والمعنى: داوموا على تكرار القرآن ودرسه لئلا تنسوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي إن الله تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا يخفى عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ أي نوفقك للطريقة اليسرى، وهي الشريعة السمحة السهلة التي هي أيسر الشرائع وأوفقها بحاجة الناس في كل زمان ومكان، وهي شريعة الإسلام، وهذه بشارة ثانية من الله تعالى لنبيه ﷺ، بأن ييسره الله تعالى لليسرى، بعد أن بشره بحفظ القرآن وثباته في قلبه ﷺ.

فهذه هي الشريعة السمحة، وهذا هو الدين الواضح الجلي، الخالي من كل حرج، فعليك الدعوة إليه والتذكير ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ أي ذكر الناس بآيات الله تعالى، وذكرهم بأيام الله وعظهم إن نفعت الذكرى أو لم تنفع، إنما عليك البلاغ، و﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ أي سيتعظ من يخشى الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي الذكرى ويتباعد عنها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي في علم الله تعالى، قال قتادة: فلا والله، لا يتنكب عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً لأهله إلا شقيّ بَيِّن الشقاء. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ أي النار العظيمة الفظيعة، لأنها أعظم وأشد حراً من نار الدنيا.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم**»، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: «**فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً وكلهنّ مثل حرها**» [رواه البخاري ومسلم].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ أي لا يهلك فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه، مع أنهم أحياء، لكن أحياء يعذبون كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا

﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]. وفي الحديث الصحيح: قال مسلم: وحدثني نصر بن علي الجهضمي، حدثنا بشر (يعني ابن المفضل) عن أبي مسلمة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمّا أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال: بخطاياهم) فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً، أُذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبُثّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينتبون نبات الحبة تكون في حميل السيل**». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله قد كان بالبادية.

❖ ❖ ❖

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ[(١)] ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ أي قد فاز من طهّر نفسه بالإيمان، وصالح الأعمال، وأخلص للواحد الديان، واتبع نبي الرحمة سيد ولد عدنان ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ أي ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه على كل أحواله، عند القيام من النوم وعند الوضوء وبعده وفي الصلاة وبعدها، وقبل الأكل وبعده، وعند اللباس وعند الخروج، إلى آخر ما هو مذكور من الأذكار في كتب عمل اليوم والليلة المسندة بأحاديث صحيحة، خالية من الابتداع[(٢)]، فلا يخلو المؤمن من ذكر الله تعالى إذا وفقه الله. وفي الحديث مرفوعاً: «**ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله**»، ورُوي عنه ﷺ أنه قال للذي قال له: أوصني، قال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**» أو كما قال ﷺ، وقوله تعالى: ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أي صلى الصلوات الخمس وما استطاع من النوافل، على أن الصلاة النافعة هي المقامة على الوجه الذي أمر الله به وصواباً لفعل النبي ﷺ كما

(١) ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو بياء الغيب وقرأ الباقون بتاء الخطاب.
(٢) أي الأذكار.

قال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» فتقام تامة في أوقاتها بخشوع مع كل ما يلزمها من أركان وواجبات وسنن وطهارة المكان والبدن والثوب وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله** ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾» قال: «**هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها**».

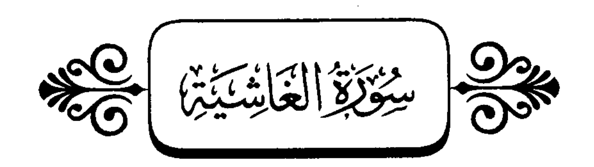
وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ أي بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الدنيا الفانية على الحياة الآخرة الباقية التي لا نهاية لها ولا زوال، فتعملون للدنيا، وتنسون الآخرة ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ أي إن الحياة الآخرة أفضل من الحياة الدنيا لخلوصها عما يكدر، وأدوم لعدم انصرامها.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه، فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم. فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل.اهـ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي ما تضمنته هذه الآيات من المواعظ، وكون الإنسان يقدم دنياه على آخرته ثابت في الصحف الأولى، وهي ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ إبراهيم الخليل، وموسى الكليم عليهما السلام، فذلك مما توافقت فيه الشرائع وسجلته الكتب السماوية.

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: **مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان**». قلت: يا سول الله: فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «**أمثال كلها أيها الملك المتسلط المبتلي المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث**

ساعات ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه ويتفكر فيما صنع، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال، فإن في هذه الساعة عوناً لتلك الساعات واستجماعاً للقلوب وتفريغاً لها، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه، فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلا فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث مرمة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو تلذذ في غير محرم». قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلها عجبت لمن أيقن بالموت كيف فرح، ولمن أيقن بالموت ثم يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، ولمن أيقن بالقدر ثم ينصب، ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل». قلت: يا رسول الله، هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: «يا أبا ذر نعم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾».



مكية وآياتها ست وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣
تَصۡلَىٰ(١) نَارًا حَامِيَةٗ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ
وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠
لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١(٢) فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ
۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

روى مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ والغاشية، في صلاة العيد ويوم الجمعة.

بدأت هذه السورة المكية بالإجماع «الغاشية» بعرض مشوق عن ذلك اليوم العظيم، يوم القيامة، يوم يذهل فيه الناس، وترتعد القلوب، ويبلغ الخوف غايته، والفزع أشده، حينئذٍ ينقسم الناس إلى قسمين، قسم في الجنة

---

(١) ﴿تَصۡلَىٰ﴾: قرأ أبو عمرو، وشعبة، ويعقوب، بضم التاء مبنياً للمفعول، ونائب الفاعل ضمير يعود عل الوجوه. وقرأ الباقون بفتح التاء مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير يعود على الوجه أيضاً.

(٢) ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١﴾: قرأ نافع «تسمع» بضم التاء الفوقية المضمومة على البناء للمفعول، ﴿لَٰغِيَةٌ﴾ بالرفع نائب فاعل. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورويس، ﴿يُسۡمَعُ﴾ بالياء التحتية المضمومة على البناء للمفعول. ﴿لَٰغِيَةٌ﴾ بالرفع نائب فاعل. وجاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي. وقرأ الباقون ﴿تَسۡمَعُ﴾ بفتح التاء على البناء للفاعل، ﴿لَٰغِيَةٗ﴾ بالنصب مفعول به.

وقسم في النار، قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ الخطاب للنبي ﷺ أو لمن يتأتى خطابه، والاستفهام للتعظيم والتعجيب مما في حيِّزه مع تقريره، ومعنى ﴿حَدِيثُ﴾ أي نبأ وخبر، و﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ أي الداهية العظيمة التي تغشى الناس، وهي يوم القيامة، ولقد تحدث القرآن عن يوم القيامة كثيراً تحذيراً للناس وإنذاراً لهم قبل وقوعه، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١، ٢]، وهنا إنذار للكفار وتحفيز للمؤمنين ليتنبه الجميع ويتفكروا في حقيقة الحياة الدنيا الزائلة، وأن وراءهم أحداث عظيمة تبدأ بالغاشية، وفيها ينقسم الناس إلى فريقين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ أي ذليلة ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ أي ذات نصب وتعب من جرّ السلاسل والأغلال وتكليف أشق الأعمال في النار.

وقوله تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ أي تدخل ناراً متناهية في الحرارة ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ أي بلغت غايتها في شدة الحر، ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ الضريع من جنس الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته، وهو سم قاتل. وعن ابن عباس أنه قال: هو الشبرق، وقال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه. اهـ. والمقصود أنه طعام المعذبين، نسأل الله السلامة.

وفي سورة الحاقة قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقة: ٣٦] فلا تنافي بينهما، لأن العذاب أنواع، والمعذبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ أي لا يخصب البدن ولا يندفع به الجوع، وقيل: إنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزل قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ أي الضريع، رداً عليهم لأنهم قد كذبوا، فإن الإبل إنما تأكله رطباً، فإذا يبس تعافه ولا تأكله.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ قال: الساعة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ قال: تعمل وتنصب في النار ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ قال: هي التي قد طال أنيها ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ

﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝﴾ قال: الشبرق[1].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝﴾ قال: حديث الساعة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝﴾ قال: ذليلة في النار ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝﴾ قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله فأعملها وأنصبها في النار ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝﴾ قال: إناء طبخها منذ خلق الله السموات والأرض ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝﴾ قال: الشبرق شر الطعام وأبشعه وأخبثه. انتهى.

وبعد بيان حال المكذبين وعذابهم وشقاءهم ذكر الله تعالى نعيم المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝﴾ وهي وجوه المؤمنين يوم القيامة نضرة ذات حسن وبهجة وسرور بما أعطاها الله تعالى من الثواب الجزيل، وقد علم المؤمنون بهذا المصير السعيد وهم في قبورهم، لأن المؤمن يُفتح له باب إلى الجنة وهو في قبره، فيأتيه من روحها ونعيمها، كما في الحديث، فتلك الوجوه ناعمة. بما تفضل الله عليها من النعيم ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا، لأنها وصلت به إلى هذا النعيم بمشيئة الله تعالى، وكانت هذه الوجوه قد جدت وثابرت في طريق البر والفضائل، وصبرت على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى أقداره المؤلمة، فنالت ما وعدها الله تعالى، وعند الصباح يحمد القوم السرى.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝﴾ أي رفيعة بهية وهم في الغرفات آمنون روى مسلم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «**إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ...**» الحديث.

والجنة دار النعيم أعدها الله تعالى لأوليائه في الدار الآخرة، والآيات والأحاديث التي تحدثت عن نعيم أهل الجنة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: «أعددت**

---

(١) الشبرق ـ بكسر الشين وإسكان الباء بعدها راء مكسورة ـ: وهو نبت ذو شوك، تأكله الإبل رطباً، فإذا يبس يقال له: ضريع ويصير سماً قاتلاً، فتعافه الإبل ولا تأكله.

لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ » [رواه البخاري ومسلم].

عن أسامة بن زيد أنه: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل من مشمر للجنة، وإن الجنة لا خطر لها وهي ورب الكعبة نورٌ تلألأ، وريحانةٌ تهتزُّ، وقصرٌ مشيدٌ، ونهرٌ مطردٌ، وثمرةٌ نضيجةٌ، وزوجةٌ حسناءُ جميلةٌ، وحللٌ كثيرةٌ، ومقامٌ في أبدٍ في دار سليمةٍ، وفاكهةٌ وخضرةٌ، وحبرةٌ ونعمةٌ في محلّةٍ عاليةٍ بهيةٍ**» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمِّرون لها، قال: «**قولوا: إن شاء الله**»، فقال القوم: إن شاء الله[(1)].

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ أي لا تسمع أيها السعيد الفائز بدار النعيم فيها كلمة لغو أو نفساً تلغو، لأن أهل الجنة كلامهم فيها التسبيح والتحميد والحكمة، يُلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وهي دار خالية من كل ما يكدر، فيها النعيم الكامل والسعادة الدائمة ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] وقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي لا انقطاع لها ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي مرتفعة، ليروا إذا جلسوا عليها جميع ما وهبهم الله تعالى من الملك والنعيم الدائم في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ أي وفيها أقداح ليست لها عراً، وضعت بين أيديهم ليشربوا بها ما لذ من الشراب، ﴿وَنَمَارِقُ﴾ أي وسائد ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي بعضها إلى جانب بعض فوق الأسرة للاستناد إليها ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي بسط ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ أي مفروشة هنا وهناك ومبسوطة.

ومما يجب أن يُعلم أن ما ذكر من النمارق والأكواب والسرر والزرابي لا يشبه ما نعرفه منها في الدنيا، كما في الحديث القدسي المتفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا**

---

(١) قال في شرح السنة: أخرجه ابن ماجة (٤٣٣٢)، وابن حبان (٢٦٢٠) في الزهد، باب صفة الجنة. وقال: الضحاك المغافري لم يوثقه غير ابن حبان، وشيخه سليمان بن موسى الأموي الدمشقي مختلف فيه.

عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]».

وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط.اهـ. فالأسماء واحدة ولكن الحقائق مختلفة، فنسأل الله تعالى الجنة ونعيمها بفضله ورحمته إنه جواد كريم.



﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ(١) ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

بعد بيان جانب من أهوال يوم القيامة، وانقسام الناس إلى أشقياء تعلو وجوههم علائم الذلة والمهانة، وسعداء تُشَاهد على وجوههم علامات الترف والنعيم، وبيان جزاء كل فريق، أخذت الآيات تقيم الحجة على منكري ذلك، إذ إن إنكارهم هذا يستلزم إنكارهم البعث والإعادة والجزاء، فلفت أنظارهم إلى ما هو نصب أعينهم من دلائل قدرة الله تعالى، وخص منها أربعة أشياء، لأنها مألوفة لديهم، ونصب أعينهم في كل حين، وهي: الإبل، لأنها لصيقة بحياتهم إذ ذاك، حيث ينتفعون بها في الحل والترحال، ويأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويلبسون من أوبارها، والسماء التي تظلهم، والأرض التي تقلهم، والجبال وما فيها من المنافع والمعادن.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ أي أينكرون البعث والحساب، والثواب والعقاب وما أعده الله تعالى للمؤمنين من النعيم في جنة الخلد، وما أعده للكافرين من العذاب في النار، أفلا ينظرون نظر اعتبار وتدبر إلى الإبل التي هي نصب أعينهم كيف خلقها الله عز وجل بهذا الجسم الكبير

(١) ﴿إِيَابَهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد الياء وقرأ الباقون بتخفيفها.

الذي يتحمل المشاق، كيف أن البعير يقطع المسافات الطويلة بالحمل الثقيل، ويأكل ما يجد من نبات البراري، ويصبر على العطش عشرة أيام فأكثر، وتُحَمَّل الإبل بالأثقال وهي باركة ثم تنهض بها، لما وهبها الله تعالى من القوة، وذلك لمنفعة الإنسان لأنه لا يستطيع تحميلها وهي واقفة لارتفاعها، والإبل تنقاد للضعيف ولو كانت قافلة، والإبل تتأثر بالصوت الحسن، كما في خبر «**رفقا بالقوارير**»، وهي أنفس أموال العرب وأكثر الحيوانات نفعاً للناس، وفيها من المزايا وعجيب خلق الله تعالى ما لم يُعلم حتى الآن، وإليك ما قاله الاختصاصيون في هذا الشأن.

قالوا: في خلق الإبل آيات معجزات دالة على قدرة الله ليتدبر في ذلك المتدبرون. فمن المعروف أن من صفاتها الظاهرة ما يمكنها من أن تكون سفن الصحراء بحق، فالعينان ترتفعان فوق الرأس وترتدان إلى الخلف فضلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانها الرمال والقذى؛ وكذلك المنخران والأذنان يكتنفهما الشعر للغرض نفسه. فإذا ما هبت العواصف الرملية انقفل المنخران، وانثنت الأذن ـ على صغرها وقلة بروزها ـ نحو الجسم. أما القوائم فطوال تساعد على سرعة الحركة، مع ما يناسب ذلك من طول العنق، وأما الأقدام فمنبسطة في صورة خفاف تمكن الإبل من السير فوق الرمال الناعمة؛ وللجمل كلكل تحت صدره ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة، كما أن على جانبي ذيله الطويل شعراً يحمي الأجزاء الخلفية الرقيقة من الأذى.

أما مواهب الجمل الوظيفية فأبلغ وأبدع، فهو في الشتاء لا يطلب الماء، بل قد يعرض عنه شهرين متتاليين إذا كان الغذاء غضاً رطباً أو أسبوعين إن كان جافاً. كما أنه قد يتحمل العطش الكامل في قيظ الصيف أسبوعاً أو أسبوعين، يفقد في أثنائهما أكثر من ثلث وزن جسمه، فإذا ما وجد الماء تجرع منه كمية هائلة يستعيد بها وزنه المعتاد في دقائق معدودات. والجمل لا يختزن الماء في كرشه كما كان يظن. بل إنه يحتفظ به في أنسجة جسمه ويقتصد في استهلاكه غاية الاقتصاد، فمن ذلك أنه لا يلهث أبداً ولا يتنفس من فمه ولا يصدر من جلده إلا أدنى العرق، وذلك لأن حرارة جسمه تكون

شديدة الانخفاض في الصباح المبكر؛ ثم تأخذ في الارتفاع التدريجي أكثر من ست درجات قبل أن تدعو الحاجة إلى تلطيفها بالعرق والتبخر، وعلى الرغم من كمية الماء الهائلة التي يفقدها الجسم بعد العطش الطويل فإنّ كثافة دمه لا تتأثر إلا في أدنى الحدود ومن ثم لا يقضي العطش عليه. وقد ثبت أن دهن السنام مخزن للطاقة يكفيه غوائل الجوع، ولكنه لا يفيده كثيراً في تدبير الماء اللازم لجسمه.

وما زال العلماء يجدون في الجمل كلما بحثوا مصداقاً لحض الله تعالى لهم على النظر في خلقه المعجز. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أفلا ينظرون أيضاً إلى السماء التي يشاهدونها دائماً ليل نهار ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي بما فيها من الكواكب رفعت هذا الرفع العظيم بدون عمد، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] وكواكبها تسير بنظام دقيق لا يتغير وقد أمسك كل منها مداره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ أي أفلا ينظرون أيضاً إلى الجبال كيف أقيمت منتصبة ثابتة لا تتحرك حفاظاً على الأرض من الميدان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ أي أفلا ينظرون أيضاً إلى الأرض كيف بُسطت ومُهِّدت بحيث يستقر عليها كل شيء.

والخلاصة أن الله تعالى أمرهم أن ينظروا نظر اعتبار في كيفية خلق هذه المخلوقات المشاهدة لهم والدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته التامة على إعادتهم أحياء بعد الموت، فيسمعوا ويطيعوا ويؤمنوا.

قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر الله تعالى هذه الأربعة: الإبل والسماء والأرض والجبال، وخصها بالذكر من بين سائر الأشياء لأن الأعرابي إذا ركب بعيره وخرج إلى البرية، فلا يرى إلا بعيره الذي هو راكبه والسماء التي فوقه والأرض التي تحته والجبال التي هي نصب عينه.اهـ.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى

﴿ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ وكانت الإبل عيشاً من عيش العرب وخولاً من خولهم ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ قال: تصعد إلى الجبل الصخور عامة يومك، فإذا أفضت إلى أعلاه أفضت إلى عيون منفجرة وأثمار متهدلة لم تغرسه الأيدي ولم تعمله الناس نعمة من الله إلى أجل ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ أي بسطت يقول: إن الذي خلق هذا قادر على أن يخلق في الجنة ما أراد. اهـ.

وبعد أن بيّن الله تعالى من آياته هذه الآيات الأربع: الإبل والسماء والجبال والأرض، وأن لو نظر فيها أولئك نظر اعتبار لاهتدوا إلى الحق، وعرفوا أن الخالق لكل شيء لا يعجزه بعث عباده وجزاؤهم، أمر رسوله محمد ﷺ بتذكير الناس ودعوتهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأخبره الله تعالى أن مهمته التبليغ والوعظ والتذكير، وسَوْق الحجج، أما الهداية فبيد الله تعالى، فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أُرسلت به إليهم، ولا تذهب نفسك حسرات عليهم أن لا يؤمنوا، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي ما أنت بمتسلط تقهرهم على الإيمان، إنما السلطان والسيطرة لله تعالى، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: ٤٥] وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ الاستثناء منقطع، أي لكن مَنْ أعرض عن الإيمان، واستكبر ولم يقبل الحق الذي جاء به الرسول ﷺ فيعذبه الله العذاب الذي ليس فوقه عذاب، وقيل: إن العذاب الأصغر ما نالهم في الدنيا من الجوع والقحط والقتل والأسر، وكل ذلك عذاب أصغر إذا قيس بعذاب الآخرة. فلذلك قال ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ لأن قبله عذاب أصغر، والله أعلم، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث إلينا وحدنا لا لغيرنا ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وفي الآية وعد

للمؤمنين ووعيد للكافرين، لأن الله تعالى سيجازي كلاً بعمله، ولا يظلم ربك أحداً، فما أسعد الأتقياء، وما أتعس الأشقياء، فنسأل الله تعالى الحساب اليسير، ونعوذ به من الحساب العسير، وأُذَكِّر نفسي وإخواني المسلمين بالدعاء النبوي الشريف الذي يستحب أن يقال عند النوم وهو قوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من كرب يوم القيامة ومن سوء الحساب**»[1].

أخرج النسائي عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه فطوّل، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جئت أصلي فطوّل عليّ، فانصرفت فصليت في ناحية المسجد فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «**أفتّان أنت يا معاذ؟ أين أنت من** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾».

(١) تقدم.



مكية وآياتها ثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ[1] ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ[2] ٤
هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧
ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ[3] ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي
ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ
سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾.

بدأت هذه السورة بإقسامات تناولت بعض الظواهر المشاهدة على أن الكفار سيعذبون كما عذب غيرهم من الأمم السابقة المكذبة لرسل الله تعالى، كقوم عاد وثمود وقوم فرعون، وبينت سنن الله تعالى في ابتلاء العباد بالخير والشر، وأن عطاءه أو إمساكه لا يدل على رضاه أو سخطه كما يظن المشركون أن ما هم فيه من كثرة الحطام علامة إلى إكرامهم، وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على إهانتهم، لا ليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، أما الآخرة وما فيها من النعيم فلا يعطيها إلا لمن أحب، وبينت شح الكافرين وحرصهم الشديد على

---

(١) ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر الواو وقرأ الباقون بفتحها.

(٢) ﴿يَسۡرِ﴾ أثبت ياءه وصلاً نافع وأبو جعفر والبصري، وأثبتها في الحالين ابن كثير المكي ويعقوب، وحذفها الباقون مطلقاً.

(٣) ﴿بِٱلۡوَادِ﴾ أثبت الياء وصلاً ورش، وفي الحالين البزي ويعقوب، أما قنبل فأثبتها وصلاً ورُوي عنه الوجهان وقفاً، وحذفها الباقون مطلقاً.

الحطام الفاني، ثم خُتمت السورة ببيان انقسام الناس يوم القيامة إلى قسمين: أشقياء يتمنون أن لو قدموا من الصالحات ما ينجيهم عندما عاينوا أهوال يوم القيامة، وسعداء نفوسهم مطمئنة فرحة مسرورة بما قدمت من أعمال صالحة، حيث تُدعى كل نفس منهم إلى دخول الجنة في زمرة عباد الله الصالحين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ في هذه الآيات أقسم الله تعالى بخمسة أشياء هي: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ وهو ضوء الصبح عند مطاردته ظلمة الليل، ويترتب عل طلوع الفجر أحكاماً شرعية مهمة، مثل؛ إمساك الصائم، ودخول وقت صلاة الصبح، وبعده ينتهي الليل ويبدأ النهار الذي تنتشر فيه المخلوقات لطلب الرزق؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ قيل: هي عشر ذي الحجة، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج، وروى البخاري مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»** قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: **«ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»**.

وقيل: المراد بها العشر الأواخر من رمضان، أي لياليها، لأن فيها ليلة القدر كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ٣] وصح عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل العشر الأخيرة من رمضان شدَّ مِئْزره وأحيا ليله وأيقظ أهله. وأياً كانت، فهي عشر مفضلة عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ الشفع: هو الزوج من كل شيء، والوتر: هو الفرد من كل شيء. وقيل: المراد بالشفع هنا هو كل الخلق لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ومن ذلك السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، والمراد بالوتر الله ﷻ كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحد، مَنْ أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»** والقسم هنا يشمل كل شيء من شفع ووتر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ أي والليل إذا ذهب وانقضى كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر: ٣٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾ [التكوير: ١٧] والسُّرى: هو السير في الليل، والليل دائب في السريان، وفي تعاقب الليل والنهار نعم عظيمة لا حصر لها، فالتقيد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة، وكم في الليل من النعم الدينية والدنيوية، ففيه صلاة المغرب والعشاء، وصلاة التهجد وصلاة الوتر وغير ذلك، وإجابة الدعاء كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كُلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يسألني فأعطيه، مَنْ يستغفرني فأغفر له؟**».

وفي الليل راحة الأبدان بالنوم، وغير ذلك، فأقسم الله تعالى به من جملة ما أقسم به من آيات الدلالة على قدرته التامة ﷻ، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما نحن فليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذُكر ﴿قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ لذي عقل، والمعنى: أليس في هذا الذي أقسمنا به ما يقنع مَنْ له عقل! والاستفهام تقريري لفخامة شأن الأمور المقسم بها، وجواب القسم محذوف تقديره: لَيُبْعَثُنَّ، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ الاستفهام تقريري، والمخاطب النبي ﷺ، وهو مقتضى التعريض بالمشركين ليعتبروا بما حلّ بقوم عاد، وفيه وعد للنبي ﷺ بنصره وظهور الإسلام والرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ قلبية أو علمية بمعنى: ألم ينته إلى علمك فعل ربك بعاد وغيرهم ممن ذُكر.

وعاد قبيلة معروفة في جنوب جزيرة العرب، أرسل الله تعالى إليهم هوداً عليه السلام، فبلغهم الرسالة، ولكنهم كذبوا وتكبروا، وقالوا: من أشد منا قوة، فأهلكهم الله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت: ١٥،

١٦] فسلط الله عليهم الريح العقيم، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، وقد كان في أجسامهم شدة وقوة وطول، ولهم أبنية رفيعة، فلم يحمدوا الله تعالى على ذلك وغيره من النعم، ولم يقبلوا رسالته فيؤمنوا ويصدقوا، بل كفروا وكذبوا، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وما قصَّ الله تعالى علينا هذا وغيره إلا للاعتبار من زمن التنزيل إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ أي في العظم والبطش والأيدي قيل: كانوا أشد الناس في زمانهم وأقواهم بطشاً، لقد ذكّرهم الله تعالى بذلك على لسان نبيهم هود ﵇ في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وورد في ذكر ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ عجائب وأقوال كثيرة، سأورد فيها قول إمامين من أئمة الإسلام هما ابن كثير وابن خلدون رحمهما الله.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٠٧، ٥٠٨): ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ مدينة إما دمشق أو إسكندرية، ففيه نظر. فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا، إن جعل ﴿إِرَمَ﴾ بدلاً أو عطف بيان؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذٍ. ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم.

قال: وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾، مبنية بلبن الذهب والفضة... إلخ. فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس؛ إن صدقهم في جميع ذلك. وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابي ليس يصح إسنادها ولو صح إلى ذلك الأعرابي، فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع

بعدم صحته. وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير. لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها. فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء. فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيانات، ويطنزون بهم. والله ﷻ الهادي للصواب. انتهى.

وقال ابن خلدون في مقدمة[1] تاريخه في سياق الأخبار الواهية للمؤرخين ما مثاله وأبعد من ذلك ما يتناقله المفسرون في سورة الفجر، في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ فيجعلون لفظه ﴿إِرَمَ﴾ اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد، أي أساطين، وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان، هما شديد وشداد، ملكا من بعده، وهلك شديد فخلص الملك لشداد، ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال: لأبنينَّ مثلها. فبنى مدينة (إرم) في صحاري عدن في مدة ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة. ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته. حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم. ذكر ذلك الطبريَ والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين.

وينقلون عن عبد الله بن قلابة، من الصحابة، أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه. وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه. فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال: هي ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له. ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا، والله، ذاك الرجل.

قال ابن خلدون أيضاً: وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذٍ في

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٢٣).

شيء من بقاع الأرض. وصحاري عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقباً. والأدلاء تقص طرقه من كل وجه. ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم، ولو قالوا: إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه، إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة. وبعضهم يقول: إنها دمشق، بناء على أن قوم عاد ملكوها. وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر. مزاعم كلها أشبه بالخرافات. والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أنها صفة ﴿إِرَمَ﴾ وحملوا العماد على الأساطين، فتعين أن يكون بناء. ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين. ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات. وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام. وإن أريد بها الأساطين، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم، بما اشتهر من قوتهم، لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها. وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير، على إضافة الفصيلة إلى القبيلة، كما تقول: قريش كنانة وإلياس مضر، وربيعة نزار. وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة؟. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ﴾ وهم أصحاب الحجر قوم صالح عليه السلام، وبلادهم تسمّى مدائن صالح شمال المدينة النبوية، ولقد مَرَّ عليها النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك وأسرع وقنع رأسه ﷺ وقال: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» [رواه البخاري].

﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي قصعوا الصخر من الجبال، واتخذوا فيها بيوتاً بوادي القرى، والمعنى: أي وذكِّر أيضاً بعذاب الله تعالى الذي حلّ بثمود قوم صالح عليه السلام الذين قطعوا الصخور وأخذوا من الجبال بيوتاً نحتوها، حيث أقدرهم الله تعالى على ذلك ليشكروا نعمه ويؤمنوا به وبرسوله فيوحدوا الله تعالى ويتركوا الأوثان، ولكنهم أعرضوا عن الهدى الذي جاءهم

من ربهم، وأنكروا على نبيهم دعوتهم إلى توحيد الله تعالى ونبذ الأوثان، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقصصهم كثير في القرآن للاعتبار وغيرهم من الأمم السابقة المكذبة لرسل الله تعالى كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ هو الطاغية الكافر المدعي ما ليس له، والذي أرسل الله تعالى إليه موسى عليه السلام، وكان قد استذل بني إسرائيل في مصر يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وسبب فعله القبيح هذا أن كهنته قالوا له: إنه سيولد في بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده، فصار يقتل كل مولود ذكر ويترك الإناث، أو أنه إنما فعل ذلك بقصد إضعاف بني إسرائيل لأن في قتل الرجال واستبقاء النساء إذلالاً لمن يُفْعل بهم ذلك وأياً كان السبب فقد أُتي من حيث يحذر إذ جعل الله هلاكه على يد رجل تربى في بيته.

وقد كان فرعون قد تجاوز الحد في الطغيان والفساد حتى إنه تجرأ على ما ليس له ولا لأحد من الخلق، فقال لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] ونهاهم عن اتباع موسى عليه السلام فقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢] ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤] فأهلكه الله تعالى بالغرق في المياه التي كان يدّعي ملكها وأنها تجري من تحته كما قال الله تعالى حكاية عنه قوله لقومه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١] فأهلكه الله تعالى بالغرق.

ومعنى ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي ذي القوة، لأنه صاحب جند وجيوش وجموع

تشدّ ملكه، أو هي أوتاد يشدّ بها مَنْ يعذبه، ونورد فيها هذا الأثر عن ابن عباس: إن فرعون إنما سُمّي ذا الأوتاد لأنه كانت له امرأة، وهي امرأة خازنة خزقيل، وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة، وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس مَن كفر بالله، فقالت بنت فرعون: وهل لك من إله غير أبي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له، فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي، فقال: ما يُبكيك؟ قالت: الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلٰهك وإلهها وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت، فقال لها: ويحك اكفري بإلٰهك وأقرّي بأني إلٓهك، قالت: لا أفعل فمدّها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيّات والعقارب، وقال لها: اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين، فقالت له: ولو عذّبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله، وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على قلبها، وقال لها: اكفري بالله وإلّا ذبحت الصغرى على فِيْك، وكانت رضيعاً، فقالت: لو ذبحت مَن على وجه الأرض على فِيّ ما كفرت بالله ﷻ، فأتى بابنتها الصغرى فلما اضطجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً، فقالت: يا أُمّاه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، اصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته، فذبحت فلم تلبث أن ماتت فأسكنها الله الجنة.

قال: وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه، فقيل لفرعون: إنه قد رُؤِيَ في موضع كذا في جبل كذا، فبعث رجلين في طلبه فانتهيا إليه وهو يصلّي ويليه صفوف من الوحش خلفه يصلّون، فلما رأيا ذلك انصرفا، فقال حزقيل: اللهمَّ إنك تعلم أني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر على أحد فأيّما هذان الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤله، وأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجّل عقوبته في الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار، فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن، وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ، فقال له فرعون: وهل كان معك

غيرك؟ قال: نعم فلان، فدعا به فقال: أحقٌّ ما يقول هذا؟ قال: لا ما رأيت مما قال شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله، ثم صلبه، قال: وكان فرعون قد تزوج امرأة من نساء بني إسرائيل يقال لها: آسية بنت مُزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة، فقالت: وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وهو كافر؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها، فقالت: يا فرعون أنت أشرّ الخلق وأخبثهم عمدت إلى الماشطة فقتلتها، قال: فلعلّ بك الجنون الذي كان بها قالت: ما بي من جنون، وإن إلٰهي وإلٰهك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له، فمزّق عليها ثيابها وضربها وأرسل إلى أبويها فدعاهما، فقال لهما: ألا تريان أن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها، قالت: أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربّي وربّك وربّ السموات والأرض واحد لا شريك له، فقال أبوها: يا آسية ألستِ من خير نساء العماليق وزوجك إله العماليق؟ قالت: أعوذ بالله من ذلك، إن كان ما يقول حقاً فقولا له أن يتوّجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله، فقال لهما فرعون: اخرجا عنّي، فمدّها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهوّن عليها ما يصنع بها فرعون، فعند ذلك قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، فقبض الله روحها وأسكنها الجنة. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾ أي تجاوزوا الحد، واعتدوا على عباد الله تعالى وهم المذكورون عاد وثمود وفرعون ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي الشرك والمعاصي وسائر الآثام ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ أي أنزل الله عليهم عذابه، وأحلّ بهم نقمته بما طغوا في البلاد وأفسدوا فيها، وقد بيّن الله تعالى نوع عذاب وهلاك كلٍّ منهم مفصلاً في القرآن، وإجمالاً فقد أهلك عاد بالريح العقيم، وثمود بالصيحة، وفرعون وجنوده بالغرق، كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ أي إنه ﷻ رقيب على أعمال العباد، يحصيها عليهم ويجازيهم بها، قال ابن عباس: يعني بحيث يرى ويسمع ويبصر ما تقول وتفعل وتهجس به العباد.اهـ. ولفظ المرصاد يطلق على مكان يرصد فيه شيء معين يُستفاد من وراء معرفته، أو ليعرف ما يحدث عن كثب.

والحاصل أن الآيات تفيد أن الله تعالى لا يفوته شيء، ولا يخرج عن إرادته شيء، وأن أولئك الطغاة، وهم الثلاثة الذين ذُكروا: عاد وثمود والفراعنة كان الله لهم بالمرصاد، وأذاقهم أليم عذابه وشديد عقابه، ففي ذلك إنذار لكل ظالم طاغ متكبر، أنه سيحلّ به ما حلّ بهم من العذاب، وفيها تسلية للنبي ﷺ مما يواجه من تكذيب قومه له، وأن العاقبة للمتقين.

أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل بن سليمان قال: أقسم الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ يعني الصراط، وذلك أن جسر جهنم عليه سبع قناطر على كل قنطرة ملائكة قيام وجوههم مثل الجمر، وأعينهم مثل البرق، يسألون الناس في أول قنطرة عن الإيمان، وفي الثانية يسألونهم عن الصلوات الخمس، وفي الثالثة يسألونهم عن الزكاة، وفي الرابعة يسألونهم عن شهر رمضان، وفي الخامسة يسألونهم على الحج، وفي السادسة يسألونهم عن العمرة، وفي السابعة يسألونهم عن المظالم فمن أتى بما سئل عنه كما أمر جاز على الصراط، وإلا حبس، فذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

ومن ثم يُفخَّم الراء في ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ عند جميع القراء، لوجود حرف الاستعلاء (الصاد) بعد الراء الساكنة المسبوقة بكسر أصلي، إذ القاعدة في الراء أنها إذا سكنت بعد كسر أصلي تُرقّق، ولكن منع منه حرف الاستعلاء هنا لأنه معه في نفس الكلمة وغير مكسور.

قال الحافظ ابن الجزري رحمه الله في المقدمة:

ورقق الراء إذ ما كسرت كذاك بعد الكسر حيث سكنت
إن لم تكن من قبل حرف استعلا أو كانت الكسرة ليست أصلاً

❖ ❖ ❖

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا
مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ(١) عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ(٢) ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾
وَلَا تَحَٰٓضُّونَ(٣) عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ(٤) ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ(٥) ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

تقرر هذه الآيات أن ترادف النعم على إنسان من صحة وجاه ومال ليس دليلاً على رضا الله عنه، كما أن التضييق عليه في الرزق ليس دليلاً على سخط الله عليه، ولكن في ذلك اختبار للطرفين، حيث يبتلي من يشاء بالنعم ليشكر، ويبتلي من يشاء بالتضييق ليصبر، ثم زجر عن هذا الاعتقاد الباطل وذم فعالهم كما في الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي اختبره بالغنى واليسار ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي فضلني بما وسَّع علي وأعطاني لما لي عنده من الكرامة ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي اختبره بالفقر وضيق عليه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي أذلني بالفقر، وذلك لسوء فكره، وقصور نظره في الحالين، وكان الواجب على الإنسان أن يشكر على الخير ويصبر على الشر، لأن أحواله دائرة بينهما، وكله ابتلاء من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فالمطلوب الشكر عند النعماء والصبر على البلاء، لتظهر فائدة الابتلاء شكراً أو صبراً، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة.

---

(١) ﴿فَقَدَرَ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر بتشديد الدال، وقرأ الباقون بتخفيفها. وهما لغتان بمعنى واحد وهو التضييق.

(٢) (٣) (٤) (٥) ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ... وَلَا تَحَٰٓضُّونَ ... وَتَأْكُلُونَ ... وَتُحِبُّونَ﴾: قرأ أبو عمرو، ويعقوب بخلفٍ عن روح بياء الغيب في الأفعال الأربعة حملاً على معنى الإنسان في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لأن المراد به الجنس، وقرأ الباقون بتاء الخطاب في الجميع على الالتفات، وهو الوجه الثاني لروح.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف العاشر، بفتح الحاء وإثبات ألف بعدها، على حذف إحدى التاءين تخفيفاً، لأن الأصل (تتحاضون). وقرأ الباقون بضم الحاء وحذف الألف التي بعدها مضارع «حض يحض».

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع للقوم عن اعتقادهم الخاطئ في حاليه، أي ليس الإكرام بالغنى والإهانة بالفقر كما يظنون، بل إن ذلك حسب مشيئة الله وتقديره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٦ ـ ٣٧] وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ أي أنتم إذا أكرمكم الله تعالى بالمال لا تحسنون لمن يستحق، وهم جنس اليتامى، ومفرده: يتيم، وهو مَنْ مات أبوه قبل بلوغه، أي فَقَدَ كافله ومربيه، فحينئذٍ يتحتم على المسلمين كفالته وتربيته وتأديبه، لئلا يصبح عضواً فاسداً في المجتمع يضر نفسه وغيره، وبذلك أمر الكتاب والسنة كما يلي:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد: ١١ ـ ١٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «**مَن قبض يتيماً من بين**

المسلمين إلى طعامه وشرابه، أدخله الله الجنة البتة، إلَّا أن يعمل ذنباً لا يُغفر» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وروي عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله، وصام نهاره، وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله، وكنت أنا وهو في الجنة إخواناً كما أنَّ هاتين أختان»** وألصق إصبعيه السبابة والوسطى. رواه ابن ماجه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً شكا إلى النبيّ ﷺ قسوةً في قلبه، فقال له: **«امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين»** [رواه أحمد].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»** وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما. [رواه البخاري].

وروى الحاكم وصححه: **«أربعة حقّ على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حقّ، والعاقّ لوالديه»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: **«الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحق، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»** [رواه البخاري ومسلم].

وفي حديث المعراج: **«فإذا أنا برجال قد وكل بهم رجال يفكّون لحاهم، وآخرون يجيئون بالصخور من النار، فيقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم، فقلت: يا جبريل، مَن هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً»** [رواه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ أي لا يحض بعضكم بعضاً عليه، وإذا كان كذلك فهو لا يفعله بنفسه، وفي ذم مَنْ لا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين أمر بالإكرام والحض والفعل، ففي ذلك يتحقق التعاون على البر والتقوى، الذي هو أساس رقي الأمم، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي أكلاً شديداً، فيأخذ نصيبه ونصيب غيره، فقد كانوا في الجاهلية لا يورِّثون النساء والصبيان كما تقدم في سورة النساء مفصلاً. وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي كثيراً. مع شدة الحرص عليه.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ[1] عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ[2] وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قوله ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر لهم عن أقوالهم وأفعالهم من أن النعمة كرامة، والفقر إهانة، والانهماك في جمع الحطام الفاني ومنع حقوق العباد في المال كاليتامى والمساكين وغيرهم، فهذا فعل مَنْ لا يرجو ثواب الله تعالى في الدار الآخرة وقصر همه على الدنيا، فكأن المعنى ـ والله أعلم ـ: حقاً إنهم غافلون عما يستقبلهم بعد الموت، ألا فتنبهوا واستعدوا فإن أمامكم أهوال عظيمة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي كُسِّرت الأرض ودُقّت وفتت جبالها حتى تصير هباء منبثاً، وتسوى الأرض حتى تصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتمد كما يمد الأديم، فيكون الناس عليها في مكان واحد، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيجب أن تتذكروا هذا اليوم، وتستعدوا له، فإنه يوم عظيم شديد الهول، يتقرر بعده مصير الإنسان من سعادة أو شقاء.

ثم أخذت الآيات تصف أحوال ذلك اليوم فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، مجيء يليق بجلاله وعظمته، نؤمن به بلا تكييف ولا تمثيل لأنه ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا المجيء هو مجيئه ﷻ لأن الفعل أسند إلى الله، وكل فعل يسند إلى الله فهو قائم به لا

---

(١) (٢) ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾، ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ قرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال والثاء وقرأ الباقون بكسرهما.

بغيره، هذه القاعدة في اللغة العربية، والقاعدة في أسماء الله وصفاته كل ما أسنده الله إلى نفسه فهو له نفسه لا لغيره، وعلى هذا فالذي يأتي هو الله ﷻ، وليس كما حرفه أهل التعطيل حيث قالوا: إنه جاء أمر الله، فإن هذا إخراج للكلام عن ظاهره بلا دليل، فنحن من عقيدتنا أن نجري كلام الله تعالى، ورسوله ﷺ على ظاهره وأن لا نحرف فيه. ونقول: إن الله تعالى يجيء يوم القيامة هو نفسه، ولكن كيف هذا المجيء؟ هذا هو الذي لا علم لنا به، لا ندري كيف يجيء؟ والسؤال عن مثل هذا بدعة كما قال الإمام مالك رحمه الله حين سُئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ـ يعني العرق ـ لشدة هذا السؤال على قلبه، لأنه سؤال عظيم سؤال متنطع، سؤال متعنت أو مبتدع يريد السوء، ثم رفع رأسه وقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، الشاهد الكلمة الأخيرة ـ السؤال عنه بدعة ـ.

واعتبر هذا في جميع صفات الله فلو سألنا سائل قال: إن الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]. يعني آدم، كيف خلقه بيده؟ نقول: هذا السؤال بدعة، قال: أنا أريد العلم ولا أحب أن يخفى علي شيء من صفات ربي فأريد أن أعلم كيف خلقه؟ نقول: نحن نسألك أسئلة سهلة هل أنت أحرص على العلم من الصحابة رضي الله عنهم؟ إما أن يقول: نعم، وإما أن يقول: لا، والمتوقع أن يقول: لا. هل الذي وجهت إليه السؤال أعلم بكيفية صفات الله ﷻ أم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ سيقول: الرسول، إذاً الصحابة أحرص منك على العلم والمسؤول الذي يوجه إليه السؤال أعلم من الذي تسأله ومع ذلك ما سألوا؛ لأنهم يلتزمون الأدب مع الله ﷻ، ويقولون بقلوبهم وربما بألسنتهم إن الله أجل وأعظم من أن تحيط أفهامنا وعقولنا بكيفات صفاته، والله ﷻ يقول في كتابه في الأمور المعقولة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]. وفي الأمور المحسوسة: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فنقول: يا أخي إلزم الأدب، لا تسأل: كيف خلق الله آدم بيده؟ فإن هذا السؤال بدعة، وكذلك بقية الصفات لو سأل: كيف عين الله ﷻ؟ قلنا له: هذا

بدعة، لو سأل: كيف يد الله ﷻ، قلنا: هذا بدعة وعليك أن تلزم الأدب، وأن لا تسأل عن كيفية صفات الله ﷻ. لما قال هنا في الآية الكريمة: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وسأل: كيف يجيء؟ نقول: هذا بدعة ـ هذه القاعدة التزموها ـ وكل إنسان يسأل عن كيفية صفات الله فهو مبتدع متنطع، سائل عما لا يمكن الوصول إليه، فموقفنا من مثل هذه الآية ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أن نؤمن بأن الله يجيء لكن على أي كيفية؟ الله أعلم. والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنحن نعلم النفي ولا نعلم الإثبات، يعني نعلم أنه لا يمكن أن يأتي على كيفية إتيان البشر، ولكننا لا نثبت كيفيته، وهذا هو الواجب علينا. انتهى من «تفسير ابن عثيمين» جزء عم (٢٠٥).

وقال ابن تيمية رحمه الله: واعلم أن من المتأخرين من يقول: إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، وهذا لفظ مجمل. فإن قوله: (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين. مثل أن يراد بكون الله قِبلَ وجه المصلِّي، أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا، ونحو ذلك. فلا شك أن هذا غير مراد، ومن قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد، فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث. فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضع. اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار، معذوراً في هذا الإطلاق. فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النسبية. انتهى. من «مجموع الفتاوى» (٥/١٠٨).

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك في «الرسالة المدنية»: وأوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه ويتبع فيه مثاله. فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية.

وقال رحمه الله في بعض «فتاويه»[1]: نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٨١ ـ ٤٨٥).

وبالتأويل الجاري على نهج السبيل. ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل، والله عند لسان كل قائل، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب، وما فتح به الباب، إلى هدم السنة والكتاب واللحاق بمحرفة أهل الكتاب. المنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه؛ أن القرآن مشتمل على المجاز. ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة. وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم، كأبي بكر بن أبي داود، وأبي الحسن الخرزي، وأبي الفضل التميمي، وابن حامد فيما أظن وغيرهم، إلى إنكار أن يكون في القرآن مجاز. وإنما دعاهم إلى ذلك ما رَأَوْهُ من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز. فقابلوا الضلال والفساد، بحسم المواد، وخيار الأمور التوسط والاقتصاد. انتهى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قام الخلائق من قبورهم لربهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون بسيد ولد آدم ﷺ، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً.اهـ[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ الملك اسم جنس والمراد به عموم الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فتنزل الملائكة فيصطفون صفاً بعد صف، فيحيطون بالخلق في ساحات العرض والحساب.

ومما نُقل[2] عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن الخلائق إذا جمعوا في صعيد واحد، الأولين والآخرين، أمر الجليل جَلَّ جَلَالُهُ بملائكة سماء الدنيا أن يتولوهم، فيأخذ كل واحد منهم إنساناً وشخصاً من المبعوثين، إنساً وجناً ووحشاً وطيراً، وحولوهم إلى الأرض الثانية، أي التي تبدل، وهي أرض بيضاء من فضة نورانية، وصارت الملائكة من وراء الخلق حلقة واحدة، فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات، ثم إن الله تعالى يأمر ملائكة السماء الثانية، فيحدقون بهم حلقة واحدة، وإذا هم مثلهم عشرين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة، فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم ثلاثين

(١) تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥).
(٢) حاشية الصاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/ ٤٢٢).

ضعفاً، ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة، فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة، فيكونون أكثر منهم بأربعين ضعفاً، ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة، فيحدقون من ورائهم حلقة واحدة، فيكونون مثلهم خمسين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء السادسة، فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة، وهم مثلهم ستين مرة، ثم تنزل ملائكة السماء السابعة، فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة، وهم مثلهم سبعين مرة، والخلق تتداخل وتندمج، حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام، ويخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة، إلى الأذقان وإلى الصدور وإلى الحقوين وإلى الركبتين، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد في الحمام، ومنهم من تصيبه البلة، بكسر الموحدة وتشديد اللام، كالعاطش إذا شرب الماء، وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق، وقد قربت الشمس من رؤوسهم، حتى لو مد أحدهم يده لنالها، وتضاعف حرها سبعين مرة، وقال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة، لاحترقت الأرض وذاب الصخر وانشقت الأنهار، فبينما الخلائق يمرجون في تلك الأرض البيضاء التي ذكرها الله حيث يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ إذ جيء بجهنم... إلخ. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي أحضرت جهنم وأبرزت ليراها الناس يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٦]، وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**».

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تفريطه في الدنيا في طاعة الله تعالى وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى وقد ذهب ميدان العمل، فيقول متحسراً كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ أي يقول ذلك نادماً متحسراً متمنياً لو أنه قدم عملاً صالحاً ينفعه في آخرته، إذْ إنَّ الحياة الحقيقية هي حياة الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤] يعني حياة الدار الآخرة هي الحياة التامة.

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي ولا يقيد أحد كقيده.

والوثاق هو الشد والربط بالسلاسل والأغلال، وهذا هو حال أهل الشرك والكفر والإجرام، أما الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر وعملوا الصالحات وصفت نفوسهم واطمأنت، وعبدوا الله حتى أتاهم اليقين، فينادون بهذا النداء المحبب للنفوس: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ أي المؤمنة الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ أي ارجعي إلى رضوان ربك راضية بما أعطاك الله من النعيم مرضية عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾ أي في جملة عبادي الصالحين ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ أي معهم في دار النعيم المقيم، والإضافة للتشريف، وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ الآية، قال: بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف، فجاء طير لم تر عين خلقته، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدي من تلاها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق ثابت بن عجلان عن سليم بن أبي عامر رضي الله عنه قال: سمعت أبا بكر الصديق يقول: قرئت عند رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ فقلت: ما أحسن هذا يا رسول الله، فقال: «**يا أبا بكر أما إن الملك سيقولها لك عند الموت**».



مكية وآياتها عشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢) وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدۡ
خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ (٥) يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا
لُّبَدًا(١) (٦) أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ
(٩) وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ (١٠) فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ
(١٣) أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ (١٤) يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ (١٥) أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ (١٦)
ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ (١٧) أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)﴾.

هذه السورة تتضمن القسم على أن الإنسان في كبد، وأن المغرور يظن أن لن يقدر عليه أحد، ثم بيان بعض نعم الله تعالى على الإنسان، ثم دعوته لاقتحام العقبة وأنها إنما تقتحم بالأعمال الصالحة المتعدية النفع للغير، ثم بيان حال أصحاب الميمنة وحال أصحاب المشأمة.

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢)﴾: يقسم الله تعالى بمكة المكرمة تعظيماً لها وتشريفاً لأنها أفضل البلدان على الإطلاق خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها. أو إشارة إلى تحليلها له يوم الفتح ساعة من نهار كما في الحديث الصحيح.

---

(١) ﴿لِّبَدًا﴾ قرأ أبو جعفر بتشديد الباء وقرأ الباقون بتخفيفها.

وقوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ فيقصد به آدم وذريته.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ هذا هو المقسم عليه، قد يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده الإنسان ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

وعلى ذلك يجب على المسلم الحريص على سعادته أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد. ويوجب له الفرح والسرور الدائم بعد أن يرحل عن الدنيا ويواجه مصيره الحتمي.

فأين أنت يا ابن آدم من هذا؟ وفيمَ الغفلة؟

إن من يطلبه الموت وهو موقن أنه سيموت لا يغفل عن ذلك بل تجده على حذر تام، والقلب الحي تكفيه أقل المواعظ.

فالإنسان إذا قصّر في حق نفسه ولم يسع في كسب الأعمال الخيِّرة التي تريحه من شدائد يوم الحساب فإنه سيبقى يكابد العذاب الشديد هناك في الدار الآخرة.

وقد يحتمل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤] أي قدّره على التصرف في الأعمال الشديدة.

وإذا كان كذلك فعلى الإنسان أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة.

فلا يضع هذه القدرة والقوة التي أعطاه الله إياها في غير موضعها، بل يجعلها في طاعة الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾ أي أيظن ذلك الإنسان المغتر بقوته وماله أن لا يقدر عليه أحد فيهما، ونسي أن المسيطر على كل شيء، والذي بيده كل شيء. والمتصرف الأواحد في كل شيء، هو الله وحده فيتشدق ذلك الإنسان المغرور ويتباهى بكثرة الإنفاق في المعاصي فيقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي مالاً كثيراً.

وسمّى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً لأن المنفق لا

ينتفع بما أنفق في غير طاعة الله ولأن الذي ينفق ماله في المعاصي لا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسارة والتعب والقلة.

أما الذي ينفق أمواله في مرضاة الله تعالى في أوجه الخير فإنه قد تاجر مع الله تعالى تجارة رابحة، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال تعالى متوعداً الذي أنفق ماله في الشهوات وافتخر بذلك: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ أي أظن أن الله لا يراه ولا يحاسبه على الصغيرة والكبيرة، بل إن الله تعالى قد رآه، وحفظ عليه أعماله، وسيرى كل إنسان ما عمله من خير وشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم أخذ تعالى يعدد بعض نعمه على بني آدم، وما أكثرها، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية، فهذه نعم الدنيا.

ثم قال في نِعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أي طريقَي الخير والشر بيَّنَّا له الهدى من الضلال والرشد من الغي، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣].

فهذه المنن العظيمة والنعم الجسيمة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله تعالى ويشكره على نعمه، وأن لا يستعين بنعم الله تعالى عليه على معاصي الله. وغاية الجحود أن يُعصى الله تعالى بنعمه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى: يا ابن آدم قد أنعمت عليك نعماً عظاماً لا تحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما وجعلت لهما غطاءً فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ما حرّمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما، وجعلت لك لساناً وجعلت له غلافاً. فانطق بما أمرتك وأحللت لك. فإن عرض لك ما حرّمت عليك فأمسك عليك لسانك. وجعلت**

لك فرجاً وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللت لك، فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأرخِ عليك سترك، ابن آدم إنك لا تحمل سخطي، ولا تطيق انتقامي».

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ والعقبة الطريق الوعر في الجبل الذي يصعب سلوكه وعبر بها هنا عن مجاهدة النفس والهوى ودواعيه.

والمعنى: هلا جاهد الإنسان نفسه، وجاهد الشيطان وعمل أعمال البر، ليجتاز الشدائد ويسعد في الدار الآخرة.

ثم فسرها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ أي فكها من الرق أو المساعدة في فكها من الأسر من عند الكفار.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ أي مجاعة شديدة بأن يطعم وقت الحاجة ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ جامعاً بين كونه يتيماً وفقيراً ذا قرابة، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة**» [رواه الترمذي والنسائي].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ولا وسيلة له إلى كسب المال لضعفه وعجزه، فكل هذه الأعمال الجليلة: فك رقبة، وإطعام المساكين والأيتام في يوم الحاجة وشدة فقرهم هي الزاد لاجتياز تلك العقبة الكؤد التي منها يخلص المجتاز إلى دار النعيم بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هذا كل قول أو فعل واجب أو مستحب، قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]، ولعل فيه إشارة إلى أنهم عملوا الصالحات المذكورة مع الإيمان، إذ لا ينفع العمل بلا إيمان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة، بأن يحث بعضهم بعضاً على الانقياد لذلك والإتيان به كاملاً منشرحاً به الصدر، مطمئنة به النفس ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي بالرحمة بالعباد كما في الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**».

وفي الحديث الآخر: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**».

فعلى المسلم أن يرحم إخوانه المسلمين بكف أذاه عنهم، وإعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه في أوجه الخير، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

هذا معنى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

فالذين اتصفوا بهذه الصفات الطيبة هم الذين وفقهم الله تعالى لاقتحام العقبة.

فهم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ لأنهم أدُّوا ما أمرهم الله به من حقوق له ولعباده، وتركوا ما نهاهم الله عنه. والمعنى أنهم يأخذون كتب أعمالهم بإيمانهم، وهذا عنوان السعادة وعلامتها. والله أعلم.

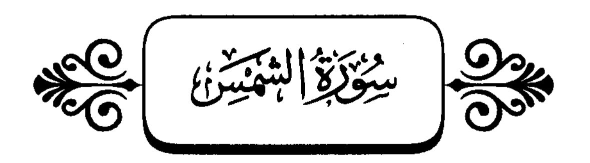
ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، ولا آمنوا به، ولا عملوا صالحاً، ولا رحموا عباد الله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي مغلقة عليهم. قال في الآية الأخرى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: ٩] قد مدّت من ورائها لئلا تنفتح أبوابها حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة دائمين دائبين أبد الآباد.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ حائط لا باب له.

وقال قتاد: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة لا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها أبد الآباد.

وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل مَن كان الناس يخافون شره في الدنيا فأُوثقوا بالحديد ثم أمر بهم إلى جهنم، ثم أوصدوها عليهم، أي أطبقوها، قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً، ولا والله لا يلقى جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَـٰمٌ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر، ويعقوب، خلف العاشر، ﴿فَكُّ﴾ برفع الكاف خبر لمبتدأ محذوف، أي هو فك، ﴿رَقَبَةٍ﴾ بالجر على الإضافة، ﴿إِطْعَامٌ﴾ بكسر الهمزة وألف بعد العين، ورفع الميم منونة معطوف على ﴿فَكُّ﴾ وأو للتخيير. وقرأ الباقون، وهم: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ﴿فَكَّ﴾ بفتح الكاف فعلاً ماضياً، ﴿رَقَبَةً﴾ بالنصب مفعول به، ﴿أطعم﴾ بفتح الهمزة والميم فعلاً ماضياً، وهو معطوف على ﴿فَكَّ﴾.



مكية وآياها خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)﴾.

فهذه آيات بينات محكمات، واضحات، جليات يقسم الله تعالى فيها بسبعة أشياء من مخلوقاته، ولله تعالى أن يقسم بما شاء، أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بغير الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1)﴾ أي نورها ونفعها الصادر منها بإذن الله تعالى، وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2)﴾ أي تبعها في المنازل والنور ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)﴾ أي جلّى ما على وجه الأرض وأوضحه ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)﴾ أي يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً، ففي تعاقب الظلمة والضياء والشمس والقمر على هذا العالم بانتظام، وقيام لمصالح العباد أكبر دليل على سعة علمه تعالى وقدرته الكاملة، وأنه لا معبود بحق إلا الله تعالى.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)﴾، [الحديد: ٢، ٣] ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5)﴾ إن كانت ﴿ما﴾ موصولة فيكون

الإقسام بالسماء وبانيها، وهو الله تعالى، وإن كانت ﴿ما﴾ مصدرية فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية متناهية من الإحكام والإتقان والإحسان ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ أي مدّها ووسّعها، فتمكن الخلق من الانتفاع بها بجميع أوجه الانتفاع ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ أي أن الله تعالى خلقها سوية، مستقيمة على الفطرة السليمة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه...**» الحديث. وعنه ﷺ أنه قال: «**يقول الله ﷻ: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**».

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ قال ابن عباس ﵄: أي يبين لها الخير والشر، وقيل: يبين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها، وفي الحديث أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم به الحجة؟ قال: «**بل شيء قد قضي عليهم**» قال: ففيمَ العمل؟ قال: «**مَن كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها، وتصديق ذلك من كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾**» [رواه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله تعالى وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أي دسسها ووضعها موضع الخذلان بارتكاب المعاصي وترك طاعة الله تعالى، فإن النفس كما يعودها الإنسان تتعود، فإن ألفت الطاعة نفرت من المعاصي.

ويحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح مَنْ زكّى الله نفسَه، وقد خاب من دسّى اللهُ نفسَه.

---

(١) رواه مسلم.

وفي الحديث: «**أفلحت نفسٌ زكّاها الله ﷻ**».

ومن دعا النبي ﷺ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير مَن زكّاها**» فالأمر كله لله أولاً وآخراً، وكل شيء بتقديره سبحانه، ولا يكون إلا ما أراده الله تعالى.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة المباركة بذكر بعض أخبار أمة من الأمم السابقة، وما كان منهم مع رسولهم من التكذيب والإيذاء وما حلّ بهم من الهلاك التام والعذاب الأليم بسبب طغيانهم وتجاوزهم الحدود الشرعية، وكأن فيه إنذار للمكذبين من هذه الأمة وقت التنزيل وبعده أنه سينزل بهم مثل ما نزل بثمود إذ كذبت نبيها فأصابها العذاب في الدنيا والآخرة.

ولقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فأهلك من أهلك من مشركي قريش في وقعة بدر بأيدي المؤمنين، ولم يزل يحل بهم الخزي والعذاب بالقتل وغيره حتى لم يبق في جزيرة العرب مكذب، وكذلك يهود المدينة، سلّط الله عليهم رسوله ﷺ بالقتل والإجلاء وضرب الجزية، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وعمّ التوحيد، ولم يُعبَد غير الله في جزيرة العرب.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ أي بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعصيان رسولهم صالح عليه السلام ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ أي أشقى القبيلة، قبيلة ثمود، وهو قُدار بن سالف، فعقر الناقة فكان أشقى الناس ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ أي حذّرهم نبيهم صالح عليه السلام من عقر الناقة التي جعلها الله تعالى لهم آية عظيمة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ أي دمرها عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم فأهلكهم ﴿وَلَا يَخَافُ[(١)] عُقْبَٰهَا﴾ ربنا ﷻ هو القاهر فوق عباده، لا يخرج عن قهره وقدرته أحد، حكيم في كل ما قضاه وشرعه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

---

(١) ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالفاء بدلاً من الواو أي (فلا يخاف)، وقرأ الباقون بالواو، أي (ولا يخاف).

فاتقوا الله عباد الله، وتدبّروا القرآن وتفهّموا معانيه واعتبروا بما فيه من القصص عن الأمم السابقة، فإنما سيق القصص للاعتبار بأحوال من سبق، ومعرفة أيام الله فيهم، وسلوك دروب المتقين، والبُعد عن دروب الهالكين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].



سورة الليل

مكية وآياتها إحدى وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ
وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ
عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى
(١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا
لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «**هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى**».

واشتملت هذه السورة على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم، ومذمة المشركين ومساوئهم، وجزاء كل فريق، وأن الله يهدي الناس إلى الخير، وأنه أرسل رسوله للتذكير بالله وما عنده فينتفع من يخشى، ويصرف عن الذكر من كان شقياً، فيكون جزاء المعرض عن ذكر الله تعالى النار المحرقة، وهو من صده عن التذكير إيثار حب الدنيا، وفي الآيات إشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

أقسم الله تعالى بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١)﴾ أي يعم الخلق بظلامه، فيسكن إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢)﴾ تجلّى للخلق

فاستضاؤوا بنوره وانتشروا في مصالحهم ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ أي والذي خلق الذكر والأنثى من كل نوع له توالد ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ هذا هو المقسم عليه، فلما كان المقسم به من المتضادات، كان الجواب للقسم من المتضادات أيضاً، يعني: يا أيها المكلفون إن سعيكم متفاوت ومختلف، بحسب تفاوت الأعمال ومقدارها والإخلاص فيها. فما قُصِد به وجه الله تعالى فهو الباقي، وما قُصد به سواه فلا بقاء له ولا انتفاع به.

قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]، ومن أجل ذلك فضّل الله تعالى العاملين له بإخلاص، ووصف أعمالهم فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ أي أعطى ما أُمر به من العبادات المالية، مثل: الزكاة والنفقات والكفارات والصدقات والإنفاق في أوجه الخير، والعبادات البدنية، كالصلاة والصوم والحج والعمرة وغيرها ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي والآثام ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ أي صدّق بلا إله إلا الله وما دلت عليه من العقائد الدينية، وما يترتب عليها من الجزاء ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي نيسر له أمره، ونجعله مسهلاً له كل خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسّر الله له ذلك ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ بخل بما أُمر به وترك الإنفاق الواجب والمستحب، واستغنى عن ربه فترك عبوديته، ولم يرَ نفسه أنه مفتقراً إلى الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ والذي لا نجاة لأحد ولا فوز ولا فلاح إلا برضاه - جلّ وعلا -، وأن كل الخلائق تصمد إليه وتجأر إليه وتفتقر إليه وإلى رحمته ورعايته ولطفه، والكل هالك إلا من نجاه الله ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ وهو عكس من صدّق بالحسنى، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ أي للحالة العسرة، والخصال الذميمة بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، وحيثما حل، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله السلامة، والعافية.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ ماذا عساه ينفعه ماله إذا هلك ومات؟ فلا يصحب الإنسان بعد الموت إلا عمله إن كان خيراً أو شراً، وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له**» [رواه مسلم].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ ومن معناها أن الله تعالى خلق الإنسان وميّز له الخير من الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠] فطريق الخير يوصل إلى الله تعالى، وأما طريق الضلال فإنه يحجبه عن ربه ولا يوصل صاحبه إلا للعذاب الشديد ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ ملكاً وتصرفاً ليس لله فيهما مشارك ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ تستعر وتتوقد وتلتهب ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ كذب بالخبر وتولى عن الأمر فلم يصدق كتاب الله، ولم يصدق رسول الله، وتمادى في غيه وطغيانه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ يدفع ماله في سبيل الله، ليس له قصد من ذلك غير تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس والآثام قاصداً به وجه الله تعالى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ أي ليس لأحد عنده نعمة ومنّة فيقصد بإيتاء ما يؤتي مجازاته.

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق ﷺ فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، قيل: إن هذه السورة نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ وإنفاقه على المسلمين، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره بالله تعالى، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال ابن إسحاق: كان بلال لبعض بني جمح، وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، فيقول بلال: أحد أحد، فمرّ به النبي ﷺ فقال: «**أحد ينجيك**» يعني الله تعالى، ثم قال النبي ﷺ لأبي بكر: «**إن بلالاً يُعذَّب في الله**» فعرف أبو بكر الذي يريده رسول الله ﷺ، فذهب أبو بكر لأمية بن خلف ليشتريه منه ويعتقه لله تعالى، وقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ قال: أنت أفسدته فأنقِذه مما ترى،

قال أبو بكر: أفعل، فاشتراه منه برطل من ذهب أو بعبد أسود كافر وأعتق بلالاً لوجه الله تعالى. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد أعتق ست رقاب على الإسلام قبل أن يهاجر وبلال سابعهم. ولما قال الكفار: إنما فعل ذلك أبو بكر ـ أي شراء بلال وإعتاقه ـ ليد كانت لبلال عنده، أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي وليس لأحد عنده نعمة سابقة يكافئه عليها، وإنما ينفق ما ينفق لوجه الله ورغبة في رحمته ورضاه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي سوف يرضى ذلك الأتقى بما يعطيه الله تعالى من أنواع الكرامات والمثوبات في دار النعيم الخالد، في الجنة. لمن وفقه الله تعالى لتقواه وطاعته فنعيمها صافي من المكدرات، وفوق كل ما يخطر بالبال، ويكفينا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

خاتمة مناسبة للسورة:

روى البخاري ومسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**» فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فسيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فسيصير لعمل أهل الشقاء**» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ . . .﴾ الآيات.

وفي الحديث: «**لا يدخل النار إلا شقي**» قيل: ومَن الشقي؟ قال: «**الذي لا يعمل بطاعة ولا يترك معصية**».

قال بعض الوعّاظ: كأنكم بالقيامة قد قامت، وبالنفس الأمّارة بالسوء قد لامت، وانفتحت عيون طالما نامت، وتحيرت قلوب العصاة وهامت.

غداً تُوفّى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إنْ أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا



سورة الضحى

مكية وآياتها إحدى عشر آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

افتتحت السورة بقسمين معبرين عن وقتي النشاط والسكون، على أن الله ما ترك رسوله ولا كرهه وما يعده له في الآخرة من منازل الرفعة خير مما يكرمه به في الأولى، ثم أقسم سبحانه على أنه سيعطى حتى يرضى، والسوابق شواهد على اللوحاق فقد كان يتيماً فآواه، وضالاً فأحسن هداه، وفقيراً فأغناه، ثم دعت الآيات إلى إكرام اليتيم وعدم نهر السائل، وإلى التحدث بنعمة الله.

وجاء في أسباب النزول:

أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة، فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودّعك وقلاك، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ ...﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أقسم الله تعالى لنبيه ﷺ

بالضحى، وهو أول النهار من طلوع الشمس وارتفاعها إلى ما قبل الزوال، وبالليل إذا اشتد ظلامه وغطى كل شيء وسكن الناس ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي ما تركك وأهملك ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي وما أبغضك، بل إن الرسول ﷺ أحب الخلق إلى الله تعالى، لذلك اختاره لأعظم الرسالات وأفضل الأمم، وجعله خاتم النبيين، واختصه بالمقام المحمود، وأنزل عليه أفضل الكتب في أفضل زمان ومكان، بسفارة أفضل الملائكة جبريل عليه السلام وجعل دينه الإسلام عاماً خالداً صالحاً لكل زمان ومكان، وهو ﷺ أحد الخليلين، إذ الخلة وهي أعظم مراتب المحبة لم تكن إلا لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول ﷺ: **«إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا»** [أخرجه مسلم].

وقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي خير لك من هذه الدنيا الفانية. أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«عرض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي، فسرَّني، فأنزل الله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾»** [حديث حسن]، وكان النبي ﷺ يقول: **«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»**.

قال ابن ماجة: حدثنا يحيى بن حكيم، ثنا أبو داود، ثنا المسعودي، أخبرني عمرو بن مرة عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثّر في جلده فقلتُ: بأبي وأمي، يا رسول الله! لو كنتَ آذنتنا ففرشنا لك عليه شيئاً يقيك منه! فقال رسول الله ﷺ: **«ما أنا والدنيا! إنما أنا والدنيا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»**.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ أي سوف يعطيك ربك من فواضل نعمه حتى ترضى في الدنيا من كمال الدين وظهور الأمر وفي الآخرة الشفاعة وأن لا يبقى أحد من أمته الموحدين في النار، وكذلك الدرجة الرفيعة التي لا تكون لأحد سواه، ووعْد الله تعالى لنبيه ﷺ بأنه سيعطيه حتى يرضى هو غاية الإحسان والإكرام.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ استفهام تقريري، أي وجدك الله تعالى يتيماً، والوجود بمعنى العلم، ﴿فَآوَىٰ﴾ أي جعل لك مأوى تأوي إليه، وهو بيت كافلة.

وكان يتيماً من الأب، ويتيماً من الأم، فإن أباه توفي قبل أن يولد، وأمه ماتت وهو طفل، ولكن الله تعالى تكفّل به وهيأ له مَنْ يقوم بتربيته والدفاع عنه حتى وصل إلى الغاية التي أرادها الله تعالى.

قال ابن كثير: وذلك أن أباه تُوفي وهو حَملٌ في بطن أمه ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويكفّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحُسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهالهم فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سُنَّته على الوجه الأتم الأكمل. فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به. اهـ.[1]

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ أي غافلاً عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان، فهداك إليه، وجعلك إماماً له، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أي فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك عن الناس، ويسر لك أسباب الرزق والتجارة والقناعة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»**.

وبعد أن ذكّره الله تعالى بهذه النعم الثلاث، فقد كان يتيماً فآواه، وضالاً فهداه، وفقيراً فأغناه، أوصاه بثلاث وصايا تقابلها ليحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ أي لا تقهره بأخذ ماله أو إذلاله أو أذاه ذاكراً رعاية الله تعالى لك أيام يتمك، فكان ﷺ يحسن إلى اليتامى ويبرهم ويوصي بهم خيراً ومن ذلك قوله ﷺ: **«أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»** وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما [رواه البخاري عن سهل بن

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٥٩).

سعد ﷺ]. ولا شك أن الأمّة هي المقصودة بهذه الأوامر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ أي فلا ترده بقسوة، ويشمل السائل الفقير والسائل المسترشد في أمور الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ شكراً لله تعالى وإظهاراً للنعمة، ويشمل كل ما أنعم الله عليه مما ذكر وغيره، وعلى الأمة جمعاء. والله أعلم. وما قلناه وما قاله غيرنا هو قليل من كثير، فكلام الله تعالى لا تدركه عقول البشر.

نظراً لأنا نسمع أحياناً تكبيراً في القراءات وددت أن أورد نبذة سريعة وموجزة عن التكبير عند قراءة سورة الضحى إلى آخر المصحف الشريف، من حيث أصل هذا التكبير وسببه وصفته وأوجهه وحكم وصل آخر السورة به، وحكمه في الصلاة، وذكر المذاهب الأربعة فيه.

قال ابن كثير (٤/ ٥٥٧): روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال: قرأت على عكرمة بن سليمان، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد. فلما بلغت ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ قال لي: كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك، وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك. وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أُبيّ بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أُبيّ أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك، فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، من ولد القاسم بن أبي بزة، وكان إماماً في القراءات. وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال: لا أحدث عنه. وكذلك أبو جعفر العقيليّ، قال: هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في (شرح الشاطبية) عن الشافعي أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة، فقال: أحسنت وأصبت السنة. وهذا يقتضي صحة هذا الحديث.اهـ.

قلت: والتكبير مصدر كبّر إذا قال[1]: الله أكبر، ومعناه: الله أعظم من

---

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، باب: كبر.

كل عظيم ﷻ، وذكروا في مناسبة[1] التكبير أن الوحي تأخر عن رسول الله ﷺ فقال المشركون ـ زوراً وكذباً ـ إن محمداً قد ودَّعه ربُّه وقلاه، فنزل ـ تكذيباً لهم ـ سورة والضحى من أولها إلى آخرها، فلما فرغ جبريل عليه السلام من قراءتها قال الرسول ﷺ شاكراً لله تعالى على ما أولاه من نزول الوحي عليه بعد انقطاعه ومن الرد على إفك الكافرين ومزاعمهم: «الله أكبر»، ثم أمر ﷺ أن يكبّر مع خاتمة كل سورة حتى يختم تعظيماً لله وسروراً بختم القرآن العظيم، وقد ورد هذا في كل كتب القراءات التي تعرضت لذكر التكبير، والله أعلم.

صفة التكبير:

١ ـ الله أكبر.

٢ ـ لا إله إلا الله والله أكبر.

٣ ـ لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد.

ولا بد من وصل الجمل الثلاث في حال القراءة بها ولا يصح فصلها.

مكان التكبير:

اختلف العلماء، هل التكبير لأول السورة أو لخاتمتها، ومنشأ الخلاف أنه كان تكبيره ﷺ آخر قراءة جبريل عليه السلام وأول قراءته هو ﷺ وهذا هو السبب في أن التكبير قد يكون لأول السورة وقد يكون لآخرها.

أوجه التكبير:

أوجه التكبير من آخر سورة الضحى وما بعدها إلى آخر سورة الناس مع الأمثلة، وذلك على فرض الاقتصار على التكبير فقط.

الأول: قطع الجميع، أي الوقف على آخر السورة وعلى التكبير وعلى البسملة والابتداء بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⦗١١⦘﴾ ثم يقف [اللَّهُ أَكْبَرُ]، ثم يقف ﴿بِسْمِ

(١) قال صاحب فتح القدير عند تفسير سورة الضحى: ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة أو ضعف.

ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

الثاني: الوقف على آخر السورة وعلى التكبير ووصل البسملة بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ ثم يقف ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ ثم يقف ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

الثالث: الوقف على آخر السورة ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ ثم يقف ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ ثم يقف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

الرابع: الوقف على آخر السورة ووصل التكبير بالبسملة بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ ثم يقف ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

الخامس: وصل آخر السورة بالتكبير مع الوقف عليه وعلى البسملة ثم الابتداء بالسورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ ثم يقف ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

السادس: وصل آخر السورة بالتكبير مع الوقف عليه ثم وصل البسملة بأول السورة مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ ثم يقف ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

السابع: وصل الجميع، أي وصل آخر السورة بالتكبير بالبسملة بأول السورة بدون وقف في ذلك كله مثاله:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

والوجه الممنوع هو وصل آخر السورة بالتكبير وبالبسملة والوقف ثم الابتداء بأول السورة. وهذا يمتنع لئلا يتوهم أن البسملة لآخر السورة كما مر في البسملة.

حكم وصل آخر السورة بالتكبير:

إذا وصل آخر السورة بالتكبير فلا يخلو من أن يكون الحرف الأخير في السورة ساكناً أو متحركاً، فإن كان ساكناً نحو: ﴿فَٱرْغَب﴾ و﴿ٱقْتَرِبْ﴾ وجب كسر الساكن تخلصاً من التقاء الساكنين، حالة وصله بلفظ [ٱللَّهُ أَكْبَرُ] هكذا: ﴿فَٱرْغَبِ[1] ٱللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وكذلك ﴿وَٱقْتَرِبِ ٱللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وكذلك إن كان الحرف الأخير مُنوَّناً فإنَّ نون التنوين تكسر كذلك مثل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ تقرأ كما يلي: ﴿إنه كان توابَنِ الله أكبر﴾ وإذا كان الحرف الأخير متحركاً فإنه يوصل بالتكبير بحركة إعرابه دون أي تغيير، سواء كانت حركته فتحة كآخر الماعون والفلق أو كسرة كآخر التكاثر والعصر أو ضمة كآخر الكوثر، وإذا كان آخر السورة هاء الضمير مثل آخر البينة والزلزلة وجب حذف الصلة لالتقاء الساكنين.

وقد أشار إلى ذلك الشاطبي في الحرز بقوله:

وما قَبْلَه مِن ساكنٍ أو مُنَوَّنٍ فَلِلسَّاكِنَيْنِ اكْسِرْهُ في الوصْلِ مُرْسَلاً
وَأَدْرِجْ عَلَى إعْرابِهِ ما سواهُما وَلَا تَصِلَنْ هَاءَ الضَّمِيرِ لِتُوصَلَا[2]

قال صاحب «هداية القارئ»:

اعلم أن حكم التكبير في الصلاة أنه سنة ثابتة فيها كثبوتها في خارجها وقد تكلم في هذه المسألة غير واحد من الثقات الجهابذة الأثبات فقد ذكر الحافظ ابن الجزري في النشر بأسانيده إلى الصحابة والتابعين بثبوت التكبير في الصلاة وغيرها، ثم قال الحافظ ابن الجزري بعد ذلك: وقال الشيخ أبو الحسن السخاوي: وروى بعض علمائنا الذين اتصلت قراءتنا بإسناده عن أبي

---

(١) ولا يخفى مراعاة ترقيق لام لفظ الجلالة في مثل هذه القراءة.
(٢) من كتاب جهد الفقير في تجويد كلام العلي القدير ص(١٨٣ ـ ١٨٨)، للمؤلف.

محمد الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد القرشي قال: صليت خلف المقام بالمسجد الحرام في التراويح في شهر رمضان فلما كانت ليلة الختم كبرت من خاتمة الضحى إلى آخر القرآن في الصلاة فلما سلمت التفت وإذا بأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي قد صلى ورائي فلما أبصرني قال: أحسنت أصبت السنة... إلى أن قال رَحِمَهُ الله: فقد ثبت التكبير في الصلاة عن أهل مكة فقهائهم وناهيك بالإمام الشافعي وسفيان بن عيينة وابن جريج وابن كثير وغيرهم... إلى أن قال: ورأيت أنا غير واحد من شيوخنا يعمل به ويأمر من يعمل به في صلاة التراويح وفي الإحياء في ليالي رمضان حتى كان بعضهم إذا وصل في الإحياء في الضحى قام بما بقي من القرآن في ركعة واحدة يكبر إثر كل سورة فإذا انتهى إلى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ كبر في آخرها ثم يكبر ثانياً للركوع، وإذا قام في الركعة الثانية قرأ الفاتحة وما تيسر من أول البقرة وفعلت أنا كذلك مرات لما كنت أقوم بالإحياء بدمشق ومصر.

وأما من كان يكبر في صلاة التراويح فإنهم يكبرون إثر كل سورة ثم يكبرون للركوع. وذلك إذا آثر التكبير آخر كل سورة. ومنهم من كان إذا قرأ الفاتحة وأراد الشروع في السورة كبر وبسمل وابتدأ السورة... إلى أن قال رَحِمَهُ الله: ثم رأيت كتاب الوسيط تأليف الإمام الكبير شيخ الإسلام أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي الشافعي رحمه الله تعالى وفيه ما هو نص على التكبير في الصلاة... ثم عرج بعد ذلك على المذاهب الفقهية فقال: والقصد إنني تتبعت كلام الفقهاء من أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ فلم أر لهم نصًا في غير ما ذكرت وكذلك لم أر للحنفية ولا للمالكية وأما الحنابلة فقد قال الفقيه الكبير أبو عبد الله محمد بن مفلح في كتاب الفروع له: «وهل يكبر لختمه من الضحى أو ألم نشرح آخر كل سورة فيه روايتان ولم تستحبه الحنابلة لقراءة غير ابن كثير، وقيل: ويهلل. انتهى.

ثم قال الحافظ ابن الجزري بعد ذلك:

ولما منّ الله علي بالمجاورة بمكة ودخل شهر رمضان فلم أر أحداً ممن صلى التراويح بالمسجد الحرام إلا يكبر من الضحى عند الختم فعلمت أنها سنة باقية فيهم إلى اليوم... ثم قال رحمه الله تعالى: «والعجيب ممن ينكر

التكبير بعد ثبوته عن النبي ﷺ وعن أصحابه والتابعين». انتهى كلام الحافظ ابن الجزري ملخصاً من «النشر»[1].

وقال صاحب «هداية القارئ»[2].

ويؤخذ من كلام الحافظ ابن الجزري في «النشر» والذي سقناه آنفاً الأحكام الآتية:

أولاً: إن التكبير سنة مطلقة في الصلاة وخارجها. وقد ثبت فعل هذه السنة عند فقهاء مكة المشرفة وغيرهم من فقهاء الأمصار في صلاة التراويح وغيرها.

ثانياً: إن التكبير في الصلاة بالنسبة للمذاهب الفقهية قد ثبت عند الشافعية وعلى رأسهم إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه وأنه لم يثبت عند الحنفية ولا عند المالكية أما الحنابلة فقد ورد عنهم فيه روايتان التكبير وعدمه وعندهم إن أخذوا بالتكبير لم يكن مستحبًّا لقراءة غير قراءة ابن كثير وحال أخذهم بالتكبير يجوز معه التهليل كما قيل عندهم.

ثالثاً: أنه لا وجه لمن أنكر التكبير بعد ثبوته عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين ﷺ وعنا معهم بمنه وكرمه آمين.

هذا: وذكر في «الإتحاف» أن التكبير مندوب في الصلاة في الختم وغيره حتى لو قرأ سورة من سور التكبير كالكافرون والإخلاص مثلاً في ركعتين كبر.

وقد اختلفوا في أداء التكبير في الصلاة هل يجهر به أو يسر أو هو تابع لها في السرية والجهرية أقوال. وأميل إلى أن التكبير يكون تابعاً للصلاة في السر والجهر فهو أحب إليَّ والله تعالى أعلى وأعلم.اهـ.

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٩).
(٢) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري (٢/ ٦١١ ـ ٦١٢).



سورة الشرح

مكية وآياتها ثماني آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

هذه السورة المكية بالإجماع بينت ثلاث نعم أنعم الله تعالى بها على نبيه ﷺ إِثْر الثلاث التي جاءت في السورة التي قبلها، وكأن موضوعهما واحد، حتى قيل: إنهما سورة واحدة، ولكن المتواتر أنهما سورتان، وإن كانتا متصلتين معنى.

فقررت هذه السورة أن الله تعالى شرح صدر نبيه ﷺ وملأه حكمة وهيأه لتلقي الوحي العظيم والنور المبين، وحط عنه ما أثقل ظهره من أعباء الدعوة، وأَعْلَىٰ منزلته، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة وقرن اسمه باسمه في أصل العقيدة وشعائر الدين، وبشرت الآيات بأن مع العسر يسراً، وهذه سنة الله تعالى، ودعت الرسول ﷺ أن يجتهد في الخير بعد الخير وفي الدعوة، وأن الله تعالى هو وليه وناصره.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ استفهام تقريري، أي قد شرحنا لك صدرك، وشرح الصدر في رأي الجمهور تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه، وهذا شرح معنوي، وقد يكون حسياً بمعنى شق صدره ﷺ، فقد وقع ذلك مراراً، مرة في صغره لإخراج حظ الشيطان، وهو الدم الأسود، الذي يميل به القلب إلى المعاصي، ويعرض عن الطاعات، ومرة عند ابتداء

الوحي، ومرة ليلة الإسراء، ومن الأحاديث في هذا ما يلي:

قال مسلم: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان. فأخذه فصرعه فشق عن قلبه. فاستخرج القلب. فاستخرج منه علقة. فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أُبيّ بن كعب أن أبا هريرة قال: يا رسول الله: ما أول ما رأيت من أمر النبوّة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألت أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهراً إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط وأرواح لم أجدها في خلق قط وثياب لم أجدها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسّاً فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه. فأضجعني بلا قصر ولا هصر، فقال أحدهما: افلق صدره فخوّى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد. فأخرج شيئاً كهيئة العلقة، ثم نبذها، فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى. وقال: اغدوا سلم، فرجعت بها أغدو بها رقة على الصغير ورحمة للكبير».

قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشّار، حدثنا محمد بن جعفر وابن أبي عدي، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رجل من قومه أن النبي ﷺ قال: «**بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعت قائلاً يقول: أحد بين الثلاثة، فأُتيت بطست من ذهب فيها ماءُ زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا**». قال قتادة: قلتُ ـ يعني قلتُ لأنس بن مالك ـ: ما يعني؟ قال: «**إلى أسفل بطني، فاستُخرج قلبي، فغُسل قلبي بماء زمزم ثم أُعيد مكانه، ثم حُشِيَ إيماناً وحكمة**».

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ أي حططنا عنك حملك الثقيل، والنقيض هو الصوت الذي يُسمع من المحمل فوق البعير، وأنقض، أي أثقل، وجائز أن يكون هذا الحمل الثقيل الذي وضع عنه هو إزالة الحيرة التي كانت قبل البعثة، أو ما كان يعانيه ﷺ من الغم وشدة الأسف من تكذيب قومه له، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣] وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] فوضعه الله عنه بأن استجاب له وآمن بدعوته مَنْ سبقت لهم الحسنى كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك أخبره الله تعالى بأنه لن يُسأل عن أصحاب الجحيم، وأنه غير ملزم بإكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين، وإنما عليه البلاغ وعلى الله الحساب.

وأما قوله تعالى في الآية الأخرى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وما جاء في السنة أنه ﷺ كان يقوم الليل، ويطيل القيام حتى تتورم قدماه الشريفتان، فلما قيل له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»؟ فهذا يعني ثبوت مغفرة الذنوب المتقدمة والمتأخرة في الكتاب والسنة، ولا شك أن هذا من خصائصه ﷺ، أما غيره من الناس فيحتاج إلى التوبة من الذنب وقد يغفر الله تعالى لمن يشاء بدون توبة ما دون الشرك. فالحاصل أن المقطوع به أن النبي ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكن الرسل معصومون من مقارفة الذنوب والآثام، وقد يُراد ـ والله أعلم ـ ما فعله ﷺ عن اجتهاد وعوتب عليه، كإذنه للمنافقين في التخلف عن الجهاد حين اعتذروا، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وعبوسه في وجه الأعمى، ونحو ذلك، أو هو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ أي أعلينا قدرك ومقامك في الدنيا والآخرة، فجعلتك خاتم النبيين، وجعلت أمتك خير الأمم، وأنزلت عليك القرآن، خير كتاب وأخذت الميثاق على النبيين وأممهم أن يؤمنوا بما بعثتك به، وقرنت اسمك باسمي في الشهادة والآذان وكثير من الذكر والعبادة،

وجعلت طاعتك من طاعتي ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وصليت عليك وملائكتي وأمرت المؤمنين بأن يصلوا عليك ويسلموا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: **«أتاني جبريل فقال: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم. قال: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي»**.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عدي بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: **«سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته. قلت: أي رب اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً. قال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت، وضالاً فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرك، وحططت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك فلا أذكر إلا ذكرت معي واتخذتك خليلاً؟»**.

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما فرغت من أمر السموات والأرض قلت: يا رب، إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرّمته، اتخذت إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخرت لداود الجبال ولسليمان الريح والشياطين، وأحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لي؟ قال: أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله؟ أن لا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً، ولم أعطها أمة، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوّة إلا بالله»**.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ هذه بشارة للنبي ﷺ وأصحابه، فقد كان ﷺ في مكة في ضيق وشدة مما يواجه من أذى المشركين له ولأصحابه، فقد فرج الله تعالى كل هذه الكربات ونجاه من المشركين، فكأن المعنى: كما شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، ورفعنا لك ذكرك ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ لأن المعرف إذا أعيد يكون الثاني عين الأول، وأما المنكر فهو غير الأول، لذلك في الآيتين يسران، وفيهما عسر واحد.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أبشروا أتاكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين**».

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: بعثنا رسول الله ﷺ ونحن ثلثمائة أو يزيدون، علينا أبو عبيدة بن الجراح، ليس معنا من الحمولة إلا ما نركب فزوّدنا رسول الله ﷺ جرابين من تمر، فقال بعضنا لبعض: قد علم رسول الله ﷺ أين تريدون وقد علمتم ما معكم من الزاد، فلو رجعتم إلى رسول الله ﷺ، فسألتموه أن يزوّدكم، فرجعنا إليه، فقال: «**إني قد عرفت الذي جئتم له، ولو كان عندي غير الذي زوّدتكم لزوّدتكموه**». فانصرفنا، ونزلت ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ فأرسل نبي الله إلى بعضنا، فدعاه، فقال: «**أبشروا فإن الله قد أوحى إليّ** ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ ولن يغلب عسر يسرين».

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي إذا فرغت من عمل أعمالك النافعة فانصب، أي خذ في عمل آخر واتعب فيه، وذُكر فيه أقوال كثيرة، منها إذا فرغت من دنياك فصلِّ، وإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وقيل: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فاستغفر لذنبك وللمؤمنين، وقال العلماء: الحمل على العموم أولى. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أكره أن أرى أحدكم فارغاً، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ أي اجعل همك ورغبتك فيما عند الله تعالى، وتضرع إليه، وجأر إليه وحده، فهو ناصرك ومؤيدك. وقد حقق الله تعالى لنبيه ﷺ ما وعده فأيده بنصره وأظهر دعوته دعوة الحق، حتى خرج ﷺ من الدنيا قرير العين بما حقق الله تعالى من كمال الدين ورفعة الإسلام، وفيما يلي ألخص في كلمات يسيرة لمحة من السيرة العطرة:

فقد بعث الله تعالى نبيه محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل على رأس الأربعين من عمره فجاءه الوحي وهو يتعبد في غار حراء فأول ما نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

ثم ذهبت به خديجة رضي الله عنها إلى ورقة بن نوفل، وكان ورقة قد دخل في دين النصارى وعرف الكتاب، فأخبره النبي ﷺ بما حصل له من الوحي، فقال ورقة: يا ليتني فيها جدعاً، يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال النبي ﷺ: **«أو مخرجي هم؟»**.

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم أنزل الله تعالى على رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥].

فقام ﷺ بأمر ربه فبشر وأنذر فكان أول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فبادر إلى التصديق به وقال: بأبي وأمي أهلُ الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. وصار من دعاة الإسلام.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤]. فصدع بأمر الله تعالى وجهر بدعوته، فجعلت قريش تسخر به وتستهزئ به ويؤذونه بالقول وبالفعل، وكان من أشد الناس إذاء له وسخرية به عمه أبو لهب، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١].

حتى بلغ من إيذائهم له، أن ألقوا عليه فرث الناقة وسلاها وهو ساجد، فلم يقدر أحد على رفعه عنه، فلم يزل ساجداً حتى جاءت ابنته فاطمة فألقته فلما رأى ﷺ استهانة قريش وشدة إيذائهم له ولأصحابه، خرج إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الإسلام، فردوا عليه رداً قبيحاً وأغروا به غلمانهم وسفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ﷺ، فرجع عنهم ومد يد الافتقار إلى ربه فدعا بالدعاء المشهور:

(اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل علي غضبك أو ينزل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك).

ثم قَيَّض الله له الأنصار فبايعوه على عبادة الله وحده لا شريك له وأن يمنعوه إذا قدم عليهم مما يمنعون منه نساءهم وإبناءهم.

فأذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالهجرة، فهاجر في شهر ربيع الأول بعد ثلاث عشرة سنة من مبعثه، وكان بصحبته أبو بكر فاختفيا في غار ثور ثلاثة أيام، والمشركون يطلبونهم من كل وجه، حتى كانوا يقفون على الغار الذي فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر. قال أبو بكر: يا رسول الله والله لو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا.

قال النبي ﷺ: **«لا تحزن إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»**.

فنجى الله تعالى نبيه ﷺ وصاحبه من المشركين، وأخذ في طريق الهجرة فلما سمع الأنصار ذلك، جعلوا يخرجون كل يوم إلى حرة المدينة ليستقبلوا رسول الله ﷺ، حتى يردهم حر الظهيرة، فوصل يوم الاثنين ثاني عشر من ربيع الأول فكان ذلك اليوم هو أنور يوم وإشرفه فاستقبله المسلمون بفرح عظيم، وكبروا فرحاً بمقدمه المبارك وتلقوه بالبشرى وحيوه تحية النبوة وأحاطوا به والسكينة تغشاه والوحي ينزل عليه والله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، وخرجت المدينة بأسرها تستقبله والنساء والصبيان، الله أكبر هذا رسول الله هذا رسول الله، هذا نبي الرحمة، هذا ركب الهدى هذا الداعي البشير، هذا محمد صفوة الله في خلقه وكان الأنصار كل واحد يأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ، يريد أن يكون نزوله عنده وهو يقول: «دعوها فإنها مأمورة».

حتى إذا أتت محل مسجده اليوم بركت، ثم قامت فسارت غير بعيد، ثم رجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تحللت ووضعت جرانها، فنزل عنها ﷺ، وسكن دار أبي أيوب الأنصاري، حتى بنى مسجده ومساكنه.

وهكذا حل نبي الرحمة ورسول الهدى في دار الهجرة بين المهاجرين والأنصار، ومن هناك أضاءت شمس الرسالة المشارق والمغارب وجاء الحق وزهق الباطل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩].



مكية وآياتها ثمان

عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفر في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. أخرجه الجماعة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ⑤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ⑧﴾.

أقسم الله تعالى في مستهل هذه السورة بثلاثة أماكن شرفها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، فأقسم بثمرتين مباركتين إشارة إلى منبتهما وهو بيت المقدس، وأقسم بجبل الطور وبمكة المكرمة، على أنه ﷻ خلق الإنسان في أجمل صورة، وكمله بالعقل، والإرادة وغير ذلك من صفات الكمال، ثم إن الإنسان إذا لم يقم بشكر نعمة ربه فسيرده إلى أسفل سافلين إلا من آمن وعمل الصالحات، فسينال ثواباً جزيلاً لا انقطاع له، ثم ختمت السورة بالإنكار على من كذب بالبعث بعد تقريره وإثباته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ①﴾ أقسم الله تعالى بهاتين الثمرتين: التين الذي يؤكل غذاء ودواء، والزيتون الذي يُتَغَذَّىٰ بثمره، ويعتصر منه الزيت أدماً ودواء، وخصهما لما فيهما من المنافع، قال ابن عباس: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت. اهـ. ولعل في ذكرهما إشارة إلى فضل

منبتهما، وهو بيت المقدس، موطن رسول الله عيسى ابن مريم ومحل مولده عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ وهو جبل الطور بسيناء، أقسم الله تعالى به لأنه المكان المبارك الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ وهو مكة المكرمة، أقسم الله به لكرامته وبعثه نبيه محمد ﷺ منه، وهو بلد أمن وسلام من دخله كان آمناً، وبه المسجد الحرام أول بيت وضع للناس وهدى للعالمين.

قال ابن كثير رحمه الله[1]: وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار **(فالأول)** محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام. **(والثاني)** طور سنين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. **(والثالث)** مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء ـ يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ـ وأشرق من ساعير ـ يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم بالأشرف منهما. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فقوله تعالى[2]: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة. التي ظهر فيها نوره وهداه، وأنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن. كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله: جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران. اهـ.

وقال[3]: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٦٣).

(٢) الجواب الصحيح (٥/٢٠٧).

(٣) الجواب الصحيح (٥/١٩٧).

مكة. فإن ادعوا أنها غير مكة ـ وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم ـ قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبيّ الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح. أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما: ظهر وانكشف. فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟؟اهـ.

وقال(1): ولما كان ما في التوراة خبراً عنها، أخبر بها على ترتيبها الزماني، فقدم الأسبق فالأسبق. وأما في القرآن، فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة، فختمها بأعلى الدرجات. فأقسم أولاً بالتين والزيتو، ثم بطور سنين، ثم بمكة؛ لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء. اهـ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ هذا جواب القسم، أي خلقنا الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل، فالإنسان هو أجمل المخلوقات الأرضية، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] فخلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل شكل وأبدع تكوين، وميزه بالعقل والإرادة والعلم، وجعل منهم الأنبياء والرسل والصديقين والمقربين والشهداء والصالحين، وكرَّم الله تعالى الإنسان وسخر له كل شيء، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠] وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: ١٣].

رُوي أن بعض السلف كان يحب زوجته حباً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالقٌ ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر!! فاحتجبت عنه وقالت: طلقتني، فحزن حزناً شديداً وذهب إلىٰ الخليفة «المنصور» وأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طُلّقت، إلا رجلاً واحداً من

---

(1) نفس المصدر ص(٢٠٧).

أصحاب أبي حنيفة فقد بقىٰ ساكتاً فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: يا أمير المؤمني، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فليس شيء أحسن من الإنسان، فقال: صدقت، وردها إلى زوجها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أي رددناه إلى أرذل العمر كما قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، وقيل: معناها: ثم رددنا الكافر إلى النار، وسيأتي تقريره عند بيان نوع الاستثناء، ومن ثم فإنه قد يكون مِنَ النّاس مَنْ تعود به حاله إلى أن يكون أسفل سافلين بعد أن كان في الأعلى من الإيمان والعلم، نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء متصل من ضمير ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ العائد على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي إلا المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم لا يردون إلى أسفل سافلين يوم القيامة، بل يدخلون الجنة برحمة الله تعالى لتمسكهم بإيمانهم وبقائهم عليه حتى الموت ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي ثواب ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع أو غير ممنون به، مع أن الله تعالى له المنة على عباده في كل شيء.

وإن كان الرّد المراد هو الرد إلى أرذل العمر وقد سبق بيانه فالاستثناء منقطع، ويحمل المعنى على الصالحين من الهرمىٰ، فيكون المعنى: لكن الذين كانوا صالحين من الهرمىٰ لهم ثواب دائم غير منقطع، أو غير ممنون به عليهم لصبرهم على ما ابتلوا به من الهرم والشيخوخة.

وربما كان في ذلك سبباً لعجزهم عن كثير من العبادات التي كانوا يؤدونها في شبابهم، وفيما يلي من الأحاديث والآثار ما يؤيد ذلك: أخرج أحمد والبخاري وابن حبان عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً**» وفي رواية عنه: ثم قرأ ﷺ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تبارك وتعالى يقول: إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا، ويقول الرب ﷻ: إني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك**».

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ قال: في أعدل خلق ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ يقول: إلى أرذل العمر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ غير منقوص. يقول: فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه، ولم يضره ما عمل في كبره، ولم يكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ قال: خلق كل شيء منكباً على وجهه إلا الإنسان ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ إلى أرذل العمر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية قال: فأيما رجل كان يعمل عملاً صالحاً وهو قويّ شاب فعجز عنه جرى له أجر ذلك العمل حتى يموت.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: إلا الذين قرؤوا القرآن.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال: كان يقال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ قال: الهرم لم يجعل فيه قوّة ما كان ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] قال: ولا ينزل تلك المنزلة أحد قرأ القرآن، وذلك قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية. قال: هم أصحاب القرآن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ يقول: إلى الكبر وضعفه فإذا ضعف وكبر عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبيبته.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ أي أيُّ شيء يحملك على التكذيب أيها الإنسان بعد هذا البيان ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي الجزاء بعد الموت وفيه إشارة إلى ما سبق بيانه وإثباته من دلائل قدرة الله تعالى على خلق كل شيء ومن جملته الإنسان على وجه الإبداع والإيجاد من العدم، أفبعد ظهور هذه الدلائل والحجج الواضحة يكون هناك مجال للتكذيب؟ وأي شيء يحملك ويضطرك على ذلك أيها الإنسان الضعيف؟ أفلا يكفي أن ينظر الإنسان إلى نفسه وأصله وخلقته؟ وكيف يرى ويفكر ويتكلم ويحب ويكره، وغير ذلك، ومَنْ الذي أقدره على ذلك؟ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

ثم بعد هذا التقرير العظيم والحق الجلي، قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ استفهام تقريري، يقرر الله تعالى أنه أحكم الحاكمين قدراً وشرعاً، وله الحكم وإليه يرجع الأمر كله. ويستحب أن يقول من قرأ هذه السورة: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، للآثار الآتية:

أخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة يرويه: «**من قرأ** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ **فقرأ** ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ **فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين**».

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ قال: ذُكر لنا أن نبي ﷺ كان يقول: «**بلى وأنا على ذلك من الشاهدين**».



مكية وآياتها تسع عشرة آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣
ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ
ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن
كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ
۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ
ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ۝١٩﴾.

صدر هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن كما صحت بذلك الأخبار، على أن أول سورة نزلت كاملة هي الفاتحة ويُروى غير ذلك وتضمنت هذه السورة تلقين النبي ﷺ الكلام القرآني، إذ لم يكن ﷺ يعرف التلاوة من قبل، وفي ذلك المعجزة العظيمة له ﷺ، كما أن هذه السورة رفعت شأن القراءة والتعلم، إذ أول كلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ لأن القراءة مفتاح العلم، وتشير السورة إلى أن الثراء والقوة قد يدفعان النفوس إلى مجاوزة حدود الله تعالى، والعاقبة للمتقين، إذ المرجع إليه تعالى فيجازي كلاً بعمله، وفيها تهديد للطغاة الذين يصدون عن الحق بأشد العذاب، وذلك بأن يؤخذ بنواصيهم ويقذفون في النار المحرقة، ولا ناصر لهم من سطوة الجبار، ثم ختمت السورة بأمر النبي ﷺ وأتباعه بعدم الالتفات إلى أولئك الطغاة الصادين عن عبادة الله تعالى، ثم أمرت بالتقرب إلى الله تعالى بما شرع.

وفي كون أول آيات هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن العظيم نورد هذا الحديث الصحيح:

أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ قال: «**قلت: ما أنا بقارئ**». قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ الآيــة»، فــرجــع بــهــا رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «**زملوني زملوني**». **فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»**.

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزيز ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرئ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً، يا ليتني أكون فيها حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي. قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «**بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: دثروني**». فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١ ـ ٥]. فحمي الوحي وتتابع».

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ هذا أمر من الله تعالى إلى نبيه ﷺ أن يقرأ ما يُوحى إليه من ربه تعالى مفتتحاً باسم الخالق ﷻ، الذي برأ وذرأ وفطر وأنشأ وأوجد كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢].

وبعد أن ذكر الله تعالى أنه خلق كل شيء خصَّ خلق الإنسان بالذكر تكريماً له وتشريفاً، لأنه أشرف المخلوقات الأرضية وإليه التنزيل وهو المأمور بالقراءة فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ العلق جمع علقة، وهي تشبه الدودة الصغيرة، وقد أثبت الطب الحديث أن النطفة التي خلق منها الإنسان تحتوي على حيوانات منوية تشبه الديدان الصغيرة لها رأس وذنب، لا ترى بالعين المجردة وإنما بالمجهر، وأصل الإنسان من تراب، حيث خلق آدم من تراب ونسله من نطفة من ماء مهين، ثم يتحول إلى علقة ثم إلى مضغة، أي قطعة لحم، ثم يخلق الله كما يشاء.

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ أي افعل ما أمرت به من القراءة، وجملة ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به النبي ﷺ من قوله: «**ما أنا بقارئ**» أي لست متعلماً للقراءة، فقيل له: اقرأ وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم. و﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ الذي لا يوازيه كرم، فيقبل العمل القليل، ويعطي عليه الأجر الجزيل، كما في مضاعفة الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة، مثل من قرأ ﴿الٓمٓ ۝١﴾ ثلاثة أحرف بثلاثين حسنة أو تضاعف، وغير ذلك من الكرم، حيث يحلم عن جهل العباد، فلا يعجل بعقوبتهم، ولا نهاية لكرمه ﷻ.

فهو سيعينك على تلاوة ما يوحى إليك وأنت أمي، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ أي علم الإنسان الخط والكتابة بالقلم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ أي علم الإنسان ما لم يكن يخطر بباله، وكل ما وصل أو يصل إليه الإنسان من العلوم والمعارف الاكتشافات إنما هو بتعليم الله تعالى له. فالحمد لله.

وفيما يلي أورد ما قاله الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مفتاح دار السعادة» (١/٢٧٨) حول هذه الآيات:

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين، البيان النطقيّ والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمة على العبد. فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه. فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجيّ. ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة. والآية فيه عظيمة. ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم. وذكر مادة خلقه ههنا من العلقة. وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها. أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة. فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة. ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده. إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين. ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلق مذاهب السلف.

وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم، إنما يعتريهم

من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم. فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان. فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن، من أجلِّ النعم. والتعليم به، وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله. فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم. فإنه علمه فتعلّم. كما أنه علمه الكلام فتكلم. هذا، ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به والبنان الذي يخطّ به، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد. فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم.

فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل. فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك. ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم؟ والتعليمُ بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة: مرتبة الوجود الذهنيّ، والوجود اللفظيّ، والوجود الرسميّ. فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب.

ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطي الوجود العينيّ. فدلت هذه الآيات، مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليماً. وذكر خلقين وتعليمين خلقاً عاماً وخلقاً خاصاً. وتعليماً خاصًا وتعليماً عاماً. وذكر من صفاته ههنا اسم ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ الذي هو فيه كل خير وكل كمال. فله كل كمال وَصْفاً، ومنه كل خير فعلاً. فهو ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ في

ذاته وأوصافه وأفعاله. وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك، وهو الغنيّ الحميد. انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز حده، ويستكبر على ربه إن رأى نفسه استغنت بمال أو قوة أو أعوان.

وأصل ﴿كَلَّآ﴾ أنها أداة ردع وزجر، وذلك إذا تقدمها ما يقتضي ذلك، وهي هنا بمعنى حقاً لعدم تقدم كلام يقتضي الردع والزجر، لأن الآيات الخمس الأولى نزلت في أول ما نزل على ما أسلفنا، وما بعد ﴿كَلَّآ﴾ نزل بعد ذلك بفترة طويلة، مع أنه يجوز أن تكون ﴿كَلَّآ﴾ هنا ردعاً لمن قال أو عمل ما يستحق الردع، والآيات نزلت في أبي جهل خاصة، وحكمها عام في كل مَنْ اتصف بما ذكر من الطغيان والاغترار بما وهبه الله تعالى من الصحة والغنى والجاه والعز ثم يستكبر وينسى فضل الله عليه، أما المؤمن فيخرج من ذلك، فهو مفتقر إلى الله تعالى دائماً ولا يستغني عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة: أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷺ يصلي ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلي ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً، وأجنحة؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة، عضواً عضواً**» وأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ . . .﴾ إلى آخر السورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ أي المرجع والمآب في الآخرة إلى الله تعالى وحده وسيحاسب كلاً بعمله، وفيه تهديد وتحذير لذلك الإنسان من عاقبة الطغيان، وهو عام لكل طاغٍ متكبر.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ[1] ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ أي يمنعه عن

(١) الاستفهام للتعجيب، أي ألا تعجب من حال هذا الشقي الضال الذي ينهى عن عبادة الله تعالى.

الصلاة وهو لا يستطيع غير النهي، والناهي هو أبو جهل، والعبد المصلي هو النبي محمد ﷺ، وقد كان أبو جهل يلقب في قريش بأبي الحكم، لأنهم يتحاكمون إليه ويرضون بحكمه فاغتر بنفسه وكابر ولم يسلم، فسماه النبي ﷺ أبا جهل، ومات كافراً في غزوة بدر الكبرى، وكما تقدم في الحديث أنه توعد النبي ﷺ إن رآه يصلي ليطأن رقبته، ولما أراد أن ينفذ منعه الله تعالى ورد كيده في نحره. وفيه تشنيع وتقبيح لفعل ذلك الكافر الذي ينهى عن عبادة الله تعالى حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الروية. وقد بلغ من حذر السلف ما روي عن علي رضي الله عنه أنه رأى في المصلى أقواماً، يصلُّون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيتُ رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له: ألا تنهاهم عن هذا؟ فقال: أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ وقال أبو يوسف لأبي حنيفة رحمه الله: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع: اللهم اغفر لي» قال: يقول: «ربنا لك الحمد» ويسجد، ولم يصرِّح له بالنهي خشية النهي عن الخير.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي العبد المنهي وهو محمد ﷺ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ يعني بالإخلاص والتوحيد ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ يعني أبا جهل، كذب بما جاء به الرسول ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض عن الإيمان، والتقدير: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى آمر بالتقوى، والناهي مكذب متول عن الإيمان، فما أعجب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ يعني أبا جهل ومن مثله ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي إن الله تعالى يرى ذلك الفعل فيجازيه به، وفيه وعيد شديد وتهديد عظيم.

ثم قال تعالى متوعداً ومهدداً ذلك الناهي عن الصلاة ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي لئن لم يكف ذلك الشقي عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ السفع هو الجذب بشدة. والمعنى لنأخذنّ بناصيته، وهي مقدمة شعر الرأس ولنسحبنَّه إلى النار، فيقذف فيها. كما قال تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقيل: المراد: لنسحبنه على وجهه في الدنيا يوم بدر، وفيه بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إن لم ينته؛ وقد فعل عز وجل، فقد

رُوي أنه لما نزلت سورة الرحمن قال ﷺ: «**من يقرؤها على رؤساء قريش**»؟ فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله؛ فلم يأذن له عليه الصلاة والسلام لضعفه وصغر جثته، حتى قالها ثلاثاً، وفي كل مرة كان ابن مسعود يقول: أنا يا رسول الله؛ فأذن له صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتاهم وهم مجتمعون حول الكعبة فشرع في القراءة، فقام أبو جهل فلطمه، وشق أذنه وأدماه، فرجع وعيناه تدمعان، فنزل جبريل عليه السلام ضاحكاً، فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك، فقال عليه السلام: «ستعلم»؛ فلما كان يوم بدر قال عليه الصلاة والسلام: «**التمسوا أبا جهل في القتلى**» فرآه ابن مسعود مصروعاً يخور، فارتقى على صدره، ففتح عينيه فعرفه، فقال: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم؛ فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فعالج قطع رأسه، فقال اللعين: دونك فاقطعه بسيفي، فقطعه ولم يقدر على حمله، فشق أذنه، وجعل فيه خيطاً، وجعل يجره، حتى جاء به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فجاء جبريل عليه السلام يضحك ويقول: يا رسول الله! أذن بأذن والرأس زيادة.

وقوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ وهي ناصية أبي جهل ومن مثله، كاذبة في مقالها خاطئة في فعالها، قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة انتهره رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: أتنتهرني؟ فوالله لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ورجالاً مرداً، قال الله ﷻ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أي قومه وعشيرته وأهل ناديه فليستنصر بهم ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أي خزنة جهنم وهم الملائكة الغلاظ الشداد حتى يعلم مَنْ يغلب أحزبنا أم حزبه ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي لا تطع يا محمد هذا الشقي فيما دعاك إليه من ترك الصلاة وصل في المسجد الحرام وحيث شئت فإن الله حافظك وناصرك ويعصمك من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ أي صل لربك وتقرب منه بالعبادة، وتحبب إليه بالطاعة.

وفي صحيح مسلم مرفوعاً: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء**».

وسجدة التلاوة في هذه السورة من الأمور الثابتة فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾.

ومن الذكر الوارد في سجود التلاوة أن يقول الساجد حال سجوده: **«سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين، اللهم اكتب لي بها أجراً، وامح عني بها وزراً، وارفعني بها درجة، وأبقها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلها مني كما تقبلتها من عبدك ونبيك داود».**



سورة القدر

مكية وآياتها خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ[1] ٱلْفَجْرِ﴾.

من نِعم الله تعالى على أمة محمد ﷺ أن جعل لها مواسم ونفحات، فخير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، وأعظم الأيام يوم عرفة وأفضل الليالي ليلة القدر التي جعل الله العمل فيها خيراً من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، واختصها ببدء نزول القرآن فيها، ورفع قدرها وشرفها وجعلها محلاً لاستجابة دعاء عباده المؤمنين، ووقتاً لنزول ملائكته الأبرار حتى طلوع الفجر، فيا لها من ليلة عظيمة القدر، رفيعة الشأن بما منحها الله تعالى من التفضيل، يغفر ذنب من قامها إيماناً واحتساباً وهي في شهر رمضان المبارك، في الأوتار من العشر الأواخر، فجدير بالمسلم أن يتحراها، ويبحث عن أرجى أوقاتها، وذلك في كتب السنة، وهذه السورة تتحدث عن ليلة القدر، فتأمل يا عبد الله، قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ أي القرآن الكريم، أنزله الله تعالى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل منجماً حسب الأحداث في ثلاث وعشرين سنة.

---

(١) ﴿مَطْلِعِ﴾ قرأ الكسائي وخلف العاشر في اختياره بكسر اللام، وقرأ الباقون بفتح اللام.

قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً حسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.اهـ.

وَوُصِفَتْ ليلة القدر بالمباركة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٣ ـ ٤] أي هي ليلة ذات شرف رفيع، وقدر عظيم، ويقدر فيها ما يكون في السنة القابلة. وكانت في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ تعظيم وتفخيم لشأنها، أي وما الذي يعلمك مبلغ شأنها، وتعظيم قدرها، ثم قال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ أي العمل الصالح فيها من صلاة ودعاء وتسبيح وغير ذلك خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهذا معناها عند الجمهور، وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر، لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء، كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1] [البقرة: ٩٦]، وقيل: إنه ذكر للنبي ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله تعالى ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ لذلك، وتمنى ذلك لأمته، فقال: يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً، فأعطاه الله ليلة القدر.

وقيل غير ذلك، لكن المعنى لا يخرج عن فضل ليلة القدر على سائر الأيام والشهور، وأن العمل فيها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه**» [متفق عليه].

وفي صحيح ابن خزيمة والبيهقي وأبو الشيخ وابن حبان رحمهم الله عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ في آخرِ يومِ

---

(١) يعني: جميع الدهر.

من شعبان فقال: «**يا أيها الناسُ قد أظلكم شهرٌ عظيمٌ مُبارك فيه ليلة خيرٌ من ألفِ شهر، جعل الله صيامَه فريضةٌ، وقيامَ لَيلِهِ تطوعاً، من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كَمَن أدى فريضةً فيما سواه، ومن أدى فيه فريضةً كان كمَن أدى سبعين فريضةً فيما سواه، وهو شهرُ الصبر، والصبرُ ثوابُه الجنة، وشهر المواساةِ، وشهرٌ يُزادُ فيه رزق المؤمن، مَنْ فَطَّرَ فيه صائماً: كان مغفرةً لذنوبِه، وعِتْقَ رقبَتِهِ من النارِ، وكان له مِثْلُ أجرهِ من غيرِ أن ينقصَ من أجرهِ شيء**»، قالوا: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يُفَطِّرُ بِهِ الصائم، فقال رسول الله ﷺ: «**يعطي الله هذا الثوابَ لمن فطر صائماً على تمرةٍ أو شربةِ ماءً أو مَذْقَةِ لبَنٍ، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار**».

والجمهور على أنها في كل رمضان، روى البخاري عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسه تبقى**» فسّره كثيرون بليالي الأوتار وهو أظهر.

وروى الإمام أحمد ـ بسنده ـ عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: «**في رمضان فالتمسوها في العشر الأواخر فإنها في وتر إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو في آخر ليلة**». وروى الترمذي والنسائي ـ بسنديهما ـ عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «**في تسع يبقين أو سبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة**». يعني: التمسوا ليلة القدر؛ وقال الترمذي: حسن صحيح.

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ رأوا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «**أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر**» وفيهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان**» وروى البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «**خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى**

فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وقوله: «**فتلاحى فلان وفلان فرفعت**» فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع، كما جاء في الحديث: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» وقوله: «**فرفعت**» أي رفع عِلْمُ تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود كما يقول جهلة الشيعة، لأنه قد قال بعد هذا: «**فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**»، وقوله: «**وعسى أن يكون خيراً لكم**» يعني عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأخر أكثر؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله ﷻ، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه ـ البخاري ومسلم ـ من حديث عائشة؛ ولهما عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان؛ وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل. وأيقظ أهله وشد المئزر؛ أخرجاه. ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره، . . . والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخيرة منه، ثم في أوتاره أكثر؛ والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني. . . عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله! أرأيت إن علمت أي ليلة، ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**» وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم من مستدركه وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين.

وقد أخفيت ليلة القدر في شهر رمضان ليجتهد المسلمون رمضان كله، فتزيد حسناتهم، كما أخفيت الصلاة الوسطى في الصلوات ليحافظ على الكل، والاسم الأعظم في أسمائه ﷻ ليدعى بالجميع ورضاه في طاعته ليحرص العبد على جميع الطاعات، وغضبه في معاصيه لينزجر عن الكل، وساعة

الإجابة في يوم الجمعة ليجتهد سائر اليوم، والولي في المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، وأجل الإنسان ليكون دائماً على أهبة، وغير ذلك مما في إخفائه حكمة بالغة، وفائدة جمة.

ومما يقال من علاماتها أن الشمس تصبح لا شعاع لها صبيحتها، وسكون البحر ليلتها، وأنها ليلة بلجة صافية ولا يسمع فيها نباح الكلاب، وغير ذلك، والله أعلم.

وقيل أيضاً: إنه من المعلوم أن عدد كلمات السورة ثلاثون كأيام رمضان، واتفق أن كلمة ﴿هِيَ﴾ تمام سبع وعشرين، وقيل: إن حروف ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تسعة، وقد ذكرت في السورة ثلاث مرات، وثلاثة في تسعة بسبع وعشرين. والموفق من وفقه الله تعالى.

وبعد أن بيّن الله تعالى مكانة ليلة القدر وأنها خير من ألف شهر بين نوعاً آخر من فضلها فقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إلى الأرض أفواجاً في ليلة القدر ﴿وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿فِيهَا﴾ في ليلة القدر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي يأمر ربهم ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من الخير والبركة ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أي هي سلام من كل شر، فهي خير كلها من غروب الشمس إلى طلوع فجرها، فكلها سلام، سلام الملائكة على المؤمنين، وسلامة من كل شر، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، ويجعلنا من الذين يتعرضون لنفحات الخير ويفوزون بها.



مدنية وآياتها ثمان آيات

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأُبَيّ بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾» قال: وسماني لك، قال: «**نعم**»، فبكى. ورواه البخاريّ ومسلم. وفي رواية الإمام أحمد عن أبي حبة البدري قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبَيّاً. فقال النبي ﷺ لأُبَيٍّ: «**إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة**». قال أُبَيّ: وقد ذُكِرْتُ ثَمّ يا سول الله؟ قال: «**نعم**». قال: فبكى أُبَيّ.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ
(١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ (٨)﴾.

هذه السورة تسمى البينة أو البرية، أو لم يكن، وهي مدنية، نزلت على رسول الله ﷺ وهو بين أهل كتاب ومشركين، فجاءت تصور واقعهم، إذ علم أهل الكتاب من كتبهم نعوت خاتم النبيين ﷺ، وعلم منهم المشركون ذلك،

فكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا إذا بعث، ولكنهم كذبوا لما بعث فيهم سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، جاءهم مؤيداً بالقرآن العظيم، والحجج البينة، فكفروا وكذبوا، واتبع الوثنيون الكتابيين، فخابوا وخسروا، وجاء الرد عليهم في هذه السورة ببيان أن ما جاء به النبي ﷺ حق لا مرية فيه، وتوعد الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ووصفهم بأنهم شر البرية، وبالمقابل يكون خير البرية الذين آمنوا واتقوا، وبيّن مآل الفريقين.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي لم يكن الذين جحدوا رسالة رسول الله محمد ﷺ وأنكروا نبوته من اليهود والنصارى والمشركين تاركين لما هم عليه من الكفر والشرك ومنفصلين عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي الحجة الواضحة، وهي هنا النبي محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، الذي أرسله الله تعالى إلى العالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وهي صحف القرآن المطهرة من الخلط والزيغ والتدليس، يتلوها النبي ﷺ لنفسه وللناس عن ظهر قلب ﴿فِيهَآ﴾ أي في هذه الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي الآيات والأحكام المكتوبة فيها عادلة مستقيمة، غير ذات عوج، واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذي لا يميل إلى باطل ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، والكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه، إما أن تكون هي ما صح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرهما، مما حكاه الله في كتابه عنهم. فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوي سليم. وقد ترك حكاية ما لبس فيه الملبسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه. ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته عليه السلام من أهل الكتاب سبيلاً إلى إنكار الحق، وإنما فضلوا عليه سواه. أو هي سور القرآن، فإن كل سورة من سوره، كتاب قويم. فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوي على سور من القرآن هي كتب قيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿إِلَّا

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله ﷺ هو الموعود في كتبهم، فمنهم من آمن مثل النجاشي ملك الحبشة من النصارى، ومن اليهود عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ومنهم من كفر وهم الغالبية، كذلك المشركون، فكأن الجميع كان عازماً على تصديق النبي الخاتم الذي أظل زمانه، فلما بعث سيد الخلق ﷺ تفرقوا واختلفوا بغياً وحسداً ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي جاعلين دينهم خالصاً لله تعالى، وذلك بتنقيته من كل الشوائب، والإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، أو هو تصفية الأعمال من جميع الكدورات، ولأهمية الإخلاص أورد هذه الكلمات الوجيزة عنه كنصيحة لي ولإخواني المسلمين.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لا شيء له»** فأعادها ثلاث مرات، ويقول رسول الله ﷺ: **«لا شيء له»** ثم قال: **«إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»** [رواه النسائي بإسناد حسن].

وقد نص القرآن والحديث على أن الإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ، والإخلاص خُلُق إسلامي كريم، له مقداره عند الله تعالى، وله آثاره في الناس، فإن الله لا يقبل الأعمال ويرتضيها إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم، فإذا خلت من الإخلاص له جل جلاله كانت كعدمها، فالإخلاص هو المقياس في قبول الأعمال أو ردها، فَمَنْ أخلص نيته لله تعالى في كل العبادات وراقبه في السرّ والعلانية، يسّر الله له الأمور، ودفع عنه كل الشرور، ونجاه من كل محذور، وأفاض عليه من السعادة والحبور، وأعطاه مناه، وفاز برضاه، وعاش نقي القلب، طاهر الطوية، سليم السريرة والنية.

وكم للإخلاص والمخلصين من مواقف مشرفة تذكر، ومشاهد مؤثرة تحكى، وأحاديث حسنة تقال، وعظات قيمات تذكرة لأولي الألباب، الذين يرعون أذهانهم لما يسمعون، ومن ذلك، قال عبد الله بن دينار رضي الله عنه: خرجت أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، نريد مكة، فنزلنا ليلاً في بعض الطريق طلباً

للراحة، فانحدر إلينا راع من الجبل، فقال له عمر رضي الله عنه: بعني شاة، قال: إنها لسيدي، وأنا مملوك، فقال له عمر ممتحنا له: قل لسيدك: أكلها الذئب، فقال الراعي: وأين الله؟ فبكى عمر.

وفي الصباح ذهب فاشترى هذا الغلام وأعتقه، وقال له: لقد أعتقك الصدق في الدنيا إخلاصاً لله تعالى، وأرجو أن يعتقك في الآخرة.

فأخلص أيها المسلم لربك تسعد في الدنيا والآخرة، فإذا هممت بعبادة فاجعل مقصدك الأهم إرضاء الله تبارك وتعالى، واتباع سنة رسوله ﷺ، وتذكر قول الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] فبذلك تصفو لك العبادة ويسلم لك دينك.

أما إذا افتقر العمل إلى الإخلاص أو دخله الرياء، كمن صلى رياءً أو تزكّى رياءً أو عمل أي نوع من أنواع العبادات مرائياً في عمله، فإن عمله مردود عليه، وهو مأزور غير مأجور، فلا بد من الإخلاص لله تعالى في العبادة كي تكون مقبولة.

فاقصد بعملك أيها المسلم وجه الله، دون أن تلتفت لمدح الناس، واحذر من أن يذهب تعبك أدراج الرياح بسبب قلة الإخلاص فيه. وقصارى القول في إخلاص العبادة لله تعالى: أن يكون الظاهر كالباطن، والسر كالعلانية، وأن يخشى الله العبدُ بالغيب، ويراقبه في كل شيء، ويقصد بأعماله كلها وجه الله تعالى. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وهو دين الحق وملة إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي يؤدونها في أوقاتها بشروطها وأركانها وآدابها، محافظين عليها مهتمين بها، مداومين عليها حيث ينادى لها، ولا يخفى أن الخشوع فيها هو أهم أركانها، فصلاة بلا خشوع كسجد بلا

روح ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يؤدون الزكاة التي أوجب الله تعالى في الأموال إلى مستحقيها الذين ذكروا في الكتاب عند حلولها. ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي وذلك المذكور من عبادة الله تعالى، وإخلاصها، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي دين الملة المستقيمة.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ قال: هو الذي بعث الله به رسوله، وشرع لنفسه ورضي به.اهـ.

ثم ذكر الله تعالى مآل كل فريق فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي إن الذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وكتابه من اليهود والنصارى والوثنيين مصيرهم جميعاً إلى النار، ماكثين فيها، وهذا حكم الله فيهم، لأنهم كفروا بالحق لما جاءهم، وأعرضوا عنه، وذلك بعد أن بيّن الله تعالى لهم غاية البيان أن دين الإسلام هو الدين الحق المنجي من العذاب، والموجب للرحمة والنعيم، ولكنهم فضلوا الكفر على الإيمان، والشرك على التوحيد عناداً وحسداً، ولذلك استحقوا هذا الوصف الذي وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذرأها.

ثم ذكر الله تعالى مآل عباده الصالحين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي إن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه، فصدقوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي خير الخليقة التي برأها الله تعالى وذرأها.

ثم بيّن تعالى مصيرهم السعيد عنده فقال: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي ثوابهم في الآخرة يوم يلقونه بعد الموت جنات إقامة دائمة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة المذكورة آنفاً. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها دائماً بلا نهاية، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رضي أعمالهم ورضوا ثوابه، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ أي هذا النعيم المقيم والثواب العظيم لمن خاف الله تعالى في الدنيا سراً وعلانية، فاتقاه وأدّى فرائضه، واجتنب معاصيه، اللهم الطف بنا يا أرحم الراحمين.



مدنية وآياتها ثماني آيات

أخرج أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، قال: «**اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء**»، فقال الرجل: كبر سني، واشتدّ قلبي، وغلظ لساني، قال: «**اقرأ ثلاثاً من ذوات حمٓ**»، فقال مثل مقالته الأولى، فقال: «**اقرأ ثلاثاً من المسبحات**»، فقال مثل مقالته الأولى، وقال: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾ حتى فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح الرويجل، أفلح الرويجل**». وورد أنها تعدل نصف القرآن أو ربعه في أحاديث ضعيفة.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ⑥ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾.

تحدثت هذه السورة الجامعة عن إثبات البعث وذكر أشراط الساعة، وما يكون في ذلك اليوم من زلزال الأرض وإخراج الأرض ما في بطنها من الموتى والكنوز، واندهاش الإنسان من فجأة هذه الأحداث، ثم بينت انصراف

الناس من أرض المحشر متفرقين، فريق في الجنة وفريق في السعير، نسأل الله تعالى اللطف والرحمة.

فماذا أعددت أيها المسلم ليوم الرحيل من الدنيا إلى الآخرة والعرض والحساب؟ ماذا أعددت ليوم يصدر الناس فيه أشتاتاً لِيُروا أعمالهم؟ هل يسرك أن ترى صحيفة أعمالك وقد مُلِئت بالمعاملات الربوية؟ أو بتعاطي المسكرات والمخدرات؟ أو بالسرقة أو بالزنى؟ أو أنها ملئت بالكذب أو منع الزكاة أو أذية عباد الله؟ أو تجد فيها أنك مشيت في معصية؟ أو قطعت رحمك، أو هجرت والديك، أو آذيتهما أو عققتهما؟ هل يسرك أن ترى في صحيفتك أنك بسرعتك وتهورك في قيادة سيارتك تسببت في إزهاق نفس بريئة؟ أو يتَّمت أطفالاً أو أثكلت أماً أو أحرقت قلب والد على ولده؟ هل يسرُّك شيء من ذلك، وهل ترضاه لنفسك؟

عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» [أخرجه مسلم].

أخي المسلم، هل يسرُّك أن ترى في صحيفة أعمالك أنك تهاونت بالصلاة، أو لم تؤدها الأداء المطلوب؟ أو أنك منعت الزكاة، أو لم تحسن لعباد الله، أو أنك فرَّطت في شيء من الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج؟

هل يسرُّك أن تجد في صحيفتك أنك غدرت أو خنت أو رشيت أو ارتشيت، أو كنت واسطة شرّ وإسقاط حق، أو شهدت زوراً؟

لا شك أن أحداً من المسلمين لا يسره أن يرى شيئاً من ذلك في صحيفة أعماله، وأن الجميع يرجو أن لا يرى في صحيفة أعماله إلا البِرَّ والتقوى، والعبادات والقربات إلى الله تعالى، والباقيات الصالحات.

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ أي أصابها الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب، والمعنى: إن الله تعالى يأمر الأرض فتتزلزل وتهتز اهتزازاً عنيفاً لم يكن مألوفاً كما قال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ [الواقعة: ٤] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾

[الحج: ١] وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ أي وأخرجت الأرض ما في جوفها من الدفائن والكنوز والأموات، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾ [الانشقاق: ٣، ٤] عندئذٍ يقول الإنسان الذي يرى هذا: ﴿مَا لَهَا﴾ أي ما الذي حصل لها؟ يقول ذلك وهو في غاية الدهشة لما يرى من الأمر الفظيع الذي لم يشاهده من قبل، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ أي تخبر بما وقع عليها بإذن ربها، عندما قرأ النبي ﷺ هذه الآية، قال: «**أتدرون ما أخبارها؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أَمَة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها**» وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ أي أمرها بذلك ﷻ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ أي في ذلك اليوم يخرج الناس من قبورهم متفرقين كلٌّ على حسب عمله متمايزين، فلا يكون محسن ومسيء في طريق واحد، ولا مطيع ولا عاصي ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ [السجدة: ١٨] ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

يحشر الناس في ذلك اليوم بعد خروجهم من قبورهم ليريهم الله جزاء ما قدّمت أيديهم، ويجنوا ثمار ما غرسته أيمانهم، ثم فَصَّلَ الله تعالى بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ أي فمن يعمل ما يوازن مثال ذرة من خير يُثاب عليه، ومَن يعمل ما يوازن مثقال ذرة من شر يُجازى عليه، والذرة هي تعبير عن أصغر شيء يعرفه الناس، فيجد كل إنسان ما قدّم من خير أو شر، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فيا أخي المسلم تأمل في هذه السورة العظيمة، ولا شك أن الجميع يحفظها، وهي سورة مباركة تعدل ربع القرآن، فقد روى الترمذي وغيره عن

النبي ﷺ أنه قال: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل ربع القرآن» فبهذا تكون قراءتها أربع مرات كقراءة القرآن كله. والله أعلم.

ورُوي أن جدَّ الفرزدق صعصعة أتى النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ النبي ﷺ هذه السورة، فقال الرجل: حسبي حسبي، لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها[1]، ولهذا سميت هذه السورة: الجامعة.

وعن زيد بن أسلم أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: علِّمني مما علّمك الله، فدفعه إلى رجل يعلّمه القرآن، فعلّمه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾، حتى بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . . .﴾ إلخ، قال الرجل: حسبي، فأُخبر بذلك النبي ﷺ فقال: **«دعه فقد فَقُه الرجل»**. [أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم].

فاقرأ أيها المسلم هذه السورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وتأمل فيها، وتدبرها، فإنها الجامعة التي مَنْ فهمها وعمل بها فاز وأفلح في الدنيا والآخرة، واعلم أنك ستجد ما قدّمت من خير أو شر، فتثاب أو تعاقب أو يعفو الله تعالى، وتأكد أنه لا مجال للإنكار ولا بد أن ترى ما قدّمت، واعلم أن الأرض ستشهد لك أو عليك، ستشهد لك بالصلاة والتلاوة والذكر وكل أعمال البر التي عملتها عليها، وتشهد على مَنْ عصى الله عليها بالزنى والشراب والسرقة وكل معصية.

يا ابن آدم، لله عليك سبعة شهود: المكان، والزمان، واللسان، والأركان، والملكان، والديوان، والرحمٰن.

فالمكان كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

والزمان كما في الخبر: **«ينادي كل يوم أنا يوم جديد، وأنا على ما تعمل فيّ شهيد»**.

وأما **اللسان** فكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤].

والأركان كما في قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يسٓ: ٦٥].

والملكان كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ [الانفطار: ١٠].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والنسائي والطبراني.

وكتاب **الأعمال** كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: ٢٩].

وشهادة الله تعالى الذي لا يغيب عنه شيء كما قال تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١].

فكيف يكون حال العاصي بعدما يشهد عليه هؤلاء الشهود؟

ليس للإنسان مخرج إلا التوبة قبل الموت، فبادر إلى التوبة أيها المسلم، وتفكر في هذه السورة التي شرحناها وفي غيرها من القرآن، وأكِثر من الباقيات الصالحات، واجتنب المحرمات تسعد في الحياة الدنيا وبعد الممات.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ الآية قال: لما نزلت ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء السائل إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة فيردونه، ويقولون: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير كالكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، ويقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر فرغبهم في الخير القليل أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني وزن أصغر النمل ﴿خَيۡرًا يَرَهُۥ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم في «تاريخه» وابن مردويه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأكل مع النبي ﷺ إذ نزلت عليه ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده وقال: يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر، فقال: **«يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر بشر ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة»**.

وأخرج مالك وابن سعد وعبد بن حميد من طريق عائشة رضي الله عنها أن سائلاً أتاها وعندها سلة من عنب فأخذت حبة من عنب فأعطته فقيل لها في ذلك، فقالت: هذه أنقل من ذر كثير، ثم قرأت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾.

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن المنذر عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لولا ثلاث لأحببت أن لا أبقى في الدنيا: وضعي وجهي لسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار أقدمه لحياتي، وظمأ الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تنتقى الفاكهة، وتمام التقوى أن يتقي الله تعالى العبد حتى يتقيه في مثقال ذرة حتى أن يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً حتى يكون حاجزاً بينه وبين الحرام، إن الله قد بيّن للناس الذي هو يصيرهم إليه قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه ولا شيئاً من الشر أن تفعله.



سورة العاديات

مكية وآياتها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾.

هذه آيات بينات تحيا بها القلوب، ويتحقق بها المطلوب، وفيها راحة النفوس من كل نصب ولغوب، ومعناها العام: أن الله تعالى أقسم في فاتحة هذه السورة بخيل الغزاة في سبيل الله تعالى على أن الإنسان لنعمة ربه لشديد الكفران، وأنه على ذلك في الدار الآخرة لشهيد على نفسه بما كان منه، وأنه لشدة حبه المال لبخيل به، حريص عليه، ثم ذكّر الباري ﷻ في خاتمتها بالبعث، ونبّه إلى الحساب والجزاء.

وإليك التفصيل، فقوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١)﴾ أي قسماً بالخيل التي تعدو وتجري ويُسمع لها حينئذٍ ضبح، أي زفير شديد وهو صوت غير الصهيل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الخيل العادية في سبيل الله، والضبح: صوت أجوافها إذا عدت.

وقال أيضاً: وليس شيء من الحيوانات يضبح سوى الفرس والكلب والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع أو تعب.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ أي الخيل التي تخرج النار بحوافرها ويتطاير منها الشرر أثناء الجري إذا سارت في حجارة. وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾ الخيل التي تعدو لتهجم على العدو وقت الصباح لأخذه على غير أهبة منه أو استعداد، وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤﴾ أي فهيَّجن في الصباح غباراً لشدة عَدْوِهِنَّ. وقوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ أي فتوسَّطن جمعاً من الأعداء ففرقنه وشتّتن شمله.

أقسم الله تعالى بالخيل التي لها هذه الصفات، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بغير الخالق ﷻ، وإنما أقسم الله تعالى بخيل الغزاة في سبيله لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، والأجر والغنيمة، وتنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وللخيل في عَدْوِها فوائد كثيرة، فهي تصلح للطلب، وتسعف في الهرب، وتساعد في النجاة والكرّ والفرّ على الأعداء، وقطع شاسع المسافات في الزمن القليل.

ثم ذكر ﷻ المقسم عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ أ لكفور، يكفر بنعم الله عليه ويجحد، والمراد بعض أفراده، وليس كل إنسان، فالذين عصمهم الله روَّضوا أنفسهم على فعل الفضائل، وترك الرذائل ما ظهر منها وما بطن.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الكنود الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفده**» أو كما قال ﷺ.

والمعنى: أنه الذي يمنع حق الله تعالى، وقد يأكل وحده ترفّعاً على عباد الله أو بخلاً أو شحاً، ولا يرأف بعباد الله، فيضرب عبده أو أَمَتَه أو زوجته، فمثل هذا كافر بنعمة الله مخالف لما يقتضيه الشرع والعقل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ أي إن الله تعالى شاهد على أعمال العباد، وهذا أمر مسلّم به، وإن كان قد قيل: إن الضمير عائد على الإنسان نفسه، أي مع كنوده وجحوده لنعم الله تعالى عليه، ولجاجته في الطغيان، فهو شاهد على نفسه بما يعمل وإن كابر في الظاهر، فسوف يشهد

على نفسه يوم القيامة، فهو على نفسه شهيد، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يـــس: ٦٥] وكذلك كل جوارح الإنسان تشهد عليه، فالعين تقول: نظرت، والأذن تقول: سمعت، وهكذا بقية الجوارح تشهد بما فعلت.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ أي إن الإنسان لشدة حبه للمال وتعلق قلبه به، وجمعه وادخاره، لبخيل شديد في بخله، وحريص متناهٍ في حرصه، ممسك للمال مبالغ في إمساكه، يبخل على نفسه، وما علم أن ما يقدّمه من المال والأعمال الصالحة هو الذي ينفعه بعد الممات.

أخرج مسلم عن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت**» قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» فليس لك أيها الإنسان إلا ما قدّمت، فلا تحب ما أخرت على ما قدّمت، فإنك إذا أكثرت من التصدق وعمل الصالحات، إنما تقدمه لنفسك، لتجد ثوابه بعد الرحيل عن هذه الدنيا، وإذا قدّمت مفاسد الأعمال وأذية الناس، فسوف تجد ثمرته وعقابه، خزي وحزن وألم شديد في دار يسعد فيها الأتقياء، ويشقى فيها المعتدون.

ولا تستبعد أيها المسلم الموت، فإنه حق، ولا بد أن يقع لك كما وقع ويقع لغيرك، فأنت ترى الأموات بين الحين والآخر، والبعض يراهم كل يوم، أفلا تتعظ يا ابن آدم بذلك؟ أما سمعت قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥] أفلا تعلم يا عبد الله أنك راجع إلى الله تعالى، وأنه محاسبك بأعمالك؟ ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] وأنه لا بد من الحساب، ثم بعده ثواب أو عقاب، حسب ما سُطّر عليه في الكتاب، ألم

تعلم يا ابن آدم أن الله تعالى وعد المحسنين بالجنة، ونهى عن المعاصي وتوعد عليها بالنار، أما علمت أن الإنسان على نفسه لشهيد، وأنه لحب الخير لشديد؟ والخير هو المال.

ثم هدّد الباري ـ جلّ وعلا ـ الإنسان الذي صفاته ما ذُكِر في الآيات الثلاث السابقة، وزهّد في الدنيا ورغَّب في الآخرة، ونبَّه على ما هو كائن بعد هذا الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال، فقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ۝١١﴾ أي أفلا يعلم هذا الإنسان المنكر لنعم الله عليه، الجاحد لفضله وأياديه أن الله ﷻ عليم بما تنطوي عليه نفسه؟ وأنه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩] وأنه مجازي العبد على جحوده وإنكاره وكفره بنعم الله، وأذيّته وتسلطه على عباد الله، متى يكون ذلك؟... يوم يُحَصَّلُ ما في الصدور، ويُبعثر ما في القبور، في ذلك اليوم تُميَّز وتبرز الأعمال، ويخرج الناس من قبورهم ينفضون عن رؤوسهم غبارها. وخص أعمال القلوب بالذكر في قوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب، فلولا البواعث والإرادات التي في القلوب لما حصلت أعمال الجوارح.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو فأبطأ خبرها، فشق ذلك عليه، فأخبره الله خبرهم، وما كان من أمرهم فقال: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١﴾ قال: هي الخيل، والضبح: نخير الخيل حين تنخر ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢﴾ قال: حين تجري الخيل توري ناراً أصابت بسنابكها الحجارة ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣﴾ قال: هي الخيل أغارت فصبحت العدو ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤﴾ قال: هي الخيل أثرن بحوافرها يقول: تعد والخيل، والنقع الغبار ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥﴾ قال: الجمع: العدوّ.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﵄ ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧﴾ قال: الإنسان ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ قال: المال.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧﴾ قال: الإنسان شاهد على نفسه ﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩﴾ قال: حين يبعث ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ قال: أخرج ما في الصدور.



مكية وآيتها إحدى عشرة آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾﴾.

اشتملت هذه السورة على إثبات وقوع الساعة والبعث والنشور والحساب والميزان، حيث يسعد المؤمنون بثقل وزن حسناتهم، ويشقى الكافرون بكفرهم، فيقذفون في النار الحامية جزاء وفاقاً.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾ من أسماء القيامة، كالحاقة والصاخة والطامة والغاشية، وسميت بالقارعة لأنها تقرع القلوب وتفزعها، وذلك عند النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧] وقوله تعالى: ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم، أي أيُّ شيء هي القارعة؟ ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ أي أيّ شيء يعرفك بها؟ وهذا زيادة في تفخيمها وتهويلها، كأنه يقول: ما أعظمها وما أشدها! وذلك ينبئ عن أن شأنها وحالها مما لا يستطيع الخلق معرفته لفظاعتها وشدة هولها. ثم بيّن متى تكون فقال: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴿٤﴾﴾ أي يوم البعث والنشور حال الخروج من القبور، فهم يكونون كالفراش، وهي الطيور الصغيرة التي تتزاحم وتترامى على ضوء السراج ليلاً، وبها يضرب المثل في الجهل

بالعاقبة، فشُبِّهوا به في ضعفه وحيرته وسيره على غير هدى، و﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ هو المنتشر كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] هم جميع بني آدم، من آدم إلى آخر إنسان قبل قيام الساعة، فهذه البشرية جمعاء تكون في مكان واحد، وهو أرض المحشر بهذا التصوير العظيم الذي يدل على شدة فزعهم وخوفهم وحيرتهم، ويرحم الله من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ أي كالصوف المندوف في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو، كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وذلك لزوال صفتها الصلبة وتحولها إلى هباء يتطاير مع أدنى ريح، وهذا من آثار القارعة، وهي نهاية الحياة الدنيا وبداية الحياة الآخرة، حيث بعد ذلك ليس ثم دار إلا جنة أو نار ولكل نصيبها، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾ وهو الذي رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ أي في حياة طيبة وعيش هنيء تقر به عينه وتسر به نفسه في جنة الخلد والنعيم المقيم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ وهو الذي رجحت سيئاته على حسناته، أو الذي ليس له حسنات أصلاً كالكافر، لأن الكافر يجازى بحسناته إن وجدت في الدنيا، ولا تنفعه في الآخرة، لأنه كافر ولا يعتقد بالبعث والحساب ولم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي، حتى وإن كان كتابياً لأن ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وربما كان مسلماً مسرفاً على نفسه، حتى صارت سيئاته أكثر من حسناته فلهذا يجب على المسلم أن يتفقد نفسه كل يوم، وينظر في أعماله ناقداً محاسباً لنفسه، ويكثر من الاستغفار والتوبة، خاصة إذا علم أن النبي ﷺ كان يتوب ويستغفر في اليوم مائة مرة، وهو قد غفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، فكيف بغيره من أمثالنا؟ ليس لنا إلا التعلق برحمة الله تعالى، وهو أمان الخائفين.

وما هي عاقبة من خفت موازينه؟ قال تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ الهاوية من أسماء النار، والمراد أن مأواه جهنم، أي فمأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على أم رأسه في جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ

﴿١٠﴾ استفهام للتفخيم والتهويل، أي وأي شيء أعلمك ما الهاوية؟ ثم فسرها بقوله تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾﴾ أي نار شديدة الحرارة، لا تبلغ حرارتها أي نار، مهما سعرت وألقي فيها من وقود، فإنها تفوق حرارة نار الدنيا كثيراً، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم**» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله؛ قال: «**فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها**».

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ قال: هذا هو الفراش الذي رأيتم يتهافت في النار، وفي قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ قال: كالصوف، وفي قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ قال: هي الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ قال: هي النار مأواهم وأمهم ومصيرهم ومولاهم.

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقتها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون: انظروا صاحبكم يستريح فإنه كان في كرب شديد، ثم يسألونه ما فعل فلان وفلانة هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول: هيهات قد مات ذاك قبلي، فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية**».

وأخرج أبو يعلى قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده. ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا: تركناه مثل الفرخ لا يدخل في رأسه شيء إلا خرج من دبره. قال: «**عودوا أخاكم**» فخرجنا مع رسول الله ﷺ نعوده، فلما دخلنا عليه قال رسول الله ﷺ: «**كيف تجدك**» قال: لا يدخل في رأسي شيء إلا خرج من دبري. قال: «**ومم ذاك**»؟ قال: يا رسول الله، مررت بك وأنت تصلي المغرب فصليت معك، وأنت تقرأ هذه السورة ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ إلى آخرها

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ فقلت: اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي عليه في الآخرة فعجل لي عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى. قال رسول الله ﷺ: «**بئس ما قلت، ألا سألت الله أن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار**» فأمره النبي ﷺ فدعا بذلك ودعا له النبي ﷺ، فقام كأنما نشط من عقال».



سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مكية وآياتها ثماني آيات

إن القرآن كله عظات وعبر نافعات لمن تدبره وتفهمه، فتعالوا نقرأ بعض آياته العظيمة، ونتأمل في سورة من سوره الكريمة، سورة التكاثر، قيل: إن قراءتها تعدل قراءة ألف آية من كتاب الله تعالى، وهذه السورة جاءت لتنبيه الغافلين، وإنذار العصاة والكافرين، ولتبشر المؤمنين العاملين للآخرة بخير كثير ونعيم مقيم. فيها يحذر الله تعالى من عاقبة التكاثر في المال والجاه، ويخبر تعالى أن عذاب العصاة واقع لا محالة، وأن جهنم حق لا مرية فيه، وأنكم ستُسألون عن نعيم الدنيا.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

جاءت هذه السورة بعد سورة القارعة[1] والتي فيها إثبات وقوع الساعة والبعث والنشور والحساب والميزان، حيث يسعد المؤمنون بثقل وزن حسناتهم، ويشقى الكافرون بمعاصيهم وبكفرهم فيقذفون في النار الحامية جزاءً وفاقاً. جاءت سورة التكاثر بعدها لتنبيه الغافلين لاغتنام فرصة الحياة

---

(١) في الترتيب في المصحف لا في النزول.

وبذل الطاقة في عبادة الله تعالى، وأن لا يشغلهم التكاثر في الأموال والأولاد وجمع الحطام الفاني عما هم صائرون إليه، وما هم قادمون عليه، فليس للإنسان إلا ما قدّم.

قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [الزلزلة: ٣٩ ـ ٤١].

وفي الدار الآخرة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ عن الطاعة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ أي حتى يأتيكم الموت.

وقال الحسن البصري رحمه الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ في الأموال والأولاد.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ فقال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**» [رواه مسلم عن مطرف عن أبيه].

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله**».

وفي الصحيحين: «**يهرم ابن آدم، ويبقى منه اثنان: الحرص والأمل**» وقيل: أنت للمال إذا أمسكته، فإذا أنفقته، فالمال لك. يعني في أوجه الخير.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ وعيد بعد وعيد وتأكيد، أي سوف تعلمون عاقبة أمركم، وعاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت، وحانت ساعة فراق الدنيا وأهلها ودنت ساعة زيارة القبور ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ أي علماً يقينياً لا مرية فيه، ولو علمتم ذلك العلم لما ألهاكم وشغلكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر ﴿لَتَرَوُنَّ[1] ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ أي ترونها بأبصاركم

---

(١) ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء وقرأ الباقون بفتحها، ولا خلاف بين القراء العشرة في فتح التاء في ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾.

وتشاهدونها مشاهدة حقة، ومعاينة حاضرة، أعاذنا الله منها ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ قال رسول الله ﷺ: «**إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة عن النعيم، يقال له: ألم نُصح جسمك ونروك من الماء البارد؟**» والنعيم كثير.

فكل ما بك من النعم إنما هو من النعيم الذي تسأل عنه، فالصحة والفراغ والأمن والرخاء كل ذلك من النعيم. وفي الحديث: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ**».

والمعنى: أنهم مقصِّرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومَن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما**» فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أين فلان؟**» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء إذ جاء الأنصاريُّ فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «**إياك والحلوب**» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**والذي نفسي بيده لتسألنّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم**».

وروي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رجل يقال له: يعلى وكان مشركاً ليس له من الدنيا إلا قطيفة تواري عورته، ويأوي بالنهار إلى ظل شجرة، وبالليل إلى جحر كجحر الكلب، فسمع بخروج النبي ﷺ فأقبل إلى النبي ﷺ وكان شاباً، ترفعه أرض وتضعه أخرى حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ فأسلم وقعد مع أهل الصفة يطعم القبضة من العجوة والكسر من خبر الشعير، وكان لا يفارق مجلسَ النبي ﷺ حتى تعلّم أربع سور من القرآن، فقال: يا رسول الله زوِّجني؟ قال: «**أعندك مال!!**» قال: عندي أربع سور من القرآن،

ومَن كان عنده الوحي وكلام الله فهو غني، قال النبي ﷺ: **«صدقت»**.

فزوّجه شيخ من المسلمين ابنته وأشهد النبي ﷺ وأصحابه، فقال النبي ﷺ: **«يا معشر المسلمين أعينوا أخاكم»** فجمعوا له أربعة أواق فضة، فقال النبي ﷺ: **«لك أوقيتان ولزوجتك أوقيتان»** فقال: يا رسول الله قد جعلت أوقيتي لها أيضاً، فقال النبي ﷺ للشيخ والدها: **«جهزوا هذه الجارية للشاب من يومه هذا»** قال الشيخ: سمعاً وطاعة لله ﷻ ولرسوله، فجاء الشاب إلى رسول الله ﷺ فأمره أن ينصرف إلى أهله، فجاء إلى منزله فدخل إلى فراش مفروش، وإلى بساط ممدود، وإلى زوجة جالسة، وإلى سراج يزهر، وإلى طعام قد هيئ له، فلما نظر إلى ذلك بادر إلى مكان في مجلسه فصلّى فيه ركعتين شكراً لله ﷻ لما رأى، ثم قام وصلّى ركعتين ثم رفع رأسه إلى السماء فحمد الله وأثنى عليه وشكر نعمته، ثم جعل يقوم في خلال ذلك فيصلي ركعتين ثم يقوم إلى مثل حاله من الثناء فالشكر لله ﷻ لما رأى، فلم يزل كذلك حتى أصبح، ثم غدا إلى المسجد فصلّى مع رسول الله ﷺ الغداة والظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ثم رجع إلى منزله، فلما عاين أهله وما هيئ له بادر إلى مسجده فصلّى مثل صلاته في الليلة الأولى وجعل يحمد الله ﷻ ويشكره بين كل ركعتين حتى أصبح فغدا إلى المسجد فصلّى مع رسول الله ﷺ ففعل مثل ذلك حتى تمت له ثلاث ليال فجاء الشيخ في اليوم الرابع فدخل على ابنته فسألها عن زوجها وحالها معه! فقالت: لا أدري ما زوجي ما يعرف غير الصلاة وهو الليل كله يحمد الله ويثني عليه ويصلي، فجاء الشيخ إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: **«ما منعك من أهلك!»** فقال: يا رسول الله تذكرت شأني وكنت مشركاً لم يكن لي مأوى إلا جحر كجحر الكلب آوي إليه الليل والنهار أتبع ظلال الشجر والحيطان حين أخرج من جحري فهداني الله للإسلام وعلمني أربع سور من القرآن فشرح الله صدري بها ونوَّر بها قلبي، فلما زوجتني هذه الجارية نظرت إلى فراشها وإلى حسنها وجمالها ولم أرَ فراشاً قط منذ كنت، ونظرت إلى سراج يزهر ولم يكن لي سراجٌ قط، ونظرت إلى هذه الحالة فتدبرت إحدى سوري الأربع فزهّدني الله فيها وما عندها، فقال النبي ﷺ: **«وأي سورة هي؟»**

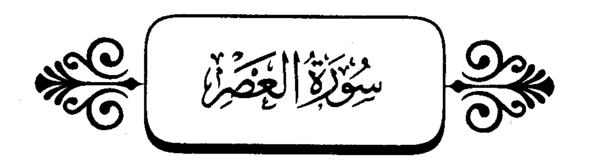
قال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ ثم بكى وبكى رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما هدؤوا قال الشاب: يا رسول الله خصني منك بدعوة، فقال: «**اللهم اغفر له الكثير، واشكره على اليسير، واغنِه برحمتك**» فلم تأتِ عليه جمعة حتى قيل للنبي ﷺ: إن الشاب قد مات، فقال النبي ﷺ: «**لا إله إلا الله إذا فرغتم من غسله أخبروني**» فأخبروه ﷺ فقال: «**هنيئاً لك الجنة**» ثم سأل زوجته: هل نال منها شيئاً؟ قالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً ما نال مني شيئاً.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: يعني عن الطاعة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ قال: يقول: حتى يأتيكم الموت ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ يعني لو قد دخلتم قبوركم ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكدوش في نار جهنم ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ يعني: شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم.

عن ابن عباس قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦] ثم قال: وقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ معناها ألهاكم التكاثر في الدنيا بجمع الحطام واكتساب الآثام والتمادي في الإجرام.

جاء في الأثر: «تجهزوا لقبوركم فإن القبر ينادي كل يوم سبع مرات، يقول: يا ابن آدم، أيها الضعيف، ارحم نفسك في حياتك قبل أن تلقاني، فإنك إذا لقيتني وكنت عاملاً بطاعة مولاك رحمتك، ورأيت مني السرور، وإن لم ترحم نفسك، لم أرحمك، أنا بيت الدود مع الندامة الطويلة، وأنا بيت الوحشة مع الجوع الشديد والشدة، أنا بيت العطش مع الظلمة، ابن آدم إياك أن تغرك الحياة الدنيا فإن ممرك علي، وأنا أول منازلك إلى الآخرة فإن نجوت مني، نجوت من كل شدة تتخوفها».

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: يعرض الناس يوم القيامة على ثلاثة دواوين: ديوان فيه الحسنات وديوان فيه النعيم وديوان فيه السيئات، فيقابل ديوان الحسنات ديوان النعيم فيستفرغ النعيم الحسنات، وتبقى السيئات مشيئتها إلى الله ﷻ، إن شاء عذب وإن شاء غفر.



مكية وآياتها ثلاث آيات

أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مليكة الدارمي وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ...﴾ إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

في هذه السورة العظيمة الجامعة الوجيزة أقسم الله تعالى بالعصر، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما نحن فلا يجوز لنا أن نقسم بغير الله تعالى، والعصر هو الزمان، أقسم به تعالى لانطوائه على العجائب والعبر الدالة على قدرة الله وحكمته على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فتأمل أيها المسلم في هذه السورة العظيمة، تجد أنها جامعة لكل أسباب النجاة والفوز والفلاح، حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ أقسم الله تعالى بالعصر وهو الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم من خير وشر وما ينطوي

عليه من تقلبات وتغيرات وعجائب دلالة على الاقتدار، وبرهان على حكمة الواحد القهار.

قال ابن عباس: هو الدهر، وفيه العبرة لمرور الليل والنهار على ترتيب واحد، وقال غيره: المراد صلاة العصر لأنها الصلاة الوسطى، وقيل: هو عصر النبي ﷺ، والمشهور الأول.

فأقسم الله تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي خسارة وهلاك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهؤلاء استثناهم الله تعالى من الخسران، وهم الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله تعالى في كتابه من أمر، واجتناب ما نهى عنه من معاصيه، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أوصى بعضهم بعضاً بالصبر، وهو حبس النفس عما لا ينبغي فعله، وهو أنواع: الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معاصيه، والصبر على أقدار الله المؤلمة. وقال قتادة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، قال: الحق كتاب الله تعالى، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ قال: الصبر طاعة الله.

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ قال: إلا من آمن ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال: إلا الذين صدقوا الله ووحدوه، وأقروا له بالوحدانية والطاعة، وعملوا، الصالحات، وأدوا ما لزمهم من فرائضه، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصيه، واستثنى الذين آمنوا من الإنسان، لأن الإنسان بمعنى الجمع، لا بمعنى الواحد.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ قال: قسم أقسم به ربنا تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ قال: الناس كلهم، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ يشترط عليهم.

وقال الإمام ابن القيّم في «مفتاح دار السعادة»[1]: قال الشافعي رضي الله عنه:

---

(١) مفتاح دار السعادة ص(٥٣).

لو فكر الناس كلهم في هذه السورة، لكفتهم. وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها: معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه. فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة. وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر، إلا الذين آمنوا. وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به، فهذه مرتبة. وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، وصى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً، فهذه مرتبة ثالثة. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكملاً لغيره. وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية الإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات. وتكميله غيره، بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها، هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير. انتهى.



مكية وآياتها تسع آيات

لقد توعد الله ﷻ بالويل - وهو كلمة عذاب أو واد في جهنم - من اتصف بهذه الصفات: وهي الهمز واللمز وجمع المال وتعداده، والانشغال به عن ذكر الموت وما بعده.

ثم بيَّن سبحانه عاقبة من اتصف بهذه الصفات ومصيره الذي ينتظره: بأنه سيطرح ويلقى في نار حطمة موقدة شديد حرها، مغلقة الأبواب دائماً وأبداً لا يمكن الخروج منها، ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧].

❖ ❖ ❖

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ[1] مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ[2] مُّمَدَّدَةٍ﴾.

وفي أسباب النزول قيل: نزلت في الأخنس بن شُريق، كان يلمز الناس ويغتابهم، وبخاصة رسول الله ﷺ، وقيل: في جميل بن عامر الجمحي، وقال

(١) ﴿جَمَعَ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح وخلف العاشر بتشديد الميم، وقرأ الباقون بتخفيفها.

(٢) ﴿عَمَدٍ﴾ قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر بضم العين والميم وقرأ الباقون بفتحهما.

مقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه، وروي أيضاً أن أمية بن خلف كان يفعل ذلك، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الهُمْزَةُ: الذي يهمز الناس بفعله؛ بمعنى أنه يشير إليهم بيده وعينه على وجه التنقص والازدراء لهم.

واللمزة: هو الذي يلمز الناس بقوله، فيسلط لسانه بسبهم واغتيابهم والكلام في أعراضهم.

ومن صفات هذا الهماز اللماز أيضاً أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده، والانشغال بتنميته؛ بالنهار يجمع هذا إلى هذا، وبالليل ينام كأنه جيفة منتنة وقد أخذ عليه كلَّ وقته، ومع هذا لا رغبة له في الإنفاق في طريق الخيرات ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

ويظن أن هذا المال سيخلده في الدنيا ويزيد في عمره ولم يدر أن البخل يقصم العمر، ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

وقد حمله إعجابه بماله على تنقص غيره، فصار هُمَزَه لُمَزَه إن من كانت هذه صفاته: الهمز واللمز والانشغال بجمع المال عن الاستعداد للآخرة، فسيكون مصيره وخيماً، وعذابه أليماً؛ سيلقى أسوأ مصير؟

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي نار تُحَطِّم ما يلقى فيها وتهشمه بقوة. والحطمة هي: إحدى طبقات النار، أعاذنا الله منها، ثم بيَّن ﷻ أن هذه النار لا تتصورها العقول، ولا تبلغ شدة هولها الأفهام، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾؟ استفهام للتضخيم والتهويل، ثم بيَّنها بقوله جلَّ ذكره: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾، فإضافتها إلى الله، لبيان عظم شأنها وشدة هولها، وأخبر أنها موقدة دائماً وأبداً لا تطفأ ولا تبرد.

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي يصل حرها إلى القلوب. لا تقتصر على ظاهر البدن أو أطراف الأعضاء بل يعم حرها ظاهر البدن وباطنه.

ثم أخبر سبحانه أن هذه النار مغلقة الأبواب مسدودة المنافذ، فقال

تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾، ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾.

والعمد هي: أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار وتشد تلك الأطباق بالأوتاد حتى يرجع عليهم غمها وحرها فلا يدخل عليهم رَوح ولا يخرج منها غم.

وبعد، فهذا إخبارٌ من أصدق القائلين، وتهديد من عزيز مقتدر، يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، إنه وعيد لمن أعجبته نفسه، فاحتقر الناس بالهمز واللمز، وأعجبه ماله حتى صار عبداً له، واشتغل به عن طاعة ربه، وحبسه عن واجبه، وصار يظن أنه سيبقى دائماً لهذا المال، وسيبقى هذا المال له، لا يفكر في حساب، ولا يخاف من عقاب، ولا يطمع في ثواب.

إن هذه السورة العظيمة الكريمة تحذرنا تحذيراً مؤكداً من هذه الصفات، وتحثنا على الإتصاف بأضدادها من صفات الخير كالتواضع واحترام المسلمين والكف عن أعراضهم وإطابة المكاسب، وعدم الاغترار بالمال والغنى؛ والانشغال به عما أوجب الله.

إن الله تعالى لم يحرم علينا جمع المال من وجوهه المباحة ولكنه حرم علينا الجمع الذي يصاحبه الغرور ومنع الحقوق الواجبة والمستحبة.

إن الله سبحانه وتعالى إنما ذم من ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، وذم أيضاً ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾، وأثنى ﷻ على ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الليل: ٥، ٦] وحرّم أذية العباد فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾.

وجاء عن النبي ﷺ في صحيح البخاري أنه قال: «**إن شرَّ الناس منزلةً عند الله مَن وَدَعَهُ الناسُ اتقاءَ فحشه**»، وقال ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، بحسبِ امرئٍ من الشر أن يحقرَ أخاه المسلم**» [أخرجه مسلم]، وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**» [رواه مسلم].

وفي الصحيحين قال ﷺ: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمنُ جارُه بوائقَه**».

وروى أبو داود والإمام أحمد عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاسٍ يخمشون وجوهَهم وصدورَهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الذين يأكلون لحومَ الناس ويقعون في أعراضهم»**.



مكية وآياتها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

هذه السورة نزلت على الرسول ﷺ في مكة وهو يواجه أذى المشركين له، لأنهم قوم لا يعلمون، ففيها بيان حرمة بيت الله الحرام وأن الله تعالى مانع بيته وحاميه في كل زمان، وتسلية الرسول ﷺ عما يلاقيه من كفار قريش، وتذكير قريش بنعمة الله تعالى عليهم، حيث كفاهم مئونة عدوهم فأهلكه، لعلهم يرعوون، فعرضت السورة تلك الحادثة التاريخية الهامة، والتي وافقت عام ميلاد النبي ﷺ، وكانت من أعظم الإرهاصات لعصر النبوة، وكأن لسان الحال يقول: يا قوم اذكروا مِنَّة الله عليكم ونعمته، إذ دفع عنكم عدوكم أبرهة وحماكم من شره، فهذا رسول الله بين ظهرانيكم، يتلو عليكم كتاب ربكم، فآمنوا خيراً لكم، وقد علمتم ما أصاب أصحاب الفيل بسبب كفرهم وطغيانهم، فلستم بمأمن من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ أي ألم ينته إلى علمك فعل ربك بأصحاب الفيل؟ الاستفهام تقريري، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، والمعنى: قد علمت ذلك، وأصحاب الفيل هم الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة وهم الحبشة وقائدهم أبرهة الحبشي الأشرم، وستأتي قصتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ أي ألم يجعل مكرهم وسعيهم لتخريب الكعبة في تضييع وخسران ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أي وأرسل عليهم طيوراً أتتهم جماعات جماعات، كانت تشاهد وهي تخرج من البحر، شاهدها أهل مكة المعتصمون بقمم الجبال رأوها تمر من فوقهم وتتجه نحو الغزاة فتفتك بهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ أي من طين مشوي متحجر وهو حجر وطين مختلط ليس كبيراً، الحجر الواحد يشبه الحمصة أو العدسة، فكان كل طير يحمل ثلاثة أحجار، واحدة بمنقاره واثنتين بمخلبيه، كل واحدة في مخلب، فيضرب الرجل من هؤلاء الأشقياء بحجر في رأسه فيخرج من دبره، فيتمزق جسمه فيهلك، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ أي كزرع أكلته الدواب، ووطئته بأقدامها حتى تفتت وصارت تعصف به الرياح.

وقد كان السبب الذي من أجله حلت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل، مسير أبرهة الحبشي. بجنده مع الفيل إلى بيت الله الحرام لتخريبه. وواقعة الفيل في ذاتها معروفة متواترة الرواية. حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث. فيقولون: ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك. وتفصيل نبئها على ما أثره ابن هشام: أن أبرهة الحبشي كان أمير صنعاء للنجاشي. وكان ذا دين في النصرانية، فبنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها. ثم كتب للنجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك. ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعد فيها (أي أحدث فيها) ثم خرج فلحق بأرضه. فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة، لما سمع قولك: (اصرف إليها حج العرب) غضب فجاء فقعد فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل. وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج

إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: ذو نفر. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه، فأجابه إلى ذلك من أجابه.

ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأتى به أسيراً. فلما أراد قتله قال له ذو نفْر: أيها الملك! فلا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق. وكان أبرهة رجلاً حليماً. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له. حتى إذا كان بأرض خثعم عرض نفيل بن حبيب الخثعميّ في قبيلي خثعم: شهرانَ وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب. فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً، فأتى به. فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك! لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب. وهاتان يداي لك على قبيلي خثعم: شهران وناهس، بالسماع والطاعة. فخلى سبيله وخرج به معه يدله. حتى إذا مر بالطائف خرج له مسعود بن معتب الثقفيّ في رجاله ثقيف. فقالوا له: أيها الملك! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه. فتجاوز عنهم ـ واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ـ فبعثوا معه أبارغال يدله على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمَّس. فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك: فرَجمت قبرَه العرب. فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس. فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مفصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة. فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها. فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول لك: إني لم آت لحربكم. إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب، فلا حاجة لي في دمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حناطة مكة سأل من سيد

قريش وشريفها؟ فقيل له: عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له: ما أمره به أبرهة. فقال له عبد المطلب: والله! ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ﷺ (أو كما قال) فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه. وأن يخل بينه وبينه، فوالله! ما عندنا دفع عنه. فقال له حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر. فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً حتى دخل عليه وهو في مَحْبَسه. فقال له: يا ذا نفر! هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر، وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشيًّا. ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي. فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير، إن قدر على ذلك، فقال: حسبي.

فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة. يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال. وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، فقال: أفعل. فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة، وهو يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال. فأذن له عليك فليكلمك في حاجته. قال: فأذن له أبرهة. قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم. فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته. وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه. فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان. فقال: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتلكمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آباتك، قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: وما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك. وكان، فيما يزعم أهل العلم، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة ـ

يعمر بن نفاثة سيد بني بكر وخويلد ابن واثلة سيد هذيل. فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليه. والله أعلم، أكان ذلك أم لا.

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له. فلما انصرفوا عنه، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم مِن معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة. وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمّ إلا العبدَ يمـ — نع رَحْلَهُ، فامنع حِلالكْ
لا يغلبنّ صَليبُهُمْ — ومحالُهُم، عَدْواً مِحَالك
إن كنت تاركهم وقبـ — لتَنَا، فَأَمْرٌ ما بدا لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وعبَّى جيشه، وأبرهةٌ مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه. فقال له: ابرك أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل. وخرج نفيل يشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم. فضربوا رأسه ليقوم فأبى. فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ـ أي أدموه ـ ليقوم فأبى. فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلَسَان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وليس كلَّهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا. ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أيـن الـمـفـرُّ والإلـه الـطـالـبْ   والأشرم المغلوبُ ليس الغالبْ

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، على كل منهل. وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة. كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة تَمُثُّ ـ أي تسيل ـ قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر. فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فيما يزعمون[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٣٠/ ٢٩٩ ـ ٣٠٣) بسنده إلى ابن إسحاق.



مكية وآياتها أربع آيات

أخرج البخاري في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ، قال: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: إني فيهم وفي لفظ النبوّة فيهم، والخلافة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين، وفي لفظ عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾». قال ابن كثير: هو حديث غريب.

وأخرج الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوّام قال: قال رسول الله ﷺ: **«فضل الله قريشاً بسبع خصال. فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قريش، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم وهي ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾** وفضلهم بأن فيهم النبوّة والخلافة والحجابة والسقاية».

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ[1] قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ[2] رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

تحدثت هذه السورة عن تذكير قريش بنعم الله عليهم، حيث أسكنهم

(١) ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ قرأ الشامي بهمزة مكسورة بعد اللام مع حذف الياء الساكنة بعد الهمزة، وأبو جعفر بحذف الهمزة المكسورة مع إثبات الياء، والباقون بإثبات الهمزة والياء.

(٢) ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ قرأ أبو جعفر بحذف الياء بعد الهمزة وغيره بإثباتها.

بجوار بيته الحرام الذي حماه من كل معتدي، فنالوا بذلك الأمن، ورحلوا في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في تجارتهم لا يتعرض لهم أحد بسوء، في حين يتخطف الناس من حولهم، وذلك يوجب عليهم توحيد الله وإفراده بالعبادة، فهو الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ قريش هم ولد كنانة، ومعنى الإيلاف: الإلف والاعتياد، واللام متعلق بالفعل بعده ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ أي من أجل تيسير الله على قريش وتسهيله لهم ما كانوا يألفونه من رحلتي الشتاء والصيف، حيث في الشتاء يرحلون إلى اليمن، وفي الصيف يرحلون إلى الشام، وذلك للتجارة وجلب ما يحتاجون إليه من تلك البلاد، فيحصل لهم من الرحلتين فوائد كثيرة، ومكاسب كبيرة، فأمرهم الله تعالى أن يعبدوه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ شكراً لله تعالى على هذه النعمة، حيث كانوا يتنقلون في البلاد آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران بيت الله، وسكان حرمه، فامتنّ عليهم تعالى ليوحدوه ويشكروه، ولعل هذا من أساليب الدعوة، لأنهم كانوا في جاهلية مظلمة لا يحللون ولا يحرمون، ولا يعرفون وحياً لا نبوة ولا بعثاً ولا نشوراً، لذلك ذكّرهم بنعمه ليعبدوه، وإلّا فإنّ عبادته حتمية وواجبة وجوباً ثابتاً لا اختيار لأحد فيها، لأنها العلة والسبب لخلق الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

ودخلت الفاء، لما في الكلام من معنى الشرط ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعده من أجل هذه النعمة الجليلة، حيث يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون بفضل الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ أي فليعبدوا الله تعالى وحده، وهذا أمر من الله لهم، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وهو غاية التذلل والخضوع له ﷻ، فالله تعالى وحده هو المستحق للعبادة، لأن قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ يعني هذا الإله العظيم الذي أطعمهم وهم جياع، لأنهم بواد غير ذي زرع، جعله الله بلداً آمناً تجلب إليه الأرزاق من كل الأصقاع، وحقق الله لهم الأمن

في بلدهم وفي أسفارهم لما ألقاه في قلوب الناس من هيبة البيت الحرام، مكة وسكانها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ١.٠١,﴾ [العنكبوت: ٦٧] وقال هنا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ أفبعد هذا كله يعبدون الأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضر، ويتركون عبادة الملك العلام الذي يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أين تذهب عقول مثل هؤلاء:

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ قال: عادة قريش رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف، وفي قوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ قال: كانوا يقولون: نحن من حرم الله فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية يأمنون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أغير عليهم.

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عمر بن عبد العزيز قال: كانت قريش في الجاهلية تحتفد، وكان احتفادها أن أهل البيت منه كانوا إذا سافت - يعني هلكت أموالهم - خرجوا إلى براز من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا من قبل أن يعلم بخلتهم، حتى نشأ هاشم بن عبد مناف، فلما نبل وعظم قدره في قومه قال: يا معشر قريش إن العز مع الكثرة، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالاً وأعزهم نفراً، وإن هذا الاحتفاد قد أتى على كثير منكم، وقد رأيت رأياً. قالوا: رأيك راشد فمرنا نأتمر. قال: رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غني فأضم إليه فقيراً عياله بعدد عياله، فيكون يوازره في الرحلتين رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن، فما كان في مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في ظله، وكان ذلك قطعاً للاحتفاد قالوا: نعم، ما رأيت فالف بين الناس. فلما كان من أمر الفيل وأصحابه ما كان وأنزل الله ما أنزل وكان ذلك مفتاح النبوة وأول عز قريش حتى أهابهم الناس كلهم وقالوا: أهل الله والله معهم، وكان مولد النبي ﷺ في ذلك العام، فلما بعث الله رسوله ﷺ كان فيما

أنزل الله عليه يعرف قومه وما صنع إليهم وما نصرهم من الفيل وأهله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ . . .﴾ إلى آخر السورة، ثم قال: ولم فعلت ذلك يا محمد بقومك وهم يومئذٍ أهل عبادة أوثان فقال لهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ . . .﴾ إلى آخر السورة.



مكية الأوائل مدنية الأواخر
آياتها تسع آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾.

تحدثت هذه السورة عن مكذّب بالجزاء ومنافق ومرائي، فأما المكذب بالجزاء فمن صفاته أنه يهين اليتيم ويزجره غلظة لا تأديباً، وأنه لا يفعل الخير ولا يدل عليه، لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً، ومثله المنافق نفاقاً اعتقادياً، وإلا لما حصلت منه أفعاله القبيحة، مثل تأخير الصلاة عن وقتها تساهلاً عدم مبالاة بها، فهو إن صلّى فبلا خشوع ولا أدنى اهتمام بها. وإن فاتته فلا يندم عليها، ومنهم المرائي بعمله، المانع معونته عن الناس، فهؤلاء موعودون بالويل والهلاك إن ماتوا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ الخطاب للنبي ﷺ لأنه المنزل عليه القرآن والحكم عام لكل ذي لِبّ ليتحرز المسلم مما ذكر من هذه الصفات الذميمة المهلكة، وهي الكفر والنفاق والرياء، على ما سيأتي، ولاستفهام للتعجيب والتشويق، أي هل عرفت الذي يكذب بالحساب والجزاء في الآخرة، وذلك مستلزم التكذيب بالبعث، كما قال تعالى عن هذا الصنف الكافر من الناس أنهم يقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات: ١٦ ـ ١٧] الجواب ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ۝١٨﴾

[الصافات: ١٨] ومن أقوال السلف حول قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ قال الحسن: هو الكافر، وقال ابن جريج: يكذب بالحساب وقال ابن عباس: يكذب بحكم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ تفسير للمكذب بالدين، فهو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه، قيل: نزلت في أبي جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة وأشباههم، وقيل: كان أبو جهل وصياً ليتيم، فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً، فقال له ـ أي اليتيم ـ أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، وكان غرضهم الاستهزاء به، والنبي ﷺ لا يرد محتاجاً، فذهب معه إلى أبي جهل، فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم، فعيرته قريش، وقالوا: أصبوت؟ فقال: لا والله ما صبوت، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيَّ.

وقيل: إن رجلاً من المشركين نحر جزوراً، فسأله يتيم لحماً، فقرعه بعصاه، وكل هذا يبين مدى القسوة التي كان عليها المكذبون بيوم الدين.

ومن صفاتهم أيضاً أن أحدهم ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ أي لا يطعمه ولا يحث غيره على إطعامه، لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وتلك من صفات الظلمة قساة القلوب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣٧].

قيل: إلى هنا نزل بمكة فيمن ذُكر، وما بقي من السورة نزل بالمدينة النبوية في بعض المنافقين.

فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ أي هلاك وعذاب للمصلين المنافقين، وهم ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أي غافلون عنها، لا يقيمونها كما يجب أن تقام، فيؤخرونها عن وقتها تهاوناً بها، ولا يتمون أركانها من ركوع وسجود وطمأنينة... إلخ.

قال ابن عباس: هو المصلِّي الذي إذا صلّى لم يرج ثواباً، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً. اهـ.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الآية، فقال: **«هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»** [أخرجه ابن جرير].

فالسهو عن الصلاة من أفعال المنافقين، أما السهو في الصلاة فقد يقع من المؤمنين، لأن سهو المنافق ترك وقلة إلتفات إليها، أما المؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال وجبره بسجود السهو مع حزن في نفسه لما وقع منه من السهو في صلاته، ولا يلام عليه.

ومن أوصاف أولئك الذين وُعدوا بويل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ أي يراؤن الناس بأعمالهم، في الصلاة وفي التلاوة وفي الصدقة وغير ذلك ليقال إنهم من الصالحين الأتقياء، وإذا خلى لم يفعل شيئاً من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وفي الصحيحين: **«من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به»**، فمن أظهر عمله رياء وسمعه فهو واقع تحت هذا الوعيد، أما من أظهره ليقتدى به فرضاً كان أو نفلاً فهو محمود.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ أي يمنعون ما يجب بذله من المواعين، وهي الأواني يمنعونها، فلا يعيرونها من يحتاج إليها، مثل الفأس والقدر والدلو والإبرة والماء والملح والنار، ونحو ذلك، فهذا دليل على بخلهم، والبخل مذموم.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ قال: هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعونهم العارية بغضاً لهم وهي الماعون.

وأخرج الباوردي عن الحرث بن شريح قال: قال رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يمنعه الماعون، قالوا: يا رسول الله، ما الماعون؟ قال: في الحجر وفي الماء وفي الحديد، قالوا: أي الحديد؟ قال: قدر النحاس وحديد الفأس الذي تمتهنون به. قالوا: فما هذا الحجر؟ قال: القدر الذي من الحجارة»**.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط» وابن مردويه والبيهقي في «سننه» من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم.

وأخرج الفريابي وابن المنذر والبيهقي عن عكرمة أنه سئل عن الماعون فقال: هي العارية، فقيل: فمن يمنع متاع بيته فله الويل؟ قال: لا ولكن إذا جمعهن ثلاثهن فله الويل إذا سها عن الصلاة ورايا ومنع الماعون.



مكية وآياتها ثلاث آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

تحدثت هذه السورة عن فضل الله تعالى عل نبيه ﷺ بما أعطاه من الخير الكثير والنعم العظيمة في الدنيا وفي الآخرة، كسورتي الضحى والشرح في تعداد النعم على رسول الله ﷺ، ومن ذلك نهر الكوثر الذي ثبت خبره وصفته في السنة، وأُمر النبي ﷺ بإدامة الصلاة خالصة لله تعالى، ونحر الهدي شكراً لله تعالى.

وختمت السورة ببشارة النبي ﷺ بعز الدنيا والآخرة له ولأتباعه، وبالذّل والحقارة لأعدائه الذين أبغضوه.

ومن أسباب نزولها: ما أخرجه البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى هذا المنصبر المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السقاية، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال: لما أوحي إلى النبي ﷺ، قالت قريش: بتر محمد منا، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

وقد وردت روايات أخرى ومنها أن قريشاً وأعداء النبيّ ﷺ كانوا يقولون: إن محمداً أبتر لا عقب له. فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ أي العدد الكثير، ولست بالأبتر الذي قالوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ أي الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومنه القرآن والحكمة والنبوة والدين والحق والهدى وما فيه سعادة الدنيا والآخرة ومنه أيضاً نهر في الجنة كما في صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً؛ فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليّ آنفاً سورة ـ فقرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم؛ قال: «**فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم**(١) **فأقول: إنه من أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك**».

وأخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﵄ أنه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر الجنة قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ قال: الخير الكثري. وقال أنس بن مالك: نهر في الجنة، وقالت عائشة: هو نهر في الجنة ليس أحد يدخل أصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر.

وورد في الحديث في صفة نهر الكوثر: «**ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلىٰ مذاقاً من العسل وأطيب رائحة من المسك وآنيته كنجوم السماء كثرة وحسناً، من شرب منه لا يظمأ ومن توضأ منه لا يشعث**» أو كما قال. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ شكراً لله تعالى على هذه النعمة العظيمة أن تصلي وتنحر له، والمراد جميع الصلوات ويدخل فيها صلاة عيد

---

(١) قوله: (فيختلج العبد منهم) أي يُنتزع ويُجذب منهم.

الأضحى دخولاً أولياً، لأن السنة أن يصلي المسلم صلاة عيد الأضحى ثم ينحر أضحيته، وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يصلي العيد، ثم ينحر نُسُكه، ويقول: «**من صلّى صلاتنا، ونسك نُسُكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له**». فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم، قال: «**شاتك شاة لحم**» قال: فإن عندي عناقاً(١) هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «**تجزئك ولا تجزئ أحداً بعدك**».

وفي الآية والحديث دليل على وجوب تقديم صلاة العيد على النحر، ويشمل صلاة الصبح بمزدلفة ثم نحر الهدي بمنى، والمقصود أن هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يخلص لله تعالى صلاته ونسكه والأمة تبعاً له، عليه الصلاة والسلام، بل هي المقصودة بالتشريع، ولعل من معاني الآية أنه كان ناساً يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله تعالى، لأنه ﷺ كان بين مشركين، فأمره الله تعالى أن يصلي له وينحر له متقرباً إلى ربه بذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولهذا الأمر الإلهي الكريم أمتثل وأهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مئة بعير، ونحر منها ثلاث وستين بيده، وأعطى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الباقي فنحرها. وتصدق بجميع أجزائها إلا بضعة واحدة من كل ناقة، فأخذها وجعلت في قدر، فطبخها فأكل من لحمها، وشرب من مرقها، وأمر بالصدقة حتى بجلالها وجلودها عليه الصلاة والسلام، والأمر في الآية أمر له وللأمة، فعلينا أن نخلص الصلاة لله، وأن نخلص النحر لله كما أمر بذلك نبينا ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ أي مبغضك هو الأقل الأذل المنقطع النسل والعقب، وهذا الدعاء مستمر في حق كل من أبغض النبي ﷺ أو أبغض شيئاً مما جاء به من الهدى والحق والنور المبين، وذلك في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

---

(١) العناق: الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم له سنة.



مكية وآياتها ست آيات

جاء في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ في ركعتي الطواف، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وروى الإمام أحمد عن الحارث بن جبلة قال: قلت: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله عند منامي قال: «**إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ:** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، فإنها براءة من الشرك».

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[١].

هذه السورة سورة التوحيد الخالص والبراءة من الشرك، فيها أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقطع طمع المشركين في مساومتهم إياه في الحق، حيث

---

(١) ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ فتح ياء ﴿وَلِىَ﴾ نافع وهشام وحفص والبزي بخلق عنه، وأسكنها الباقون، وهو الوجه الثاني للبزي، وأثبت ياء دين ولاصلاً ووقفاً يعقوب وحذفها الباقون في الحالين.

عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه سنة ويعبد آلهتهم سنة! وهذا يدل على غاية جهلهم وأن عقولهم مظلمة، قد تراكم عليها صدأ الجاهلية حتى أصبحت لا تميز بين الحق والضلال، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد عليهم بالحق الذي لا مرية فيه، وهو أن الدين الحق عبادة الله وحده لا شريك له، فهو باقٍ على عبادة الله الذي لا إله غيره، وهم باقون على عبادة آلهتهم التي لا تغني من الحق شيئاً، فلهم دينهم الباطل وله دينه الحق.

وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول هذه السورة ومنها ما أورد أبو جعفر الطبري بسنده عن سعيد بن ميناء مولى البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ حتى انقضت السورة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المقترحين الباطل: يا أيها الكافرون بالله ورسوله وكتابه، المشركون في عبادة الله أصناماً لا تضر ولا تنفع ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ الآن ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ الآن ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ و«ما» بمعنى مَنْ، أي من أعبد، وهو الله تعالى، فأنا أعبد الإله الحق، وهو الله سبحانه وتعالى رب كل شيء ومليكه، أما أنتم فتعبدون الأحجار والأوثان، فشتان بين عبادة الواحد الديان وعبادة الأوثان ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ تأكيد لما سبق من البراءة من عبادة الأصنام، وقطع أطماع الكفار في مساومتهم إياه ﷺ، والمعنى: لا أعبد هذه الأصنام في الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدون من دون الله أبداً ما عشت، فلا أعبد أصنامكم الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي ولستم أنتم في المستقبل بعابدين إلٰهي الحق الذي أعبده، وهو الله تعالى لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ولا ند، ولا صاحبة ولا ولد ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الشرك ﴿وَلِىَ دِينِ﴾ التوحيد، فلا أنا عابد عبادتكم، ولا أنتم عابدون عبادتي.

فمعنى الآيتين ٢ و٣ الاختلاف التام في المعبود، فإن إله المشركين الأوثان، وإله محمد ﷺ ومن تبعه الرحمٰن، وأما الآيتان ٤ و٥ فتدلان على الاختلاف التام في نفس العبادة، فعبادة النبي ﷺ خالصة لله تعالى، وعبادة المشركين شرك مخلد في النار، وقال البخاري: يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ الإسلام. ولم يقل: ديني، لأن الآيات بالنُّون فحذفت الياء كما قال: ﴿يَهْدِينِ﴾ و﴿يَشْفِينِ﴾. وقال غيره ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ الآن؛ ولا أجيبكم فيما بقي من عمري ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ وهمُ الذين قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٤٦].

وأخرج الطبراني في الصغير عن علي قال: لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ قال: «**لعن الله العقرب لا تدع مصلياً ولا غيره**» ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

وأخرج أبو يعلي عن جبير بن مطعم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**أتحب يا جبير إذا خرجت سفراً أن تكون أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زاداً؟** قلت: نعم بأبي أنت وأمي. قال: «**فاقرأ هذه السور الخمس** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ **وافتتح كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم**». قال جبير: وكنت غنياً كثير المال، فكنت أخرج في سفر فأكون من أبذهم هيئة وأقلهم زاداً، فما زلت منذ علمنيهن رسول الله ﷺ وقرأت بهن أكون من أحسنهم هيئة وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفري.

قال ابن كثير[1] : استدل الإمام الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة فورّث اليهود من النصارى وبالعكس، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به. لأن الأديان ما عدا الإسلام، كلها كالشيء الواحد في البطلان. وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود، وبالعكس، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتوارث أهل ملتين شتى**».

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٠).



سورة النصر

مدنية وآياتها ثلاث آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ③﴾.

هذه السورة بشارة للنبي ﷺ بالنصر وظهور الإسلام على كل أعدائه، وقد كان ذلك ممثلاً في فتح مكة، إذْ أن العرب كانت تنتظر ما يحدث في مكة، فمن ظهر في مكة فهو على حق، ومن كان معتدياً قصمه الله كما وقع لأبرهة وجنوده عندما أراد تخريب البيت، فأهلكه الله وجنوده.

ولما كان فتح مكة على يد سيد الخلق محمد ﷺ، وهُزم المشركون، وأصبحت مكة معقل الإسلام، ودوّى فيها صوت الحق: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وارتفع ذلك الصوت في جنبات المسجد الحرام، دانت العرب واستسلمت لدعوة الحق، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وفي هذه السورة أمر الله تعالى نبيه ﷺ إذا رأى ذلك أن يسبح بحمد ربه، وينزهه عما لا يليق به، ويستغفره لنفسه وللمؤمنين لأنه هو التواب الرحيم.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه: قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه: قال: «**خبرني ربي إني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله**

وأتوب إليه فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾... » إلخ.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ لدينه الحق على الباطل ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ أي فتح مكة الذي حققه الله تعالى لنبيه ﷺ، وهو انتصار الحق على الباطل، وغلبة التوحيد على الشرك، وظهور الإسلام واضمحلال الشرك وأهله ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ أي ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعات جماعات من غير حرب ولا قتال، وقد كانوا قبل ذلك يدخلون آحاداً، لكن بعد فتح مكة صارت العرب تأتي من أطراف الجزيرة وفوداً على النبي ﷺ، ويسلمون على يديه ﷺ، وذلك لأن العرب كانت تنتظر فتح مكة، ويقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله مكة عليه دخل الناس في دين الله أفواجاً، فإذا حصل هذا كله وهو حاصل بلا ريب ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي نزه ربك وقدِّسه شكراً له على نعمة النصر والفتح، ودخول الناس في الدين الحق وتلاشي الشرك. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾أي اطلب منه المغفرة لك ولأمتك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي إنه ﷻ كثير القبول لتوبة عباده المستغفرين.

أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ قال: ذاك حين نعى له نفسه، يقول: إذا رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، يعني إسلام الناس يقول فذلك حين حضر أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

لما سبق وأن ذكرت قصة أصحاب الفيل كاملة أردت أن أذكر في المقابل قصة الفتح المبين، فتح مكة على سيد المرسلين وهي ملخصة من كتابي «شهر رمضان في الفقه والتاريخ والأدب» ص٥٩ ـ ٦٨.

إنَّ فتح مكة المكرمة كان له أثر عميق في نفوس العرب حيث دخل الناس بعد الفتح في دين الله أفواجاً، وذلك لأن العرب تعرف أنَّ مكة منيعة، ولا يمكن أن يفتحها ملك جبار أو مَن يريد لها سوءاً، إذ لا يزال منهم من عاصر حادثة الفيل، وشاهد ما فعل الله بأبرهة الطاغية، وكذلك كانت قبائل العرب تجل قريشاً وبينها وبينهم حلف، فلما فتح الله تعالى لنبيه مكة، وأسلمت قريش، طوعاً وكرهاً، أقبل العرب على الإسلام ودخلوا في دين الله أفواجاً بإرادة الله تعالى ومشيئته، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ سورة النصر بكاملها.

وكان من أسبابها أنه قد تقرر في صلح الحديبية أنه مَن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومَن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ.

وكان بين بني بكر وبين خزاعة ثأر قديم وعداء متوارث قبل البعثة المباركة، وجاء الإسلام فحجز بينهم، فلما كان صلح الحديبية دخلت القبيلتان في معسكرين متحاربين، فأراد بنو بكر أن ينتهزوا الفرصة ليأخذوا ثأرهم القديم من خزاعة أثناء هذه الهدنة، فوثبوا عليهم بماء لهم يقال له: الوتير قريب من مكة فأعانت قريش بني بكر على خزاعة بالسلاح وقاتل بعضهم معهم.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، وقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه وأنشد أبياتاً من الشعر، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة، وطلب النجدة، وأخبره أنَّ قريشاً أخلفوه الموعد، ونقضوا الميثاق، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم، وقتلوا ركعاً وسجداً، فقال له رسول الله ﷺ: **«نصرت يا عمرو بن سالم»**.

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، فقال رسول الله ﷺ: **«كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة، بعثته قريش، وقد رهبوا للذي صنعوا»** [ذكره ابن كثير عن ابن إسحاق].

ثم قدم أبو سفيان، فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر الصِّديق، فكلمه في أن يكلم النبيّ ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفع لكم؟ والله لو لم أجد إلا الذر، لجاهدناكم به، ثم دخل على عليّ بن أبي

طالب، وعنده فاطمة والحسن غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإني جئت في حاجة، فلا أرجعنَّ خائباً، اشفع لي إلى محمد، فقال علي: عزم رسول الله ﷺ على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة: هل لك أن تأمري ابنك هذا، فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: ما يبلغ ابني ذلك، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ فقال: يا أبا الحسن، إني رأيت الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم وأجِرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك، فقال: أَوَترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا، والله ما أظنه، ولكن ما أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: يا أيُّها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانصرف عائداً إلى مكة، فلما سمعت قريش القصة، قالوا: جئتنا بما لا يغني عنا، ولا يغني عنك شيئاً وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، واستعان على أمره بالكتمان، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتجهز، وقال: «**اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**».

وحدثت قصة حاطب بن أبي بلتعة في هذه الأثناء كما جاء في الروايات أنَّ النبيّ ﷺ لمّا أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأسرّ الأمر، فتجهز الناس وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش، يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أرسله مع امرأة، فجعلته في قرون رأسها وفتلت عليه، ثم خرجت به، وأتى الخبر رسول الله ﷺ من السماء، فأرسل رسول الله ﷺ علياً والزبير إلى المرأة، فأدركاها بروضة خاخ(١)، فأنكرت ففتّشا رحلها، فلم يجدا فيه شيئاً، فهدداها، فأخرجته من قرن رأسها، فأتيا به رسول الله ﷺ، فدعا حاطباً، فقال: «**ما هذا يا حاطب؟**»، فقال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت، ولا بدلت، ولكني كنت امرءاً مُلْصقاً في قريش، لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم

---

(١) موضع بين المدينة ومكة.

قرابة يحمونهم، وكان مَن معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت أن أتخذ عندهم يداً، قد علمت أنَّ الله مظهر رسوله، ومتم له نوره.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه شهد بدراً، وما يدريك يا عمر، لعلَّ الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**» فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

فخرج رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان من المدينة ومعه عشرة آلاف، ومضى حتى نزل مر الظهران، وعمَّى الله الأخبار عن قريش، فهم على وَجَل وترقّب.

وأمر رسول الله ﷺ الجيش فأوقدوا النيران، فأوقد أكثر من عشرة آلاف نار، وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً، مهاجراً، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، فلما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران على ما أسلفنا، ركب العباس بغلة رسول الله ﷺ، وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحطَّابة أو أحداً يخبر قريشاً، ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ، قبل أن يدخلها عنوة، وفي نفس الوقت كان أبو سفيان قد خرج من مكة يتحسّس الأخبار، ومعه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، فلما رأوا نيران العسكر، هالهم المنظر، وأخذوا يتراجعون بالكلام تعجباً مما يرون، فسمع العباس هذا الحوار، وعرف صوت أبي سفيان، فأخبره قائلاً: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش، فأركبه في عجز بغلته، وخشي عليه أن يدركه أحد المسلمين فيقتله، وأتى به رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلٰه إلا الله؟**»؛ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم

قال العباس: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: «**نعم، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن**».

فوسَّع الرسول ﷺ في الأمن والعفو، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم إلَّا معاند ومكابر، ونهى النبيّ ﷺ جيشه عن استخدام السلاح عند دخول مكة إلَّا مَن اعترضهم وقاومهم، وأمر الجيش بأن يعف عن أموال أهل مكة.

وأمر الرسول ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان بمضيق الوادي، عند خَطْم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، وتحركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج، وكانت القبائل تمر على راياتها، فكلما مرّت قبيلة سأل عنها وعن اسم القبيلة فيخبره العباس، حتى مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس مَن هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذاً.

ثم مضى أبو سفيان، فلما جاء قريشاً، صرخ بأعلىٰ صوته: هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، ما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه باباً فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ودخل رسول الله ﷺ مكة وهو واضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أنَّ ذقنه ليكاد يمسّ واسطة الرحل، وهو يقرأ سورة الفتح[1].

وكان ذلك في صباح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة، وتجلّت معالم الرحمة وسماحة الإسلام، وكرم النبوة في الفتح المبارك، ومنها أنَّ رسول الله ﷺ أردف أسامة وهو ابن مولى

---

(١) كما جاء في صحيح البخاري روايةً عن معاوية بن قرة قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح.

رسول الله ﷺ، ومنها أنَّ رجلاً كلمه يوم الفتح، فأخذت الرجل رعدة وانتابه الخوف، فقال له الرسول ﷺ: «**هون عليك فإني لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**»[١].

ومنها أيضاً: أنه لما مرَّ سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتبة الأنصار، قال له: اليوم يوم الملحمة، واليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً، فغضب أبو سفيان، فشكا إلى رسول الله ﷺ وأخبره بمقالة سعد، فاستنكر رسول الله ﷺ مقالة سعد وقال: «**بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشاً، ويعظم الله الكعبة**»[٢]، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى سعد ونزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس بن سعد فبهذا لم يتغير خاطر سعد حيث أنَّ اللواء لم يخرج عنه، إذ صار إلى ابنه[٣]. فانظر كيف عالج رسول الله ﷺ هذا الموقف العصيب بإبدال حرفٍ بحرف وأبٍ بابن وأرضىٰ أبا سفيان وهو في حاجة تأليف القلب من غير أن يسيء إلى سعد الذي هو من السابقين.

وكانت قد وقعت مناوشات قليلة أثناء دخول مكة بين صفوان وعكرمة وسهيل وبين أصحاب خالد بن الوليد، أصيب فيها من المشركين قريب من اثني عشر رجلاً، ثم انهزم الباقون[٤].

ولما نزل رسول الله ﷺ، واطمأن الناس، ركزت راية الرسول ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح، وخرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقاً، وما يبدئ الباطل وما يعيد**» والأصنام تتساقط على وجهها[٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع.
والقديد: هو اللحم المملح المجفف في الشمس، من كتاب: النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٢).
(٢) انظر: فتح الباري (٨/ ٧).
(٣) فتح الباري (٨/ ٩).
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٩٥).
(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٠٠).

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل فأمر بها فكسرت، ولما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها ومعه أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع، وقف وصلّى هناك، ثم دار في البيت، وكبّر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً، ينظرون ماذا يصنع بهم، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم، فهو تحت قدميّ هاتين الإسدانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب**»، ثـم تـلا هـذه الآيـة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

ثـم قـال رسـول الله ﷺ: «**يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟**»، قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «**فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلَّى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «**أين عثمان بن طلحة؟**» فدعي له، فقال: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء**»[1].

ثم أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلو، والنداء الخالد ينطلق، ومكة ترتج بالأذان: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أنَّ لا إله إلّا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله... إلخ، فخشعت النفوس، واطمأنت القلوب، وذهبت أيام الشرك، وتحطمت الأصنام، وساد الإسلام، واندحر الكفر، وعلت كلمة الله. فكان يوماً عظيماً من أيام رمضان أعزَّ الله فيه أهل الإسلام عزة لا ذل بعدها، ورفعة لا

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٠).

سقوط بعدها، وكرامة أكرم الله بها من يشاء من عباده، وفتح مبين لا هجرة بعده.

ثم إنَّ رسول الله ﷺ دخل دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلّ ثماني ركعات صلاة الفتح شكراً لله على الفتح المبين، وهكذا كان أمراء الإسلام إذا فتحوا بلداً صلّوا هذه الصلاة.

ولما استقر الفتح، أمّن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم مَن ارتد عن دينه، ومنهم مَن قتل مسلماً غيلةً، ومنهم مَن كان يشتغل ويتسلّى بهجائه، ويذيعه بين الناس، وهم: عبد الله بن أبي سَرْح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن أبي خَطَل، والحارث بن نفي، ومقيس بن صبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان لابن خَطل، وسارة مولاة لبني عبد المطلب، فأما ابن أبي سرح فجاء فاراً إلى عثمان، فاستأمن له رسول الله ﷺ، فقبل منه، بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله.

وأما عكرمة، فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب، وعادت به، فأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل، ومقيس، والحارث، وإحدى القينتين فقتلوا، وأما هبّار، ففر ثم جاء فأسلم، وحسن إسلامه. واستؤمن لسارة ولإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه، فأمنهما، فأسلمتا.

ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم على الصفا، وأخذ على الناس السمع والطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ فيما استطاعوا، ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء كما في سورة الممتحنة.

وقام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«أيُّها الناس، إنَّ الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجرة فإن أحد من الناس ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا له: إنَّ الله أذن لرسوله، ولم يأذن لك، وإنما أُحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها**

بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»[1].

وحدثت أمور كثيرة أثناء الفتح، هي من دلائل النبوة منها أنه عندما صعد بلال فأذن على الكعبة كان أبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هاشم وأشراف قريش جلوساً بفناء الكعبة، فتحدثوا فيما بينهم ولم يسمع أحد من الناس كلامهم، فخرج عليهم النبيّ ﷺ وأخبرهم بما قالوا مفصلاً، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك.

ومنها أنه همَّ فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له: «**أي فضالة!**»، قال: نعم، يا رسول الله! فقال: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبيّ ﷺ ثم قال: «**استغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليَّ منه.

وبعد أن استقرَّ الفتح أمر رسول الله ﷺ عتّاب بن أسد الخزاعي، فجدد أنصاب الحرم.

وبعث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول مكة، فكسرت كلها، ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديه بمكة المكرمة: مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنماً إلَّا كسره.

فلما فتح الله لنبيه مكة، وأسلمت قريش طوعاً وكرهاً، أقبل العرب على الإسلام، إقبالاً لم يسبقه مثله، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً، يصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾.

حدث هذا الفتح العظيم، فتح مكة في رمضان المبارك، وقد لخصته تلخيصاً غير مخل، ومَن أراد التفصيل فيه فليرجع إلى كتب المغازي والسير، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه.



مكية وآياتها خمس آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ[1] وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢
سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ[2] ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ
مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾.

أخبرت هذه السورة بهلاك أبي لهب عدو الله ورسوله وهو أحد أعمام النبي ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأذية له، وتنقصاً لدعوته، حتى أنه كان يترك مهامه الخاصة ويتبع النبي ﷺ ليطعن في دعوته ويصد الناس عن الإيمان به، كما سيأتي، فتوعده الله تعالى في هذه السورة في الآخرة بالنار الموقدة بصلاها ويُشوى بها، وقُرنت زوجته به في ذلك، واختصت بلون من العذاب الشديد هو حبل يكون حول عنقها تجذب به في النار، زيادة في تنكيلها لأنها كانت تؤذي رسول الله ﷺ بغضاً له ولدعوته.

وفي سبب نزول هذه السورة روى الشيخان عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبيّ على الصفا ونادى: «**يا بني فهر! يا بني عديّ!**» (لبطون من قريش) حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً، لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش

(١) ﴿لَهَبٖ﴾ قرأ ابن كثير المكي بإسكان الهاء وقرأ الباقون بفتحها.
(٢) ﴿حَمَّالَةَ﴾ قرأ عاصم بنصب التاء، وقرأ الباقون برفعها.

فقال[1]: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: «**فإني لكم نذير بين يديّ عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت هذه السورة. أي سورة المسد.

وقيل: لما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه، أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلم تر إلا أبا بكر فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك قد بلغني بأنّه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لقائلة: مذمماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا، ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ قال: «**ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني**».

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أي خسرت وخابت، والتباب هو الخسار، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧] أي في خسارة، والآية نزلت رداً على قول أبي لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، وذلك عندما وقف النبي ﷺ على الصفا ونادى فخص وعم، وقال: «**إني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد**» كما مرّ في سبب النزول، فالجزاء من جنس العمل، أبو لهب دعا بالتباب، فدعا الله عليه به، جزاء وفاقاً، وذكر اليدين من باب إطلاق الجزء على الكل، فالهلاك واقع عليه كله يداً وذاتاً.

واسمه كما سبق عبد العزى بن عبد المطلب، وسمي أبا لهب لإشراق وجهه، أو لأن مصيره في الآخرة ناراً تلظّى لهباً.

قوله: ﴿وَتَبَّ﴾ الأولى دعاء عليه بالهلاك والثانية إخبار بهلاكه، وقد هلك أبو لهب بعد غزوة بدر الكبرى بأيام، فلم يشهدها، بل أرسل بديلاً عنه، فلما علم بكسر شوكة المشركين في غزوة بدر، وقتل صناديدهم مات كمداً، وقيل: أصابه مرض خطير يسمى العدسة، فمات به، وبقي ثلاثة أيام لم يدفن

---

(١) أي رسول الله ﷺ.

حتى إنتن، ثم إن أولاده غسلوه بالماء من بعيد مخافة العدوى بمرض العدسة، وكانت العرب تخاف من هذا المرض كالطاعون. هذا في الدنيا، أما في الآخرة فله عذاب النار، ثم قال تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ أي لما سخط الله عليه وعذبه، لم يفده شيء، ولم يدفع عنه العذاب ماله ولا ولده، قيل: إن أبا لهب كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفتدي نفسي من العذاب بمالي وولدي فأنزل الله ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾، وكان لأبي لهب ثلاثة أبناء، هم: عتبة، ومعتب، وعتيبة (مصغراً)، وقد أسلم عتبة ومعتب يوم فتح مكة، وشهداء حنيناً والطائف، وأما عتيبة فلم يسلم، وهو الذي دعا عليه النبي ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ورد ابنته وطلقها، وقال الرسول ﷺ: «**اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك**» فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام.

قوله تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾ أي تَوَقُّد واشْتِعال، وهي نار الآخرة، فسيدخلها ويستقر فيها ويحترق بها جزاء ما عمل من مقاومة الدين الحق، وأذية الرسول.

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ أي كذلك امرأته معه في النار، وهي من أشراف قريش، ولكن لم يغن عنها شرفها شيئاً، لأنها شاركت زوجها في الكيد والعداوة للدين الحق، وكانت عوناً له على كفره وجحوده، وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان بن حرب وعمة معاوية ﷺ، ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ بالنصب على الشتم والذم وبالرفع نعتاً، لأنها كانت تمشي بالنميمة، وقيل: إنها كانت تحمل الحطب الذي فيه الشوك وتضعه في طريق رسول الله ﷺ أذية له. وزيادة في التنكيل لها ولزوجها، فإنها ستكون حمالة لحطب جهنم، فتلقيه على زوجها ليزداد عذابهما معاً.

وقوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ أي في عنقها حبل من ليف تعذب به في النار، فتعذب بجنس ما كانت تفعل في الدنيا، فقد كانت تتقلد بحبل من الليف، فتخرج فتحتطب، فتربط به الحطب الذي تأتي به لتضعه في طريق النبي ﷺ، فقد أنزلت نفسها منزلة الحطابات مع أنها في غنى عن ذلك، وإنما فعلت ذلك لتؤذي النبي ﷺ، فواجهت أسوأ المصير، وقيل:

كانت لها قلادة في عنقها فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد في النار.

وقد كان أبو لهب من أشد أعداء الدين الإسلامي حتى أعماه هذا العداء والبغض عن تفهم حقيقة هذا الدين القيم، وحمله على عداوة ابن أخيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فهو من أقرب الناس إليه، ولكنه كابر وعاند وفجر ووقف في وجه دعوة الحق كما في الأخبار الآتية: روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد الديليّ قال: رأيت النبيّ ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «**يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**». والناس مجتمعون عليه. ووراءه رجل وضيء الوجه أحول، ذو غديرتين، يقول إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب، وفي رواية له: يتبعه من خلفه يقول: يا بني فلان! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه.

وزوجته لم تبعد عنه حالاً، بل وافقته في الكفر والضلال، وعاونته، حتى وضعت الشوك في طريق النبي ﷺ، فكان مصيرها معه في العذاب.

وفي هذه السورة معجزات باهرة، منها الإخبار بشقاء أبي لهب وزوجته، وقد وقع ذلك فماتا على الكفر، وفي السورة عظات عظيمة، منها أن مَنْ عادى ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ وطاوع هواه، واغتر بالأموال والأولاد والجاه، فلن يغني عنه ذلك شيئاً من العذاب الذي يستحقه.



سورة الإخلاص

مكية وآياتها أربع آيات

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ بعث رجلاً على سرية. وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم: بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ ﷺ، فقال: «**سلوه لأيّ شيء يصنع ذلك**»، فسألوه. فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله تعالى يحبه**».

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ **تعدل ثلث القرآن**». وأخرجه البخاريّ في قصةٍ. وروى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى هذه السورة.

❖ ❖ ❖



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا[1] أَحَدٌ ۝٤﴾.

هذه سورة الإخلاص، تحدثت عن صفات الله تعالى، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، الجامع لصفات الكمال، الواحد الأحد المقصود

---

(١) ﴿كُفُوًا﴾ قرأ حفص بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً وغيره بالهمز، وقرأ خلف ويعقوب وحمزة بإسكان الفاء وغيرهم بضمها ولحمزة فيه وقفاً وجهان الأول: نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة، الثاني: إبدال الهمزة واواً على الرسم ولا يخفى أن التنوين يبدل ألفاً عند الوقف للجميع لأنه يصير مد عوض يمد حركتان لا غير. والوقف هنا لا يكون إلا في حال الاضطرار.

على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات المجانسة والمماثلة، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له من خلقه نظير ولا مشاكل. فلا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا مماثل عليه توكلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وذلك لما سأل المشركون واليهود النبي ﷺ عن ربه، وقالوا: أنسب لنا ربك أو قالوا: صف لنا ربك، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أي هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا ند ولا شبيه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو ﷻ واحد أحد، لا إله إلا هو، المعبود بحق، تعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ خاص بالله ﷻ، لا يطلق على غيره.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أي السيد المقصود في قضاء الحوائج، الذي استغنى عن خلقه، والكل مفتقر إليه، قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، فهو ﷻ لا مثيل له، ولم يكن له ولد لانتفاء مَنْ يجانسه، إذْ الولد يجانس والده، بل هو جزء منه، كما قال النبي ﷺ في فاطمة: «**إنها بضعة مني**» والله ﷻ لا مثيل له ولا مجانس، لأن المماثلة والمجانسة منفية عنه تعالى ليس كمثله شيء، ولم يولد لانتفاء الحدوث عنه تعالى، فهو تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولوداً؟ ﷻ.

وفي الآية رد على ثلاث طوائف منحرفة من بني آدم، وهم المشركون واليهود والنصارى، لأن المشركين جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وقالوا: إن الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، فكذبهم الله بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي لم يكن له أحد مساوياً في جميع صفاته، فنفى ﷻ عن نفسه أن يكون له ولداً أو مولوداً أو له مثيل، فهو ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعد، حدثنا المفضل بن فَضالة، عن عقيل ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثَ مراتٍ.

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أولُ الخلق بأهون عليَّ من إعادته وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحدُ الصمدُ، لم أَلِدْ ولم أُولد، ولم يكن لي كفواً أحدٌ»**.

قال ابن تيمية[1]: كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب، يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له. وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله. وهذه السورة دلت على النوعين. فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ينفي المماثلة والمشاركة. وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يتضمن جميع صفات الكمال. فالنقائص جنسها منفي عن الله تعالى. وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها، بخلاف ما يوصف به الرب. ويوصف العبد بما يليق به مثل: العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك. فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات، فضلاً عن أن يماثله فيه. بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم، وكلاهما مخلوق. فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق. وقد سمى الله نفسه عليماً حليماً رؤوفاً رحيماً سميعاً بصيراً عزيزاً ملكاً جباراً متكبراً، وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء، مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١٠٨).



سُورَةُ الفَلَق

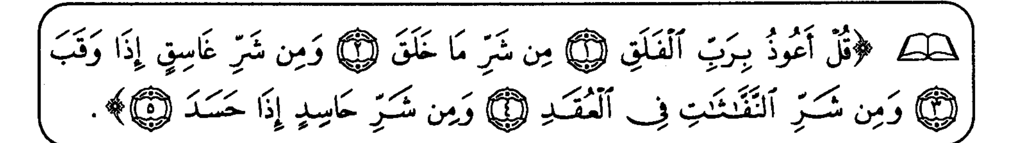
مدنية وآياتها خمس آيات

روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

وروى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها. ورواه البخاري ومسلم. وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوّذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

❖ ❖ ❖

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

في هذه السورة الأمر بالالتجاء إلى الله تعالى والاستعاذة به من شر كل ذي شر، فلا عصمة للعبد إلا بالله تعالى، وخص ثلاثة أمور، وهي: الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد، لأن الضرر في هذه الأمور الثلاثة يكون خفياً، فالليل ستر وغشاء يكمن فيه الشر ولا يُعلم، والسحر خفي لا يعلم كذلك، والحاسد إذا حسد، ومن الحسد عين العائن، فتصيب دون العلم بها، فلا سبيل إلى السلامة من هذه الشرور إلا بالالتجاء

إلى الله تعالى وتعلق القلب به، والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه ﷻ، والمداومة على الأوراد الشرعية التي بها يحصن العبد نفسه صباحاً ومساءً وفي كل حين بقلب حاضر، وهذه السورة هي إحدى المعوذات التي ينبغي المحافظة على قراءتها كما في السنة صباحاً ومساء وعند النوم، وهي الإخلاص والفلق والناس.

نزلت هذه السورة ـ كما جاء في الصحيحين عن عائشة ﵂ ـ في قصة سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ. والنفاثات: بناته اللواتي كن ساحرات، فسحرن النبي ﷺ، وعقدن له إحدى عشرة عُقْدة، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة آية بعدد العقد، هي المعوذتان، فشفي النبي ﷺ.

وقصة هذا السحر: أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ ـ ولكن لم يؤثر السحر فيه وعوفي منه ـ سحره في جُفّ (قشر الطلع) فيه مشاطة رأسه ﷺ، وأسنان مشطه، وَوَتَرٌ معقود فيه إحدى عشرة عُقدة مغروز بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد ﷺ في نفسه خِفَّة (نشاطاً) حتى انحلت العُقْدة الأخيرة، فقام، فكأنما نشط من عقال. وجعل جبريل ﵇ يرقى رسول الله ﷺ، فيقول: «**باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعين، والله يشفيك**».

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ أي ألوذ به وألتجئ إليه، والفلق الصبح، قال ابن عباس: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الصبح كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقال ابن تيمية: كل ما فلقه الرب فهو فلق، وقال الحسن: الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحب والنوى ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي من شر جميع المخلوقات من الإنس والجن والدواب والهوام وغير ذلك، ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ أي ومن شر الليل، إذا أظلم واشتد ظلامه، ففيه ينتشر أهل الشر من الإنس والجن، وتكثر فيه الهوام والوحوش، فلذلك أمر أن يُتعوذ من شر الغاسق، أي الليل.

وورد أن الغاسق هو القمر كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه أرى عائشة القمر وقال: «**هذا هو الغاسق**» [أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن]. وإنما كان القمر غاسقاً لأن سلطانه يكون في الليل.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ أي من شر السواحر اللاتي يعقدن عقداً من خيوط وينفثن فيها ليضروا الناس بسحرهم، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ أي ومن حاسد يتمنى زوال النعمة عن غيره، وهذا هو الحسد المذموم، أن يتمنى زوال النعمة عن المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها، وأما الغبطة فهي تمني مثلها وإن لم تزل عن غيره، وتسمَّى المنافسة، ولا بأس بها، وفي الحديث: «**المؤمن يغبط والمنافق يحسد**»، وفي الصحيحين «**لا حسد إلا في اثنتين...**» الحديث(١). والحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي الله به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، وفي الحديث: «**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»، أخرج البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي ﷺ جلوساً فقال: يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان من الغد. قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع الرجل مثل مرته الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: إني لاحيت أبي فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تأويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت قال: نعم، قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم يره يقوم إلا لصلاة الفجر، وإذا تقلب على فراشه ذكر الله وكبره، ولا يقول إلا خيراً. فلما مضى الثلاث ليال وكدت احتقر عمله قلت يا عبد الله: لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي

(١) تمام الحديث: «**لا حسد إلَّا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**» رواه البخاري ومسلم.

إليك فأنظر ما عملك فلم أرك تعمل كثير عمل، فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غشاً على أحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق.



سُورَةُ النَّاسِ

مدنية وآياتها ست آيات

ورد في فضل هذه السورة الكريمة، كالسورة المباركة التي قبلها أحاديث كثيرة، منها ما روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾».

وروى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقر عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها. ورواه البخاري ومسلم. وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

الإنسان ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضرر، فلذلك أمر الله تعالى في هذه السورة والتي قبلها بالإلتجاء إليه، والاستعاذة به في دفع كل ما يمكن أن يصيب الإنسان من الشرور بسبب غلبة شهوة أو تسلط شيطاني من الجن أو الإنس، لذلك أمر الله تعالى بالاعتصام به والإلتجاء إليه، فقال

تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وهو الله تعالى، رب كل شيء ومليكه، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ أي الملك الذي له السلطة العليا في الناس، والتصرف الكامل هو الله ﷻ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ أي إلههم المعبود بحق الذي لا إله لهم سواه.

قال ابن كثير: هذه ثلاث من صفات الرب ﷻ: الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوّذ بالمتصف بهذه الصفات.اهـ. «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦١٥).

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي الشيطان ذي الوسوسة، الذي يغري الناس بالمعاصي ويزينها لهم ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس ويتأخر إذا ذكر العبد ربه، ثم إذا غفل عاد إلي الوسوسة، ولا يحميك منه أيها المسلم إلا ذكر الله تعالى، فلذْ بربك وفرَّ إليه تجد النجاة. وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ أي يلقي بصوت خفي في صدور الناس ما يصرفها عن الحق، ويزين لها القبيح وفعل الذنوب وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أي إن الوسوسة التي سبق الأمر بالتعوذ بالله منها ومن فاعلها تكون من الجن ومن بني آدم، كقوله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وروى الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أبا ذر تعوّذ بالله من شر شياطين الإنس والجن**».

فوسوسة الجن تُطرد بالاستعاذة بالله تعالى، لأنه إذا ذكر الله تعالى خنس الشيطان، أما وسوسة بني آدم فهي أصعب، لأنه قد يزين الباطل ويلبسه ثوب الفضيلة، ويظهر بمظهر الناصح، فتعوذ أيها المسلم بالله تعالى من شر الوسواس جنياً كان أو إنسياً، فالله تعالى هو الملاذ وهو المستجار به ولا نجاة إلا في الإلتجاء إليه والاعتصام به ﷻ.

اللهم إنا نسألك السلامة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة